أعلام العرب
٩٤

المبرد

(أديب النحاة)

تأليف : أحمد حسنين القرني
وعبد الحفيظ فرغلي علي

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر
١٩٧١

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين بدءا وختما ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد أفصح العرب وأبلغ الناطقين بالضاد ، وعلى آله وأصحابه الذين عذبت ألسنتهم ، وتنزهت عن الخطأ واللغو لغتهم .

وبعد ، فهذا تعريف بامام من أئمة اللغة والأدب الذين تركوا فى هذين الميدانين أثرا مشهودا ، وبذلوا فيهما جهدا مشكورا . هو الامام أبو العباس المبرد ، صاحب «الكامل» و «المقتضب» وغيرهما من المؤلفات النافعة والمصنفات النفيسة ،التى تناولت مختلف العلوم والفنون فى عصره الذى زخر بكثير من العلماء والادباء وظهر بينهم من التنافس ما أدى الى ازدهار الحركة العلمية والادبية فأثمرت ثمارا يانعة وآتت أكلها ضعفين .

لقد برز أثر المبرد فى ميادين عدة ، وأداه نبوغه الى أن يؤلف فى كل ما كان يشغل بال العلماء حينئذ ، فله فى كل من الأدب وفنونه ، والنحو وفروعه ، والشعر وقواعده وعروضه ، والبلاغة والنقد ، والقرآن ومعانيه ، وغريب اللغة والأنساب ، والخط والهجاء وغير ذلك مؤلف أو مؤلفات . وهذا يشهد ببراعته واتساع دائرة معارفه وثقافته .

لقد ظهر المبرد فى القرن الثالث الهجرى ، وعاصر كثيرا من خلفاء العباسيين الذين فتحوا قلوبهم وبيوتهم للعلم والعلماء ، مما كان له أثره فى اشعال جذوة المعرفة بين الطوائف المختلفة من عرب خلص ، وموال تعلموا اللغة العربية وأتقنوا علومها ونبغوا فيها ، ونشأ عن ذلك صراع ظاهر أحيانا ومستتر أحيانا ، وتعددت جوانب هذا الصراع فى نواح متشعبة ظهرت فى التعصب للرأى أو المذهب أو الجنس • فللنحو مذاهبه المختلفة التى دعا اليها البصريون والكوفيون وغيرهم ، وفى علوم الكلام ظهرت فرق الأشاعرة والماتريدية والمعتزلة وغيرها ، كما ظهرت مذاهب الفقه المختلفة ، وبرزت الشعوبية بدعوتها العنصرية المتطرفة التى حاولت الحط من شأن العرب ، ودان بفكرتها بعض الادباء والشعراء ، واستظل بظلها كثير من الزنادقة والملحدين •

ظهر المبرد فى هذا العصر الحافل بهذه الاتجاهات التى أثرى من ورائها الفكر العربى ، وكان له فيها سهم وافر ابان عن نبوغه ، ودل على مكانته ونبه على فطنته ، مما جعل المتوكل يخصه برعايته ، ويسبغ عليه ثوب عنايته ، ويقربه اليه ويأمر حجابه ألا يغلقوا الأبواب دونه ، وأن يسهلوا أمر دخوله اليه ، مما جعل الوزراء والأمراء يتوافدون اليه ، ويحرصون على معرفته والانتهال من فيض علمه ، وكان لبراعته وخفة روحه وتمكنه من مادته ، ومقدرته اللغوية وكثرة محفوظاته وسرعة استشهاداته أثر كبير فى اقبال التلاميذ نحوه وتحلقهم حوله حتى أفادوا منه الكثير وانتفعوا بعلمه الغزير ، كما كان له أثره فى اشتعال حدة المنافسة بينه وبين معاصريه وبخاصة ثعلب امام الكوفيين فى النحو •

ويعد المبرد من ممثلى الثقافة العربية الخالصة فى هذا العصر، ويقرر الدكتور أحمد أمين ذلك فى كتابه «ضحى الاسلام» ، ويعده مع كتابه الكامل خير نموذج لهذه الثقافة التى كادت تتميز بالناحية

التخصصية • باستثناء المبرد ، فقد تشعبت معارفه واتجهت الى فنون مختلفة كما أسلفنا ، وفى كل فن من هذه الفنون نراه ـ فى براعته ودقته ـ أستاذا متخصصا فى فنه ومادته •

وربما كان خلوص المبرد للثقافة العربية وحدها يرجع الى غيرته الشديدة على قوميته العربية تلك الغيرة التى جعلته يصفى نفسه لعلوم اللغة العربية وآدابها ويتصدى لأعدائها مدافعا عنها ذائدا عن حياضها نائيا بنفسه عن تيار السياسة الجارف حتى لا يشغله ذلك عن رسالته التى أعد نفسه لها على الرغم من تقريب المتوكل له ، وحرص غيره على استدنائه ، والتفاف الوجهاء حوله •

ولا يفوتنا التنويه بالأثر الضخم الذى تركه المبرد فى ميدان النقد والبلاغة والنحو ، وكتبه التى تركها فى هذا المجال ، ومجالسه التى كان يعقدها مع تلاميذه ومحاوراته مع غيره من العلماء والأدباء خير شاهد على ذلك •

ومن الضرورى التمهيد فى هذا الكتاب بلمحة عن الحالة السياسية والاجتماعية التى تباينت فى هذا العصر ، مما كان له صدى فى تباين الثقافة وتنوع روافدها وأسبابها واختلاف مؤداها وما ترتب على ذلك من اتساع هوة الخلاف واشتداد الصراع بين الحين والحين ، ومن طروء اللحن والفساد على اللسان العربى ، وكان من الضرورى أيضا التعرض للأدب العربى وتطوره ، ولنشأة النحو وتطوره حتى وصلا الى الصورة التى نراها متمثلة فى صفحات كل من الكامل والمقتضب ، تلك الصورة التى وصلت الى مستوى مناسب من النضج فى العقلية العربية والذوق العربى والبيان العربى •

ولا بد اذن من الاشارة الى هذا التراث العلمى واللغوى والادبى الذى خلفه هذا الامام الثبت الحجة ، كشاهد عدل على مدى ما وصل اليه من سبق وتقدم •

ولا يجوز أن نغفل فى هـذا الكتاب ـ وهو عن المبرد وعلمه وأدبه ـ التنويه بشـاعريته المتدفقة التى كانت تعينه فى كثير من المواقف ، وتسعفه بالجواب السـديد فى وقت يعز فيه على النثر الاعانة والجواب ، وان كان أكثر أشعاره لم يصل الينا حتى يمكن التعرف على خصائص هذه الشاعرية ومقوماتها الفنية ، والمقارنة بين انتاجه وانتاج غيره من الشعراء ·

وخطتنا فى عرض هذه الفصول من «كتـاب المبرد» استنطاق النصوص والشواهد التى تعين على اجلاء مانحن بصدده من التعريف بهذه الشخصية الفريدة ، التى نشعر بأن الحاجة ماسة الى التعريف بها ، حتى يتخذ منها العالم والمتعلم على السواء مثلا يحتذى فى الصبر على معاناة العلم واجتناء ثمره ، وعدم الوقوف عند غاية قريبة منه ، فالعلم بحر لا ساحل له ، والاجتزاء منه بالقليل تقصير وعجز ·

اننا الآن فى عصر تقدمت فيه العلوم وارتقت الثقافة ، ولكنا نرى الغالبية من ألسنة أبنائنا لا تكاد بالفصحى تبين ، وما تبدأ بها حتى تتعثر فيها ، فتلجأ الى العامية تحتمى فيها ، وعامية كل قطر عربى تختلف عن عامية القطر الآخر ، فلا يستطيع المتحدث بها أن يحقق الهدف المنشود من الحديث الذى يلقيه ، ولاسبيل الى الخلاص من ذلك الا بالاقبال على قراءة كتب الادب واللغة وبخـاصة القديم منها ، لتزول شيئا فشيئا هذه العـامية التى هى مظهر من مظاهر تفرق أجزاء الوطن العربى ، ولتسود الفصحى التى هى مظهر الوحدة العربية التى ننشدها والتى يجاهد الزعماء والقـادة فى سبيل تحقيقها ·

انا لنرجو اذن أن يكون هذا البحث حافزا للأبناء والاخوة على أن يتزودوا من الادب القديم وأن يعلموا أن لغتهم من خـير اللغات ومن أغناها ، وليست كما يقول من يحاولون اخفاء جهلهم بها وراء ستار العامية بأنهـا لا تسعفهم فى التعبـير عن آرائهم الادبية أو

الاجتماعية أو السياسية ، فهى حقا لا تسعفهم لأنهم لم يحصلوا عليها ولم يتزودوا منها ، وهى فى حقيقة أمرها كما تحدثت عن نفسها فى شعر حافظ ابراهيم شاعر النيل :

وسعت كتاب الله لفظا وغاية وما ضقت عن آى به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة وتنسيق أسماء لمخترعات ؟
أنا البحر فى أحشائه الدر كامن فهل سألوا الغواص عن صدفاتى؟

ونحن نستعين فى كتابنا هذا بالله راجين اياه أن يرزقنا التوفيق والسداد . وأن يلهمنا طريق الرشاد انه نعم المولى ونعم النصير .

المؤلفان

عصر المبرِّد

الحالة السياسية والاجتماعية

ولد المبرد سنة ٢١٠ هـ وتوفى سنة ٢٨٥ هـ ، وعاصر تسعة من الخلفاء العباسيين هم : ١ ـ المأمون (١٩٨ ـ ٢١٨ هـ)
٢ ـ المعتصم (٢١٨ ـ ٢٢٧ هـ) ٣ ـ الواثق (٢٢٧ ـ ٢٣٢ هـ)
٤ ـ المتوكل (٢٣٢ ـ ٢٤٧ هـ) ٥ ـ المنتصر (٢٤٧ ـ ٢٤٨ هـ)
٦ ـ المستعين (٢٤٨ ـ ٢٥٢ هـ) ٧ ـ المهتدى (٢٥٢ ـ ٢٥٦ هـ)
٨ ـ المعتمد (٢٥٦ ـ ٢٧٩ هـ) ٩ ـ المعتضد (٢٧٩ ـ ٢٩٠ هـ)

والقرن الثالث الذى عاش فيه المبرد شهد عهدين من عهود الخلافة :

أولهما ـ عهد سلطان الخلفاء وقد بدأ بأبى العباس السفاح الذى أخذ يعمل على توطيد دعائم الدولة العباسية ، ثم سار الخلفاء من بعده على نهجه لبناء مجد الدولة وتثبيت أركانها وحمايتها من العناصر الدخيلة التى تأتمر بها . ولقد كان أقل غرور من دخيل أو معاد ، أو أقل تمرد على سلطان الدولة كفيلا بأن يثير الخليفة ويحمله على البطش أشد البطش بمن تحدثه نفسه بشىء من ذلك ، على نحو ما فعل السفاح بأبى سلمة الخلال وزيره الفارسى ، وما فعل المنصور بأبى مسلم الخراسانى الذى يعتبر أكبر مؤسس لدولة العباسيين ، وما فعل الرشيد بالبرامكة ، والمأمون بالحسن بن سهل صهره ووزيره ، والمعتصم بالأفشين قائد جيوشه .

وثانيهما ـ عهد تقلص نفوذ الخلفاء ، وقد بدأ بظهور الاتراك وذلك أن المعتصم لما تولى الخلافة وجد نفسه بين قوتين تتصارعان في سبيل السيطرة على الدولة هما : العرب من جانب ، والفرس من جانب آخر ، فأراد أن ينشيء قوة يحمى بها سلطان الدولة من هذين المتناهضين ، ولأنه من أم تركية جعل هذه القوة تتمثل في الاتراك فاستكثر منهم ، ووكل أمور الدولة اليهم ، وأبعد كل من عداهم ، حتى لقد روى أنه كتب الى واليه على مصر واسمه كيدر نصر بن عبدالله يطلب منه أن يخلص جهاز الحكم من كل من هو عربي ، وأن يقطع عن العرب كل أعطياتهم . وحين استعان بهؤلاء الاتراك كان كالمستجير من الرمضاء بالنار فقد تحولوا الى نقمة على الدولة ، وكانوا مصدر ضعفها وانحلالها ، وزاد نفوذهم من بعده فقتلوا الخليفة المتوكل بمعونة من ابنه وولى عهده المنتصر مما حمل البحتري الذي شهد مصرع الخليفة أن يقول في رثائه له :

أكان ولي العهد أضمر غدرة　　　فمن عجب أن ولي العهد غادره

ومن بعد المتوكل صار كل خليفة ألعوبة في أيدي هؤلاء الاتراك يولون من شاءوا ثم لا يلبثون أن يخلعوه ثم يقتلوه . ولقد أثر عن الخليفة المعتمد أنه احتاج يوما الى ثلثمائة دينار فلم يجدها فقال في ذلك شعرا روى منه جلال الدين السيوطي قوله :

أليس من العجائب أن مثلي　　　يرى ما قل ممتنعا عليه
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعا　　　وما من ذاك شيء في يديه

وروى عنه السيوطي أيضا قوله :

أصبحت لا أملك دفعا لما　　　أسام من خسف ومن ذله
اذا اشتهيت الشيء ولوا به　　　عنى وقالوا : ها هنا علة

وهذه النكبات التي تعرض لها الخلفاء كان لها أثر سيء في تصريف أمور الدولة فكثر العزل والتولية بين الحكام ، واستتبع

ذلك انتشار الفساد، وتفشى الرشوة، وكثرت السرقات والمصادرات، وتعرضت الدولة لثورات سياسية واجتماعية هزت كيانها وكان منها ثورة الزنج التى ظهرت فى بلاد البحرين سنة ٢٤٩ هـ وانتقل زعيمها الى البصرة سنة ٢٥٤ فطارده حاكمها رجاء بن حيوة فهجرها واختفى فى بغداد ، ثم عاد اليها بعد أن عزل عنها رجاء ، وأخذ يغرى العبيد والأجراء بالمال والسلطان فانضم اليه آلاف مؤلفة قاموا بفتنة قتل خلالها فى البصرة وحدها ثلثمائة ألف فى يوم واحد على حد تقدير السيوطى ·

وقبل الاسلام كانت النزعة القبلية متأصلة فى نفوس العرب، فكان العربى يرى أعظم مفاخره فى الانتساب الى قبيلته ، وفى الاعتزاز بانتصاراتها ، والاشتراك فى الثأر لها · ولكن بمقدار ما ربطت هذه النزعة بين الفرد وقبيلته باعدت بين القبائل وبعضها فكثرت العداوات وزادت الخصومات القبلية ، وأصبحت غارة القبيلة العربية على أختها أمرا مألوفا يردده شاعرهم الذى يقول :

وأحيانا على بكر أخينا إذا ما لم نجد الا أخانا

ثم جاء الاسلام فحارب هذه النزعة ونادى بأن المسلم أخو المسلم ، وأن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا ، وأنه ليس من المؤمنين الصادقين من دعا بدعوى الجاهلية ·

وفى ظل الاسلام ومبادئه اختفت النزعة القبلية ولكن لم تستأصل العصبية من النفوس استئصالا تاما لما فى طبيعة العرب من حفظ الأنساب ، والتفاخر بأمجاد الأسلاف ·

وبدأ الاسلام يتأثر بالفتوحات الجديدة ، وبالبلاد التى دخلها العرب فاتحين ، أو ببعض أهل البلاد المفتوحة الذين وفدوا اليهم وامتزجوا بهم ·· جاء هذا كله بعد أن ظلوا محصورين فى شبه الجزيرة العربية قل منهم من يتجاوزها الى غيرها ، وقل من يأتى

اليهم من جهات العالم الأخرى • وعندئذ وجدوا مجالا حيويا فسيحا لنهضتهم وتقدمهم ، وأفادوا من احتكاكهم بالفرس والروم مدنية جديدة أرسوا قواعدها على أساس من دينهم الحنيف •

ودخل في الاسلام كثير من أبناء فارس ، واتخذوا العربية لغة لهم ، وسماهم العرب «الموالى» وهى تسمية ذكية ذات هدف ، أو هى مما نسميه الآن «الكلمات الدبلوماسية» التى تحتمل عدة تفسيرات ، فكلمة «مولى» تحمل معنى الحليف ، والصديق ، والعبد• وأصبح هؤلاء الموالى يمثلون عنصرا نشيطا يحس فى قرارة نفسه أنه سليل حضارة ومدنية أرقى من حضارة هؤلاء العرب ومدنيتهم، وأنه من شعب كان يسيطر على البلاد المجاورة له ومنها البلاد العربية منذ زمن بعيد ، ولهذا انحرفوا انحرافات سنعرض لها بعد قليل • هذا ، وقد امتزجوا بالعرب امتزاج تزاوج ومصاهرة فنشأ منهم جيل تميز بالعقل الواسع والتدبير المحكم يصدق عليه ما رواه المبرد اذ قال : زعم عمر بن الخطاب أنه ليس أحد أذكى من أبناء السرارى لأن لهم عز العرب وتدبير العجم ، وهذا هو الذى جعل الرقاشى الشاعر العباسى يقول :

ان أولاد السرارى كثروا يا رب فينا
رب أدخلنى بلادا لا أرى فيها هجينا

والهجين هو الذى تكون أمه أمة من السرارى وأبوه عربيا شريفا • وقد كثر زواج أشراف العرب من الجوارى الحسان من الفرس والروم والترك وغيرهم ، وأكثر أمهات الخلفاء العباسيين من هؤلاء الجوارى ، وقد كان ذلك واحدا من أسباب جعلت الدولة العباسية تقوم بأيد فارسية ، وتسير بأيد فارسية ، ثم بعد ذلك تركية •

هؤلاء الموالى كانوا فى عصر بنى أمية قد عجزوا عن التنفيس عن حقدهم المكبوت فأخذوا يغزون ميادين العلم والادب ويتقربون

بذلك الى الحكام ، ويعملون فى خفاء وحذر على اعادة الدولة الفارسية • ولقربهم من العراق اتخذوا التشيع مذهبا لهم ، وظلوا يعملون فى الخفاء حتى سقطت الدولة الأموية وقامت بمعونتهم الدولة العباسية فأفسحت صدرها لهم ، واحتلوا المراكز القيادية وصاروا شوكة فى ظهر العرب مما جعل المعتصم يعمد الى الاستكثار من الموالى الأتراك الذين تمزقت بسلطانهم الدولة العباسية شر ممزق •

تلك صورة موجزة للحياة السياسية والاجتماعية فى الدولة العباسية خلال الفترة التى عاشها العلامة المبرد الذى نترجم له ، وبقى أن نتحدث بايجاز عن الحالة العلمية والادبية فى هذه الفترة•

الحالة العلمية والأدبية

فى أواسط القرن الثانى الهجرى عنى المسلمون بدراسة علوم كثيرة من أهمها العلوم الشرعية واللسانية من لغوية ونحوية ، والعلوم الكونية •• وكانوا يعتمدون فى هذه العلوم على المشافهة أو الاستملاء من أكابر العلماء • وكان أكثر اعتمادهم فى هذا على الذاكرة ، وان كان بعضهم يرجع الى دفاتر كانوا يستملونها أو يستنسخونها ثم يحتفظون بها ليرجعوا اليها وقت الحاجة • وقد عرف الجاحظ بكثرة ما اجتمع لديه من هذه الدفاتر التى كان يستنسخها أو يشتريها أو يستأجرها من دكاكين الوراقين ، وقد سجل التاريخ أنه مات تحت أكداس هذه الدفاتر التى انهارت صفوفها عليه وهو ينقب فيها بعد أن كان قد أصيب فى أخريات حياته بالفالج • ويروى المبرد أنه حين لقى الخليفة المتوكل أول مرة اختبره بعبارة معقدة كان يحفظها فاستمهله الى اليوم التالى ، ثم عاد الى مقره يبحث فى دفاتره حتى عثر على الجواب • وهذا يدل على أنه كان كالجاحظ يحتفظ بكثير من الدفاتر والكتب •

ولا شـــك أن كل ما كان قـد اجتمع لدى الجاحظ والمبرد وأضرابهما انما هو من نتاج هذه الفترة من تاريخ العرب والمسلمين، وهى الفترة التى نشط فيها تدوين الحديث ، واللغة ، والشعر ، والاخبـــار ، والتاريخ • وكان الخلفـاء يشجعون العلماء والادباء فيقربونهم ، ويغدقون عليهم المال ، ويختارون من أئمتهم من يقومون على تعليم أبنائهم وجواريهم • وانتشرت مجالس العلم والتعليم فى مســاجد البصرة والكوفة وبغـداد ، وتعددت مجالس المناظرة فى المساجد والقصور ، وأنشئت المكتبات العامة وفى مقدمتها مكتبة بيت الحكمة ، وكثر الوراقون ، وكثر النساخون ، ونشطت حركة الترجمة وبلغت أوج تقدمها على يدى الخليفة المأمون •

كان هذا كله فى حين أن العباسيين بعامة كانوا يسرون حقدا على العرب لأنهم خذلوهم فى صراعهم مع الأمويين ، ولأنهم لم يمكنوا لسلطانهم الا بمعونة من الفرس الحاقدين على العرب ، ولهذا لم يكن عجبـا أن يروى الطبرى فى تاريخه أن ابراهيم بن محمد العباسى صاحب الدعوة قال فى كتاب بعث به الى أبى مسلم الخراسانى «ان استطعت ألا تدع بخراسان لسانا عربيا فافعل ، فأيما غـلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله » ، وان الخليفة المعتصـــم فعل مثل ذلك كما أسلفنا •

وابان خلافة الرشيد كان المجتمع الاســلامى قـــد بلغ ذروة مجده ، وصارت له سيادة عالمية فى السياسة والعلم والادب والفن، وصار نموذجا فريدا فى الترف المادى والمعنوى ، فلما تولى المأمون استكملت النهضة مقوماتها لما توافر للمأمون من جمع بين العـلم والادب والفن والثراء مما حمله على تقريب العلماء والادباء والاغداق عليهم فأقبلوا على الدرس والترجمة والانتاج فازدهر الفقه والشعر والنثر والادب بوجه عام ، ونقلت الى العربية علوم كثيرة من منطق وفلسفة ورياضة وفلك وطبيعة وكيمياء وموسيقى • وهضم المجتمع

الجديد هذه العلوم ومزج بينها وبين الثقافة العربية فنشأ ما سمى بالادب الاسلامى ، والعلوم الاسلامية مما فتح أمام العرب آفاقا واسعة ، وفجر ينابيع من القدرة والكفاية ٠

وفى ظل هذا المجتمع الذى توافر فيه ما توافر من علم وأدب ولد المبرد وترعرع ، فالمأمون قد بويع بالخلافة سنة ١٩٨ هـ ودامت خلافته عشرين عاما ، والمبرد ولد سنة ٢١٠ هـ أى أنه ولد خلال خلافة المأمون ، وتغذى من ثمار النهضة التى تمت على يديه ٠

وكانت البصرة مجمع العلماء والشعراء من جانب ، والكوفة من جانب آخر ، وأخذ الخلفاء يستدنون العلماء والشعراء فجاء اليهم كثيرون من الكوفة ، وأكثرهم من الموالى ولذلك عمرت بهم دور البرامكة ٠ فلما استوزر الرشيد الفضل بن الربيع العربى الصميم أخذ يعمل جاهدا على استمالة علماء البصرة من العرب الخلص لتعمر بهم داره كما عمرت دور البرامكة بأدباء الكوفة من الموالى ٠ وكان رجال الفكر والادب يجتمعون لدى الخليفة ولدى البرامكة ونحوهم فالكسائى مثلا كان يقوم على تأديب محمد الأمين وكان مؤدب الخليفة من قبل ، وسهل بن هارون كان مختصا بجعفر البرمكى ٠٠وهكذا٠

وذهب من ذهب من العلماء والأدباء الى بغداد للمسامرة والمنادمة والتأديب ، وبقيت حلقات الدرس فى البصرة والكوفة ، غير أن البصرة ابتداء من منتصف القرن الثانى صار الموالى خطرا عليها اذ تمرسوا بكل ما هو من خصائص العرب ، وبكل ما كان ينبغى أن يظل مقصورا عليهم ٠ وكان أصحاب البيوتات من عرب وفرس يفتحون دورهم للعلماء والادباء وأصحاب النحل ، فترى تلك البيوتات تموج برجال الحديث والفقه واللغة ، وبالخطباء ورواة الاخبار والاشعار ، وبالشعراء المحدثين بلا تمييز بين المولى والعربى الأصيل ٠ وكثر فى الموالى الشعوبيون الذين كانوا قد أجمعوا على

أن يفسدوا التاريخ كله ليفسدوا بناء عليه واقع العرب ، وليتم لهم فى ظل ذلك تحقيق الانقلاب الذى عقدوا نيتهم عليه ٠

بدأ هؤلاء الشعوبيون باثارة الشكوك ليكون الشك نقطة الانطلاق الى تحقيق الهدف المنشود ، وبدءوا بالشعر لمعرفتهم بمدى أثره فى العرب ، ودعوا الى التعصب للنسب غير العربى ، وبذلوا كثيرا من الجهد فى بعث أمجاد الفرس ، وانحرف أكثرهم عن الجادة، وكان على رأس هؤلاء المنحرفين بشار بن برد الشاعر الأعمى ، ومعمر ابن المثنى ، وسلم الخاسر ، وحماد الراوية ، وحماد عجرد ، وعبد الكريم بن أبى العوجاء ٠ وظهر من بين هؤلاء المنحرفين زنادقة دسوا الزندقة فى شعرهم وأدبهم مثل بشار ، والرقاشى ، وابان اللاحقى ، وصالح بن عبد القدوس ، وابن المقفع الذى نادى بأن يكون الجند من الخراسانية الذين خرجت منهم فئة تقول بالتناسخ وتسمى نفسها «الراوندية» ، وهى تلك الفئة التى تجرد الخليفة المنصور لها وقبض على كثير من زعمائها وأودعهم السجن ، غير أن عامتهم ثاروا وتجمعوا وهاجموا السجن وأخرجوا السجناء مما دعا الخليفة المنصور الى أن يقود بنفسه حركة القضاء عليهم ، وآزره فى ذلك الشعب فتمكن من آفناء خلق كثير منهم ترك جثثهم فى العراء طعاما للوحش والطير وعبرة لغيرهم ٠

وألف أبو عبيدة معمر بن المثنى كتاب «أخبار الفرس» وكتاب «فضائل الفرس» وكتاب «لصوص العرب» وكتاب « أدعياء العرب » وألف الهيثم بن عدى « كتاب المثالب الصغير » و « كتاب المثالب الكبير» وكتاب «مثالب ربيعة» وكتاب «أسماء بغايا قريش فى الجاهلية وأسماء من ولدن » وألف يونس بن أبى فروة كتاب « مثالب العرب والاسلام» وحمله الى امبراطور الروم فأجازه عليه بجائزة كبيرة ٠ وغاية ذلك كله توطيد الشعوبية ونشر مذهبها، وكان معمر بن المثنى يظهر الشماتة بكل عربى أموى يقتله العباسيون دون رعاية لحرمة

الموتى ، وكذلك كان يفعل كثير من الأعاجم الذين أصبحوا عربا بالولاء وباللغة ، وكان الأصمعى يتلقى العلم عن معمر بن المثنى وعمرو بن عبيد ولا ينكر فضلهما فى المعرفة ولكنه لا يستريح ألى شعوبيتهما ، ثم اتصل بخلف الأحمر عسى أن يجده أقل تعصبا للشعوبية منهما فاذا هو وهما سواء ، لكنه لحظ أن العلم تحول اليهم ، والى أمثالهم من غير العرب فظل يلزم مجالسهم ، ويأخذ عنهم على مضض •

وخلال هذه الفترة ظهر قاصون كثيرون كانت لهم مجالس يتحلق فيها الناس من حولهم لسماع عجيب قصصهم ، وكان هؤلاء يشكلون خطرا كبيرا على العقيدة السليمة بما يلقون على الناس من أمثال عربية وضعوا عنها قصصا تزرى بالعرب ، وبما وضعوا من أحاديث ينسبونها زورا الى النبى الكريم فى حين أنها لا يقرها عقل ولا دين ، بل لقد كان يضيق بها الملاحدة أنفسهم بعض حين كالذى روى من أن بشارا وهو من هو الحادا وزندقة كان يمر يوما بحلقات المسجد فسمع قاصا يقول : «من صام رجب وشعبان ورمضان بنى الله له قصرا فى الجنة صحنه ألف فرسخ فى مثلها ، وكل باب من أبواب بيوته ومقاصيره عشرة فراسخ فى أمثالها » ، فالتفت بشار الى قائده وقال : « بئست والله الدار هذه فى كانون الثانى » •

وبشار بن برد الذى ضاق بقول هذا القاص الكاذب على الرسول كان يأخذ بمذهب الجبرية ويدعو اليه ، وقوام هذا المذهب نفى الفعل حقيقة عن العبد واسناده الى الرب ، وبعض أئمته لا يثبتون للعبد أى فعل أو أى قدرة على الفعل ، وبعضهم يثبت للعبد قدرة غير مؤثرة وهم بذلك يشككون فى ثواب الآخرة وعقابها لأن الفاعل هو الله. فكيف يفعل ويعاقب الأداة التى سخرها للتنفيذ؟ وفى هذا يقول بشار :

طبعت على ما فى غير مخير   هواى ولو خيرت كنت المهذبا
أريد فلا أعطى ، وأعطى ولم أرد   وقصر علمى أن أنال المغيبا
فأصرف عن قصدى وعلمى مقصر   وأمسى وما أعقبت الا التعجبا

وكان يحن الى عبادة النار التى كانت ديانة الفرس قبل الاسلام فيقول :

الأرض مظلمة ، والنار مشرقة   والنار معبودة مذ كانت النار

ويقول :

ابليس خير من أبيكم آدم   فتنبهوا يا معشر الفجار
ابليس من نار وآدم طينة   والارض لا تسمو سمو النار

ويجاهر بشعوبيته فيفخر بالانتساب الى العجم ويقول :

نمت فى المكارم بى عامر   فروعى ، وأصلى قريش العجم

ويحط من شأن العرب ويعيرهم ويفضل جنسه الفارسى عليهم فيقول لواحد منهم :

أحين كسيت بعد العرى خزا   ونادمت الكرام على العقار
تفاخر يا بن راعية وراع   بنى الأحرار؟ حسبك من خسار

واذا كانت كل هذه البلبلة وهذه الاخطار قد نشأت عن اختلاط العرب بالموالى فهناك شىء آخر كان من نتائج هذا الاختلاط فقد فسد اللسان العربى فسادا جعل اللغة العربية لغتين : لغة عامية هى التى يسميها الجاحظ لغة المولدين والبلديين وهذه لها ألفاظ غير منتقاة ، وتتسامح فى الاعراب وتميل الى اسكان اواخر الكلمات ، ثم لغة الطبقة الراقية المتعلمة وهذه لغة معربة متميزة هى لغة الكتابة والتأليف . ولقد كان هذا من أسباب وضع علوم اللغة والنحو والبلاغة ثم التأليف فيها ، ونشأ عن ذلك علماء أجلاء أنفقوا

وقتهم وجهدهم فى التعلم والتعليم وكانوا يرحلون من بلد الى بلد رغبة فى الافادة والاستفادة ، كما قاموا برحلات متعددة الى البادية يلتقون بسكانها ، ويأخذون عنهم اللغة ، ويروون عنهم الاخبار لأنهم وجدوا أهل الحضر قد فسدت ألسنتهم ، وشاب اللحن لغتهم، وكان البصريون يفخرون على الكوفيين بأنهم يأخذون اللغة عن صميم أهل البادية فى حين يعتمد الكوفيون على حضر فسدت لغتهم .

وكان كثير من الادباء والشعراء يفخرون برحلاتهم الى البادية وتعلمهم على أهلها حتى الموالى أنفسهم ، فلقد سئل بشار عن سبب عدم لحنه فى أشعاره فقال : ومن أين يأتينى الخطأ وقد ولدت هاهنا ، ونشأت فى حجور ثمانين شيخا من فصحاء بنى عقيل ، مافيهم أحد يعرف كلمة من الخطأ ، ولئن دخلت الى نسائهم لوجدتهن أفصح منهم فمن أين يأتينى الخطأ ؟ وسئل الخليل بن أحمد : من أين علمك هذا ؟ فقال : من بوادى الحجاز ، ونجد ، وتهامة .

وبوساطة هذا العناء والجهد تمكن العلماء من وضع ضوابط للغة ، واستطاعوا أن يجمعوا مفرداتها فى معاجم تطورت على مر الايام حتى وصلت الى ماهى عليه الآن من تبويب وتنظيم .

وكما كان زائر البادية يتلقى اللغة كان كذلك يتلقى الادب فقد كانت دراسة اللغة والادب ذات اتصال وثيق ، فعن طريق رواية الاشعار والاخبار كانوا يتعلمون اللغة ومفرداتها ، وأهل البادية ــ كما يقول الجاحظ ــ لهم أدب فى القمة ، وكلامهم من أمتع الكلام ، فلا ألذ فى الاسماع ، ولا أفتق للسان ، ولا أكثر تأثيرا فى البيان من طول الاستماع الى حديث الأعراب الفصحاء .

وأدب البادية يمتاز بخفة روحه ، ورشاقة لفظه ، وبعده عن التأثر بالآداب الاخرى على عكس ما كان عليه أدب الحواضر من التأثر بالآداب الفارسية والهندية والرومية . وكان لعلماء اللغة طبع صاف

أعانهم على تذوق الادب ونقده فكانوا أدباء وعلماء في وقت واحد ، ولم يكن من اليســـير الفصل بين الادب وعلم اللغة في ذلك الوقت لذلك فان كل علماء اللغة في هذا الوقت من نحو الخليل بن أحمد والكسائي والمبرد وثعلب كانوا الى جانب علمهم باللغة أدباء .

واذ ان جهد موضوعنا ينصرف الى المبرد ، وهو امام من أئمة العلم والادب الذين عاشوا في هذه الفترة التي ازدهر فيهـا هذان اللونان أيما ازدهار نرى لزاما علينا أن نتحدث بايجـاز عن تطور الادب والنحو وهما المادتان اللتان برز فيهما المبرد ، وكان له فيهما انتاج وافر ، وآثار خالدة .

فن الأدب وتطوره

اختلف مدلول كلمة «الادب» باختلاف العصور ، ولكنها فى معانيها المتعددة لا تخرج عن المعنى اللغوى الذى سجله القاموس : «الادب (محركة) الظرف وحسن التناول • وأدب كحسن أدبا فهو أديب ، وأدبه أى علمه» وهو معنى مشتق غالبا من الادب أو الادبة بمعنى الدعوة الى الطعام ، والداعى الى الطعام لا يكون الا جوادا سخيا كريما • وبدأ لفظ الادب يستعمل بمعناه التهذيبى قبيل الاسلام ، ولما جاء الاسلام أطلق النبى الكريم هذا اللفظ فى ذاك المعنى فقال «أدبنى ربى فأحسن تأديبى» • وقد استعملوا لفظ «التأديب» فى معنى التهذيب وتحلية النفوس بجمال الخلق ، وشاع هذا الاستعمال وورد فى أشعار كثيرة ، وقد روى الجاحظ لأحد بنى فزارة قوله :

كذاك أدبت حتى صار من خلقى
أنى وجدت ملاك الشيمة الأدبا

ثم اتسع مدلول هذا اللفظ فشمل التعليم الى جانب التقويم ذلك أن الخلفاء والامراء استقدموا العلماء لتهذيب أبنائهم وتثقيفهم وتلقينهم ما حسن من الاخبار والاشعار وسموا هؤلاء العلماء

بالمؤدبين ، وأول من فعل ذلك أبو جعفر المنصور اذ أسند الى المفضل الضبى مهمة تعليم ابنه المهدى ثم قلده من بعده الخلفاء والامراء والوزراء ، وبذلك أضيف الى كلمة الادب مفهوم آخر وهو تعليم الاخبار ورواية الشعر وعلوم القرآن والسنة وكل ماله أثر فى تقويم النفس وتهذيب الوجدان ٠

ولما نشطت حركة التأليف والترجمة ، واتسعت الثقافة والمعرفة أطلقت كلمة الادب على ما تنتجه القرائح من جيد الشعر والنثر ، وأطلق لفظ الاديب على كل ذى انتاج جيد ٠ ثم اتسعت علوم الادب فشملت النحو والصرف والبلاغة وغيرها ، وكان لا بد أن تتسع هذه العلوم وتتشعب فروعها فظهر التخصص وعرفنا علماء النحو ، وعلماء الصرف ، وعلماء البلاغة أو الانساب ، وأطلقت لفظة الاديب على من يعنى بجيد الشعر والنثر ٠

تطور فن الادب

صار الأدب يطلق على جيد الشعر والنثر وما يعين على فهمهما ونقدهما من اللغة والنحو والتاريخ والأنساب وأيام العرب ، والالمام أيضا بالعقائد الدينية ، والفلك ، والفلسفة مما يلزم لفهم شعر بعض الفحول مثل المعرى والمتنبى وشوقى ٠ ومن هنا يظهر أن العالم يكفيه فن واحد يبرز فيه ما لم يكن عالما وأديبا ٠ أما الاديب فلا بد أن يكون دائرة معارف شاملة ، ولا بد له من مداومة القراءة والاطلاع وعدم الوقوف عند حد فى المعرفة ٠

ومنذ القدم كان فى العرب شعراء نابغون ولكل منهم راوية يحفظ شعره ويرويه ، فقد كان امرؤ القيس راوية لأبى دؤاد الايادى ، وكان زهير بن أبى سلمى راوية لخاله بشامة بن الغدير ، وراوية لأوس بن حجر ، وكان الحطيئة راوية لزهير ولابنه كعب ، وذوو الموهبة من هؤلاء الرواة صاروا شعراء نابغين تعدوا رواية

الشعر الى قرضه ونقده وتمحيصه وكانت لهم أسواق يجتمعون فيها يتناشدون الأشعار ويستمعون الى الحكم والمواعظ،ويحتكمون الى من يجيد الحكم منهم كما كانت الحال بالنسبة للنابغة الذبيانى .

ولما جاء الاسلام شغل الناس عن الشعر بالدعوة الجديدة ، ولكن ذلك لم يمنع وجود شعراء مجيدين منهم من يهاجم الدين الجديد ، ومنهم من يذود عن حياضه ، وكان الرسول عليه السلام يقول لحسان بن ثابت :«اهجهم وروح القدس معك » واذا كان الشعر وقتذاك قد فتر بعض الشيء فان القرآن الكريم ، والبيان النبوى الشريف أوجدا للأدب مجالا لم يكن ليتاح له من قبل .

وحين تولى بنو أمية الحكم كان من سياستهم أن يعيدوا الى الشعر روحه المتدفقة ، وأن يحيوا العصبية التى أماتها الاسلام ، والمرحوم أحمد حسن الزيات يعلل ارتفاع مكانة الادب فى العصر الأموى بقوله : « ان ذلك يعود الى حداثة عهد القوم بالبداوة ، وتمدح رجالاتهم باللسن ، وحاجتهم الى فصيح اللغة وطرف الشعر لاستجلاء غامض كتاب الله ..» وكان ابن عباس يقول : «اذا قرأتم شيئا من كتاب الله ولم تعرفوه فاطلبوه فى اشعار العرب» .

وفى كل ذلك كان الأدب يتدارس بالمشافهة ، وينقل بالرواية، ويدرس بالمحاضرة ولم يدون منه الا أقل القليل ، لان حركة التدوين لم تكن قد نشطت بعد ، ولكن دولة الشعر رغم ذلك ازدهرت ، وساعدت الاحداث الخطيرة التى جرت فى العصر الأموى على نموه وتقدمه ، وشهد هذا العصر مطلع كثير من الشعراء والادباء والخطباء من أمثال جرير ، والفرزدق ، والأخطل ، والكميت بن زيد ، وعبيد الله بن قيس الرقيات ، وقطرى بن الفجاءة وزياد بن أبيه ، والحجاج بن يوسف الثقفى والحسن البصرى .

بل لقد شهد هذا العصر ـ الى جانب ما جد فيه من أغراض مستحدثة فى الشعر ، ظهور فن جديد من فنون الادب العربى وهو «النثر الفنى» الذى ارتقى على يد « عبد الحميد الكاتب » .

ولكن صناعة الادب لم تزدهر الازدهار الخليق بها الا على يد العباسيين الذين تقدمت العلوم في عصرهم • وفى أوائل عهدهم كان الادب لا يزال يؤخذ من أفواه العرب الخلص من أهل البادية ممن لم تفسد لغتهم بمخالطة الأعاجم ، وقد كان يرد البادية طائفة من رواد اللغة والادب مثل الخليل بن أحمد ، وخلف الأحمر ، وأبى عبيدة ، والأصمعى فهؤلاء ونحوهم كانوا يتحملون عناء السفر ليداخلوا الاعراب فى سبيل الحصول على خبر مستملح أو شعر مستطرف أو كلمة عربية •

ثم لم تلبث أن اتسعت حركة التدوين والتأليف والترجمة ، وامتزجت الثقافة العربية بغيرها من الثقافات الاخرى امتزاجا كبيرا، مكن لها فى التوسع والتعمق والابتكار ، ونال الأدب من ذلك حظه الموفور ، فبدأت تآليفه تظهر ، وكانت فى أول أمرها مقتصرة على رسائل صغيرة تدور حول أمور خاصة ، ويبدو ذلك واضحا فى كتابى ابن المقفع : الادب الصغير والادب الكبير ، وغيرهما ، وفى كتابى : معانى الشعر ، والأصمعيات للأصمعى ، وفى كتاب نقائض جرير والفرزدق ، لأبى عبيدة معمر بن المثنى ، وفى كتاب الامثال لأبى عبيد القاسم بن سلام ، وفى كتاب المفضليات للمفضل الضبى، وفى غير ذلك من الكتب التى ظهرت فى خلال هذا العصر •

ولكن هذه الرسائل الصغيرة لم تلبث أن تطورت فيما بعد ، الى كتب شاملة جامعة مستقلة ، تحتوى على أبواب مختلفة وفصول متعددة ، ولكنها فى الغالب كانت تمزج بين ألوان مختلفة من الثقافة ، من نحو ولغة ونقد وتاريخ وما الى ذلك •

ولقد كان أول ظهور هذا النوع من الكتب على يد الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ الذى ألف كتابه : البيان والتبيين • يجمع فيه بين فنون مختلفة من القول نظمه ونثره • ويضم أخبارا متعددة فى طبقات الناس فى الجاهلية والاسلام • من خلفاء وأمراء وعامة

ومن صلاح وزهاد وزنادقة وملحدين ، ويجمع بين دفتيه النوادر المضحكة والمواعظ المبكية ٠

واقتفى أثره في هذا اللون من التأليف « المبرد » فى كتابه «الكامل» الذى يعده ابن خلدون أحد أعمدة البيان والادب ، ولقد رأى بعض النقاد أن كتاب الكامل صورة من كتاب الجاحظ من حيث أن كلا منهما حوى كثيرا من المسائل دون تبويب وتنظيم، مع اختلاف يظهر فى غزارة علم « الجاحظ » وتعويله على العقل واعتماده على قلمه وأنشائه في كثير من أبواب الكتاب ، وفى اعتداد المبرد برواياته وكثرتها وغلبة النحو عليه ٠

وعلى هدى هذين الكتابين : «البيان والتبيين ، والكامل» سار المؤلفون فى فن الادب بعد ذلك ٠ مع شيء من التطوير والتنظيم ٠

ولم يلبث التأليف فى هذا الفن أن دق وعمق ، واتجه اتجاهات جديدة عنى فيها بالابحاث البلاغية والنقدية والمقارنة بين الادباء والشعراء ٠ على نحو ما ظهر للآمدى فى كتابه الموازنة بين أبى تمام والبحترى ، وما ظهر للجرجانى فى كتابه المعروف بالوساطة بين المتنبى وخصومه ، وما ظهر للثعالبى فى كتابه « يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر » هذا عدا ما ظهر فى العصور المتأخرة من وضع أسس للنقد والبلاغة ٠ ومن تأليف كتب التراجم المختلفة وغير ذلك من أبحاث الادب واتجاهاته ٠ وكان ذلك فى العصور التى تلت عصر المبرد الذى نترجم له ٠

نشأة علم النحو وتطوره

عاش العرب فى شبه الجزيرة التى شاء الله أن تكون وطنا لهم ، وتسمى باسمهم ، وقنعوا بالحياة فيها على شظفها . ولم يكن منهم من يتجاوز حدودها الى الأمم المحيطة بهم الا قلة قليلة تعمل فى التجارة ، ولم يكن يفد اليهم من أهل هذه الأمم الا دون هذا القليل . لهذا ظلت اللغة العربية ، على اختلاف لهجاتها ، طوال العصر الجاهلى مبرأة من اللحن ، بعيدة عن الخطأ .

وقبيل البعثة المحمدية ظهرت نهضة ويقظة كثر معها الرحيل الى خارج شبه الجزيرة والقدوم اليها . ثم بعث الرسول صلى الله عليه وسلم الى الناس كافة بشيرا ونذيرا ، وتجاوزت دعوته أطراف شبه الجزيرة فوصلت الى الفرس والروم ومصر والحبشة وغيرها . ومن هنا زاد اتصال العرب بغيرهم من الأعاجم ، ويعنى بهم غير الناطقين بالعربية . ثم كانت الغزوات التى بلغت ذروتها فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه حيث فتح الله للعرب فارس ومصر وأطراف بلاد الروم . وفى ظل الاسلام بدأ الامتزاج بين العرب والعجم ، وكان لذلك أثره العظيم فى الحضارة والثقافة . كان يسمع بعضهم من بعض ، ويتفاهمون فى كل ما يتصل بأمور دينهم

ودنياهم ، وكانت لغة التفاهم والتخاطب بينهم هى العربية التى بدأ الأعاجم يتخذونها لغة لهم لأنها لغة القرآن كتاب الدين الذى آمنوا به ٠

من هنا بدأ اللحن لأن الأعجمى حديث العهد باللغة العربية ، والعربى مترفق به ٠ والأعجمى يخطىء أو يلحن ، والعربى يقبل منه ، بل ربما يجاريه اجتذابا لوده ، أو تأليفا لقلبه ، وتثبيتا لرابطته به ، على نحو ما كنا نفعل فى عصرنا مع البدال الرومى فنلوى ألسنتنا ونقول له : (واحد رطل ــ اثنين رطل) ٠

من هنا نشأ اللحن ، وأخذ يشيع حتى سمع من يلحن فى القرآن ، ومن يلحن فى الأذان ، ومن يلحن فى رواية الشعر أو الأمثال ، فكان ذلك مما روع الغيورين على قرآنهم ، وعلى لغتهم ، ففكروا فى وضع ضوابط تصون اللسان ، وتحمى اللغة من الانحراف ٠

زعم الامام اللغوى أحمد بن فارس أن النحو قديم فى العرب، وأنه كان قبل الاسلام بكثير ، ولكن أبلته الأيام ثم جدده الاسلام على يد أبى الأسود الدؤلى ، الا أنه لم يقم أى دليل مادى أو منطقى يؤيد هذا الرأى ، وانما انعقد الاجماع على أن نشأته اسلامية بحتة ٠

وقد قيل ان قواعد الشعر كانت معروفة قبل الاسلام ٠ قال الصاحبى : « ٠٠ وأما العروض فمن الدليل على أنه كان متعارفا معلوما اتفاق أهل العلم على أن المشركين لما سمعوا القرآن قال بعضهم انه شعر فقال الوليد بن المغيرة منكرا عليهم : لقد عرضت ما يقرؤه محمد على اقراء (قوافى) الشعر هزجه ورجزه وكذا وكذا فلم أره يشبه شيئا من ذلك ثم قال الصاحبى : (أفيقول الوليد هذا وهو لا يعرف بحور الشعر ؟) ٠

والذين يقولون بقدم هذه العلوم أفراد لم يؤيدهم اجماع ، وانما الاجماع منعقد على ان واضع النحو هو أبو الأسود الدؤلى باشارة من الامام على .

روى عن أبى الأسود الدولى أنه قال :

« دخلت على أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام فوجدت فى يده رقعة . فقلت : ما هذه يا أمير المؤمنين ؟ فقال : انى تأملت كلام العرب فوجدته قد فسد بمخالطة هذه الحمراء (يعنى الأعاجم) فأردت أن أصنع شيئا يرجعون اليه ، ويعتمدون عليه . ثم ألقى الى الرقعة وفيها مكتوب : الكلام كله اسم وفعل وحرف . فالاسم ما أنبأ عن المسمى ، والفعل ما أنبىء به ، والحرف ما أفاد معنى . ثم قال لى : انح هـــذا النحو ، وأضف اليه ما وقع اليك . واعلم يا أبا الأسود ان الأسماء ثلاثة : ظاهر ، ومضمر ، واسم لا ظاهر ولا مضمر ، وأراد بذلك الاسم المبهم » .

قال أبو الأسود : ثم وضعت بابى العطف والنعت ، ثم بابى التعجب والاستفهام الى أن وصلت الى باب ان وأخواتها ما خلا لكن . فلما عرضتها على على عليه السلام أمرنى بضم لكن اليها . وكنت كلما وضعت بابا من أبواب النحو عرضته عليه الى أن حصلت ما فيه الكفاية فقال لى : ما أحسن هذا النحو .

وهناك من ينسبون وضع علم النحو الى الفاروق عمر بن الخطاب على نحو ما صرح به العقاد فى عبقرية عمر حيث قال : « فبعد جمع القرآن لا نعرف عملا يقترن به ويلازمه ويعد من أسس الدولة العربية كالعمل على تصحيح اللغـــة وحفظها من الخلط والفســـاد ، وكلاهما لا يفطن اليه الا من طبع على سليقة التأسيس وأخذ بها من أصولها، وكلاهما فطن اليه هذا المؤسس الكبير على أهون ما يكون من البساطة والسهولة ــ فأشار بوضع علم النحو كما أشار بجمع آى القرآن »

وليس من همنا هنـــا أن نوازن بين من ينســـبون وضعه الى الخليفة عمر كالعقاد أو ينسبونه الى الامام على مثل الأنبارى ، أو ينسبونه الى أبى الأسود الدؤلى مثل ابن اسحاق ، ويحيى بن يعمر ، والنضر ابن شميل ، أو آراء المستشرقين الذين يجحدون كل هذا ويزعمون أن عصر الامام على وأبى الأســـود لا يتفق وهذه الآراء الناضجة ، والاصطلاحات المرتبة التى لا تكون الا ثمرة عقول أنضجها تطـور العلوم وتقدم الثقافة . فالنحو فى رأيهم نشأ فى عصور متأخرة ، يريدون بذلك ن ينسبوه الى الأعاجم المستعربين فى العصر العباسى .

هؤلاء المستشرقون الذين يذهبون هذا المذهب قد تصوروا النحو فى الصـــورة التى بين أيديهم ، ولو ألقوا تعصـبهم وراء ظهورهم لقدروا الوضع الطبيعى لكل شىء ، ولعلموا أن كل شىء يبدأ صغيرا ثم ينمو ، وان النحو على ما وضعه أبو الأســـود انما هو عموميات تناولها من جاءوا بعده بالتفصيل والتنويع والترتيب ، وان ذلك بدأ أول ما بدأ فى مدرسة النحويين فى البصرة ، ومدرسة النحويين فى الكوفة .

النحو بين البصرة والكوفة

عند الحديث عن النحو وتطوره لا تذكر الا البصرة والكوفة دون غيرهما من الأمصار العربية الأخرى . فالحجاز مثلا أغدق الأمويون على أهله من الأموال ما جعلهم ــ كما شاء لهم الأمويون ــ يغرقون فى الترف ، ويسرفون فى التمتع بملذات الحياة ، فكانوا أهل قصف وغناء . وقد قال الأصمعى : أقمت بالمدينة زمانا ما رأيت بها قصيدة واحدة صحيحة ولكنها مصحفة أو موضوعة ، والشام كذلك اذ صارت دمشق مقر الخلافة والملك ، وهم العرب هناك السياسة والجندية دون أى شىء آخر .

أما العراق فقد كان قبل الاسلام موطن العجم ، وبعد الفتح الاسلامى أقبل العرب عليه من كل صوب لما فيه من خصب ونضارة. فاجتمع فيه العرب والعجم ففشا بذلك اللحن فيه أكثر مما فشا فى أى موضع آخر ، فلم يكن عجبا أن يشتد اهتمام العرب فيه بالنحو، وأن تزخر برجاله أكبر مدينتين فيه وقتذاك وهما البصرة والكوفة . ونما النحو أول ما نما فى البصرة وكان من رواد مرحلته الأولى :

١ ـ نصر بن عاصم الليثى المتوفى سنة ٩٥ هـ .

٢ ـ عنبسة الفيل المتوفى فى أخريات المائة الأولى .

٣ ـ عبد الرحمن بن هرمز المتوفى سنة ١١٧ هـ .

٤ ـ يحيى بن يعمر المتوفى سنة ١٢٩ هـ .

وكل واحد من هؤلاء وجد من يعزو اليه وضع النحو ، وقالوا أن أبا الأسود قد أعجم المصحف بالشكل ، ثم جاء نصر بن عاصم ويحيى بن معمر فأعجما المصحف بالنقط تحرزا من وقوع تحريف فيه.

ونشأت بعد هؤلاء طبقة ثانية من طبقات النحويين البصريين أخذوا عن أعلام الطبقة الأولى ، ولكنهم طوروا ما أخذوا . وتتمثل هذه الطبقة فى :

١ ـ ابن أبى اسحاق المتوفى سنة ١١٧ هـ ، وكان أول من علل النحو ، وأخذ بالقياس ولذلك تعقب الفرزدق أكبر شعراء عصره فكان يكثر من سؤاله كلما ضمهما مجلس عن أى بيت فيه ما يخالف القياس فى النحو أو الصرف حتى ضاق به الفرزدق وهجاه فكان من هجائه قوله :

ولو كان عبد الله مولى هجوته
ولكن عبد الله مولى مواليا

فقال ابن اسحاق : حتى فى هذا أخطأ والصواب أن يقول : مولى موال .

٢ ـ عيسى بن عمر الثقفى المتوفى سنة ١٤٩ هـ ـ وله كتابان هما : الجامع ، والاكمال . وقد نوه الخليل بن أحمد بفضله وفضل ابن أبى اسحاق .

٣ ـ أبو عمرو بن العلاء المتوفى سنة ١٤٩ هـ الذى اشتهر بالقراءات وعلم العربية وأيام العرب ، غير أنه لم يترك أثرا مكتوبا .

وقامت بعد هؤلاء طبقة ثالثة خطت بالنحو وعلوم العربية خطوة أوسع ، وعلى رأس هذه الطبقة :

١ ـ الخليل بن أحمد المتوفى سنة ١٧٥ هـ . أخذ عن أبى عمرو بن العلاء ، وعيسى بن عمر ثم طاف فى أنحاء الجزيرة العربية يأخذ عن الأعراب أين وجدوا حتى نبغ فى العربية وامتاز فى تصحيح القياس ، واستخراج مسائل النحو فنهض بالنحو بعد أن وضع أبو الأسود قواعده .

٢ ـ الأخفش الأكبر المتوفى سنة ١٧٧ هـ أخذ عن أبى عمرو بن العلاء ، وأخذ يلقى الأعراب ويأخذ منهم .

٣ ـ يونس بن حبيب المتوفى سنة ١٨٢ هـ كان مرجعا للأدباء والنحويين ، وله مصنفات فى الأدب والنحو .

بعد هؤلاء سارت علوم العربية بعامة ، وعلم النحو بخاصة نحو استكمال مقوماتها ، وظهرت طبقة رابعة أخذت تعمل لتحقيق ذلك ، وتتمثل هذه الطبقة فى :

١ ـ سيبويه ، وهو أبو بشر عمرو بن عثمان من سلالة فارسية وتوفى سنة ١٨٨ هـ ، كان يعنى أولا بعلم الحديث والفقه ، ثم اتجه الى النحو حتى برع فيه وصار اماما للبصريين ، ووضع أول

كتاب منظم فى النحو عرف باسم « الكتاب » وعنى به كبار العلماء فشرحوه ، وعلقوا عليه ، ومنهم من نقده مثل المبرد الذى كان يدرسه وكان يقول لمن يريد أن يقرأه عليه : « هل ركبت البحر ؟ » تعظيما لهذا الكتاب ·

٢ ـ اليزيدى وهو أبو محمد يحيى بن المبارك المتوفى سنة ٢٠٢ هـ عرف بالنحو واللغة والأخبار ، واختص بتأديب أولاد يزيد ابن منصور خال المهدى ولهذا سمى اليزيدى ثم اتصل بالرشيد فوكل اليه أمر تأديب المأمون ، وكان يمدح بشعره علماء النحو من البصريين ، ويهجو الكوفيين ، وكان بينه وبين الكسائى مناظرات ومنافسات ، ولما مات الكسائى لم يقصر فى رثائه ·

بعد هؤلاء ظهرت طبقة خامسة على رأسها :

١ ـ الأخفش الأوسط المتوفى سنة ٢١١ هـ ، وهو الذى يعنى اذا قيل الأخفش فى كتب النحو والأدب ، فاذا عنى غيره من الأخافشة قيل الأخفش الأكبر ، أو الأخفش الأصغر وكان الأخفش الأوسط هو الوحيد الذى يملك نسخة من كتاب سيبويه حتى أغراه بالمال كل من الجرمى والمازنى وقرآ الكتاب عليه · وكان معتدلا فى تعصبه للبصريين على الكوفيين وله مؤلفات كثيرة ·

٢ ـ قطرب المتوفى سنة ٢٠٦ هـ ، وله مؤلفات فى النحو ·

وظهرت بعد هؤلاء طبقة سادسة تتمثل فى :

١ ـ التوزى المتوفى سنة ٢٣٨ هـ وقد اشتهر باللغة والأدب والعلم بالشعر ·

٢ ـ الجرمى (بفتح الجيم) اليمنى الأصل توفى سنة ٢٢٥ هـ وكان أديبا وشاعرا ، وعرف بالورع ، وهو الذى أظهر كتاب سيبويه مع زميله المازنى ، وعنهما تلقى المبرد ·

٣ ــ المازنى المتوفى سنة ٢٤٩ هـ وكان أعلم الناس بالنحو بعد سيبويه ، وعنه أخذ المبرد وكان يقول : من أراد أن يؤلف كتابا بعد سيبويه فى النحو فليستحى ، ومع ذلك ألف كتبا فى النحو وكتابا فى التصريف ·

٤ ــ أبو حاتم السجستانى المتوفى سنة ٢٥٥ هـ وكان من أساتذة المبرد ، وله كتاب فى اعراب القرآن ، وكتاب الادغام ·

بعد هؤلاء ظهرت طبقة سابعة تمثلت فى المبرد الذى ختمت به طبقة النحويين من البصريين ، والذى هو موضوع كتابنا هذا ·

طبقات النحويين من الكوفيين :

ظهر علماء النحو من الكوفيين بعد فترة من ظهور بعض أعلام النحو فى البصرة ، ورأس الطبقة الأولى منهم :

الرؤاسى الذى توفى فى عهد الرشيد ، والذى بدأ به النحو فى الكوفة ، وعنه أخذ علماء الطبقة الثانية وعلى رأسهم : معاذ الهراء المتوفى سنة ١٨٧ هـ وكان له ولع بأبنية الكلمات حتى عده مؤرخو الأدب واضع علم الصرف ·

ثم ظهرت طبقة ثالثة يمثلها الكسائى الفارسى الأصلى المتوفى سنة١٨٩ هـ وعلى يديه قوى مذهب الكوفيين ، وبسببه كثرت الفوارق بين مذهبى الكوفيين والبصريين ·

ثم ظهرت طبقة ثالثة يمثلها خلف الأحمر، والفراء ، واللحيانى ·

ثم ظهرت طبقة رابعة يؤلفها أبو جعفر الضرير ، وابن السكيت، ثم ختمت طبقة النحويين الكوفيين بممثل الطبقة الخامسة أبو العباس أحمد بن يحيى المعروف بثعلب معاصر المبرد ومنافسه ·

أسباب الاختلاف بين البصريين والكوفيين :

لما أشرقت شمس الاسلام على العراق أنشأ المسلمون مدينة البصرة سنة ١٥ هـ ، وبعدها بنحو نصف عام قاموا بانشاء الكوفة، والى كلتا المدينتين توافد المسلمون وزخرتا بالعلماء والقادة وسراة القوم حتى صار يطلق عليهما اسم « العراقيين » ومنذ توجه الامام على الى الكوفة فى أثناء الخلاف بينه وبين معاوية على الخلافة ٠ وتوجهت السيدة عائشة الى البصرة على رأس جيش اشتبك مع جيش على فى المعركة التى عرفت باسم موقعة الجمل ٠٠ منذ ذلك الحين قاع صراع سياسى بين البصرة والكوفة، وكانت الدولة الأموية ضالعة مع البصريين على الكوفيين فكان ذلك من عوامل تعميق الخلاف بينهما ، ووضع هذا الخلاف طابعه على الأدب والنحو ٠ فالخلاف كان فى أصله سياسيا ثم تطور فشمل علوم اللغة والأدب وكان أكثر ظهورا فى النحو ٠

(أ) المذهب البصرى :

قبيلة قيس وقبيلة تميم العريقتان فى اللغة الفصحى كان منهما أكثر من وفدوا على البصرة منذ نشأتها ، وقريبا من البصرة كانت تقوم سوق المربد التى صارت فى الاسلام صورة متطورة من سوق عكاظ فى الجاهلية ٠ وأيضا كانت البصرة فى موقع متاخم للبادية قريب من العرب الخلص الذين لم تفسد لغتهم كما فسدت لغة سكان الأمصار الأخرى ٠

كل هذا أعان علماء البصرة وأدباءها على البحث والتحرى والتحقيق ، ولم يقنعوا بذلك بل أخذوا يطوفون فى أنحاء الجزيرة شرقا وغربا اما للبحث عن شيء غاب عنهم ، واما للتثبت من شيء وقع لهم ٠ وقد سأل الكسائى وهو من علماء الكوفة العالم البصرى سيبويه : من أين أخذت علمك ؟ فقال : من بوادى نجد والحجاز وتهامة ٠

(ب) المذهب الكوفى :

تنبه الكوفيون للنحو وأرادوا مجاراة البصريين فيه فاستمعوا الى الأعراب الذين ضمتهم الكوفة ولكنهم كانوا أقل عددا وفصاحة من الأعراب الذين ضمتهم البصرة ، ثم ان أكثرهم من اليمنيين الذين فسدت لغتهم بمخالطة أهل الحبشة والهند • ولم تكن لعلماء الكوفة رحلات الى قلب الجزيرة كما رحل علماء البصرة • الا أن الشعر راج بينهم وبخاصة بعد ما قيل من أن أوراقا كانت نسخت فيها أشعار العرب بأمر الملك النعمان بن المنذر وكانت مطمورة فى قصره ثم أخرجها المختار بن أبى عبيد الله الثقفى ، واضطلع أهل الكوفة بها فكانوا أعلم بالشعر من البصريين •

وظهر فى الكوفة حماد الراوية وكان عالما بلغات العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء فكان يقول شعرا ينسبه الى الأقدمين لتأييد رأى يذهب اليه الكوفيون • ولما عرف عنه ذلك رفض البصريون كل شاهد من شعر يرويه الكوفيون • ثم ظهر خلف الأحمر وكان مثل حماد الا انه بصرى فكان لا يروى الشعر المنحول فى البصرة بل يرويه فى الكوفة •

ولكل هذه الأسباب لم يتهيأ للكوفة من أسباب التفوق ماتهيأ للبصرة •

وقد ألفت كتب كثيرة تولت سرد أوجه الخلاف بين مذهب البصريين والكوفيين مثل كتاب « الانصاف فى مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين » لكمال الدين الانبارى ، وكتاب « التبيين فى مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين » لأبى البقاء العكبرى ، وكتاب « الأشباه والنظائر » لجلال الدين السيوطى ، ومجمل الخلاف بين المذهبين :

أولا : البصريون يعتمدون على السماع أكثر من اعتمادهم على القياس ، وذلك لسهولة اتصالهم بالعرب الخلص • ولا يعمدون الى القياس الا عند الضرورة ، اما الكوفيون فيعتمدون على القياس أكثر من السماع لبعدهم عن العرب الخلص •

ثانيا : البصريون ـ كما يقول السيوطى ـ أصح قياسا لأنهم لا يقيسون على الشاذ ، والكوفيون لا ضابط لهم فى ذلك ، فالبصريون لا يعمدون الى القياس الا اذا وجدوا شاهدا يعتمدون عليه ، أما الكوفيون فيقيسون وجد الشاهد أم لم يوجد •

وقد أحصى السيوطى فى كتاب الأشباه والنظائر نحو مائة مسألة اختلف فيها البصريون والكوفيون ، منها على سبيل المثال :

١ ـ الاسم مشتق من السمو عند البصريين ، ومن الوسم عند الكوفيين •

٢ ـ الفعل مشتق من المصدر عند البصريين ، والمصدر هو المشتق من الفعل عند الكوفيين •

٣ ـ لا ينوب الظرف أو الجار والمجرور عن الفاعل مع وجود المفعول عند البصريين ، ويجوز ذلك عند الكوفيين •

٤ ـ لا يبنى فعل التعجب من الألوان الا بوساطة أشد وأشدد ونحوهما عند البصريين ، ويجوز بناؤه من البياض والسواد بغير واسطة عند الكوفيين •

٥ ـ يجوز عند البصريين تقديم خبر ليس عليها ، ولا يجوز ذلك عند الكوفيين •

٦ ـ لايقدم الاستثناء على المستثنى منه عند البصريين ، ويجوز ذلك عند الكوفيين •

على أن هذا الخلاف الذى قام واشتد أواره بين البصريين والكوفيين كان من أسباب وصول النحو العربى الى ما وصل اليه من الكمال ، حتى ليصدق أن يقال فيه « اختلافهم رحمة » •

اسمه وكنيته ولقبه

اسمه محمد بن يزيد ، النحوى ، الثمالى . وكنيته أبو العباس . ويقول السيوطى حيث أطلق البصريون أبا العباس فالمراد المبرد ، وحيث أطلقه الكوفيون فالمراد ثعلب . ولقبه المبرد (وسيأتى كلام عنه) .

مولده ووفاته :

روى الأنبارى أن السراج أحد تلاميذ المبرد قال انه ولد سنة عشر ومائتين . أما الصولى فيروى أنه ولد سنة سبع ومائتين . وقال ابن النديم انه توفى وعمره تسع وسبعون سنة . وفى النجوم الزاهرة أنه ولد سنة ست ومائتين أو ست عشرة ومائتين . أما ابن خلكان فيقول ان ولادته كانت سنة عشر ومائتين وقيل سبع ومائتين، وأنه توفى سنة ست وخمسين ومائتين ، وكانت وفاته فى بغداد ، ودفن فى مقابر الكرمة فى دار اشتريت له . وعلى هذا فالمؤرخون له — وهم كثيرون — لم يتفقوا على سنة مولده ، ولا على سنة وفاته ،

ولكن الاجماع يكاد ينعقد على أنه ولد سنة ٢١٠ هـ ، وتوفى سنة ٢٨٥ هـ .

نسبه :

اسمه محمد بن يزيد بن عبد الأكبر . وابن النديم يذكر له ستة آباء ينتهون بثمالة . أما ياقوت فيذكر له اثنى عشر أبا ينتهون بثمالة . وثمالة هو عوف بن أسلم من الأزد (بفتح الهمزة) .

ويروى ابن خلكان أن المبرد فى كتابه « الاشتقاق » علل تسمية عوف بثمالة بقوله : ان قبليته شهدت حربا فنى فيها رجالها ، ولم يبق الا قليل منهم عوف فقيل : ما بقى الا ثمالة ، والثمالة بضم الثاء البقية اليسيرة .

المرحلة الأولى من حياته :

لا نعرف شيئا عن طفولته أو الأيام الأولى من صباه ، ولا عن البيئة التى قضى فيها هذه الطفولة . ولا نعرف متى بدأ يتلقى مبادىء القراءة والكتابة ، ولا أين أو على يد من كان ذلك لأن قدامى المؤرخين له أهملوا هذا الجانب . وانفرد ابن النديم برواية عن أبى عبد الله بن القاسم تقول : كان المبرد ، وفى رواية كان أبو المبرد من السورحيين فى البصرة ممن يكسرون الأرضين ، وكان يقال له حيان السورحى ، وانتمى الى اليمن ولهذا تزوج المبرد ابنة الحفصى أحد أشراف اليمن . وظاهر أن المقصود هو أبو المبرد فقد ثبت أن المبرد ظهر فى حلقات تلقى العلم وهو طرى العود لا يقوى على كسر الأرضين .

ولم يقف الباحثون فى تاريخه على معنى كلمة السورحيين فى أى مصدر ، ونحسب أنهم كانوا من نوع من نسميهم نحن العمال الموسميين أو عمال التراحيل .

وربما تكون هذه اللفظة مصحفة عن كلمة « سرجينيين » نسبة الى « السرجين » وهو القمامة التى تجمع للحمامات ، وقد ورد هذا اللفظ بهذا المعنى فى كتاب الكواكب السائرة ج ٣ وبما يقرب من هذا المعنى فى القاموس ٠

أقوال فى نسبه :

يظهر أن قبيلة ثمالة كانت قد خمل ذكرها ، وحين بدأ صوت المبرد يرتفع قيل فيها :

سألنا عن ثمالة كل حى — فقال القائلون : ومن ثماله ؟
فقلت : محمد بن يزيد منهم — فقالوا : زدتنا بهم جهاله
فقال لى المبرد : خل قومى — فقومى معشر فيهم نذاله

وفى هذه الأبيات تحقير لشأنها وشأن المبرد ٠ وهناك من ينسب هذه الأبيات الى عبد الصمد بن المعذل الشاعر الهجاء ومنهم المبرد نفسه ٠ وهناك من يقول : ان المبرد أنشأها ونسبها الى المعذل وأراد بذلك أن يشهر نفسه ويشهر قبيلته ٠ ولكن على بن حمزة فى كتابه « التنبيهات على أغاليط الرواة » يتهم المبرد بأنه كان متعصبا على قبيلة ثمالة ولذلك قال شعرا فى ذمها ونسبه الى ابن المعذل ٠ ويروى ابن عبد ربه فى « العقد الفريد » أن المبرد قال : لقد هجانى عبد الصمد بن المعذل فأنضج كبدى ، وهذا مما ينفى صحة ما زعمه على بن حمزة ٠

واليك ما رواه ياقوت فى معجم الأدباء ، والأنبارى فى نزهة الألبا ، وبهاء الدين العاملى فى الكشكول :

قال أبو بكر بن السراج : حدثنى المبرد قال : دخلت من البصرة الى بغداد فأجتزت بطرقاتها متفرجا ، وكان فى بعض

البيوت رجل كهل نظيف رآنى فقال : مرحبا بهذا الوجه الغريب · ان شكلك يدل على أنك من البصرة · قلت : نعم · قال : أدرست على نابغهم ؟ قلت : ومن هو ؟ قال : الملقب بالمبرد · قلت رأيته · قال : هو فاضل ، وله شعر منه قوله :

أيهـــا الطـــالب شـــيئا من لذيـــذ الشـــهوات
كل بمـاء المزن تفـــــا ح خـــدود الغانيـــات

ثم قال : وقد ادعى أنه من ثمالة وليس يعزى اليها ، وقد هجا نفسه على لسانه ليصحح نسبه بأبيات منها :

سألنا عن ثمالة كل حى ·· (الأبيات)

ومفهوم هذه القصة أنه يجاهـد فى سـبيل الانتساب الى ثمالة وليس متعصبا ·

وهناك خبر آخر روته المصادر السالف ذكرها :

قال أبو بكر بن الأزهر : حدثنى أبو العباس المبرد قال : قال لى المازنى (وكان أستاذا له) انك تنصرف من عندنا فتصير الى مواضع المجانين والمعالجين (الذين يعالجون من دخل فى عقولهم) فما معنى ذلك ؟ فقلت : أعزك الله تعالى ، ان لهم طرائف من الكلام · قال : أخبرنى بأعجب ما رأيت من المجانين · فقلت : سرت يوما اليهم فمررت على شيخ منهم وهو جالس على حصير قصب ، فجاوزته الى غيره ، فقال : سبحان الله ، أين السلام ؟ من المجنـــون : أنا أو أنت ؟ فاستحييت منه وقلت : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته فقال : لو كنت ابتدأت لأوجبت علينا حسن الرد ، على أننا نصرف سوء أدبك الى أحسن جهاته من العذر ، لأنه كان يقال : ان للقادم على القوم دهشة · اجلس ، أعزك الله تعالى عندنا · وأومأ الى موضع من الحصير فجلست الى ناحية منه أسترعى مخاطبته · فقال لى وقد

رأى معى محبرتى : أرى معك آلة رجلين أرجو ألا تكون أحدهما :
أصحاب الأحاديث الأغثاث أو الأدباء أصحاب النحو والشعر .
قلت : الأدباء . قال : أتعرف أبا عثمان المازنى ؟ قلت : نعم . قال :
أتعرف الذى قال فيه :

وفتى من مازن أستاذ أهل البصرة
أمه معرفة وأبوه نكرة

قلت : لا أعرفه . فقال : أتعرف غلاما له قد نبغ فى هذا العصر ، له ذهن وحفظ ، وقد برز فى النحو يعرف بالمبرد ؟ فقلت : أنا ، والله ، عين الخبير به . قال : فهل أنشدك شيئا من شعره ؟ قلت : لا أحسبه يحسن قول الشعر ، فقال : يا سبحان الله ، أليس هو القائل :

حبذا ماء العناقيد بريق الغانيات
بهما ينبت لحمى ودمى أى نبات
كل بماء المزن تفاح خدود الغانيات

قلت : سمعته ينشد هذا فى مجلس أنس . فقال : يا سبحان الله ، ألا يستحيى أن ينشد مثل هذا حول الكعبة ؟ ثم قال : ألم تسمع ما يقولون فى نسبه ؟ . فقلت : يقولون أنه من الأزد ، أزد شنوءة ، ثم من ثمالة . قالأ تعرف القائل ؟

سألنا عن ثمالة كل حى ... (الأبيات)

فقلت : أعرفه ، هذا عبد الصمد بن المعذل يقولها فيه . فقال : كذب هذا الادعاء وحقيقة الأمر أن هذا كلام رجل لا نسب له يريد أن يثبت له بهذا الشعر نسبا . فقلت له : أنت أعلم . فقال : يا هذا غلبت خفة روحك على قلبى فأخرت ما كان يجب تقديمه . ما الكنية أصلحك الله ؟ فقلت : أبو العباس . قال : فما الاسم ؟ قلت : محمد . قال : فمن الأب ؟ قلت : يزيد . قال :

قبحك الله ، أحوجتنى الى الاعتذار عمـــا قدمت ذكره . ثم وثب وبسط يده فصافحنى فرأيت القيد فى رجـــله فأمنت غائلته . فقال : يا أبا العباس ، صن نفسك من الدخول فى هذه المواضع فليس يتهيأ فى كل وقت أن تصادف مثلى على مثل حالتى . ثم جعل يصفق ويقول : أنت المبرد ، أنت المبرد . وانقلبت عيناه واحمرتا، وتغيرت حاله ، فبادرت مسرعا خوف أن تبدر منه الى بادرة ، وقبلت منه نصحه فأمسكت عن التردد الى هذه المواضع .

وتلك القصة التى رواهـــا عنه عـــديدون ممن أرخوا له ، ونحوها من الروايات الاخرى يستفاد منها :

أولا : أنه بدأ يتلقى العلم صغيرا .

ثانيا : أنه عرف وشاع خبر نبوغه وهو مازال يتلقى العلم . وقد قال أبو بكر الزبيدى : حدثنى سهل بن أبى سهل ، وابراهيم ابن محمد المسمعى قالا : رأينا محمد بن يزيد وهو حدث الســـن متصدرا فى حلقة أبى عثمان المازنى يقرأ عليـــه كتاب سيبويه ، وأبو عثمان فى تلك الحلقة كأحد من فيها .

ثالثا : أن الأبيات التى قيلت فى نسبه اختلف فى نسبتهـــا الى ابن المعذل أو الى المبرد نفسه ، والمبرد خلال حواره مع المجنون نسبها الى عبد الصمد ، فلما قال له المجنون : ان قائلها رجل لا نسب له وهو يريد أن يشهر بها نسبه لم ينف نفيا قاطعا نسبتها اليه ، ولم يثبت أنها لغيره ، بل اكتفى بأن يقول لمحدثه : أنت أعلم ، وتلك عبارة لا تفيد نفيا ولا اثباتا .

لقبـــــه :

المبرد ، بكسر الراء المشددة ، ومنهم من يفتحها .

قال ابن خلكان فى « وفيات الأعيان » :

« اختلف فى سبب تسـميته بالمبرد . فالذى ذكره الحافظ أبو الفرج بن الجوزى فى كتاب الألقاب أن المبرد سئل عن سبب هذا اللقب فقال : كان سبب ذلك أن صاحب الشرطة قد طلبنى للمنادمة والمذاكرة فكرهت الذهاب اليـه ، فدخلت الى أبى حاتم السجستانى وجاء رسول الوالى يطلبنى فقال لى أبو حاتم : أدخل فى هذا ، يعنى غلاف مزملة فارغا (والمزملة اناء لتبريد الماء أشبه بما نسميه الآن الزير) فدخلت فيه ، وغطى أبو حاتم رأسه ، ثم خرج الى الرسول وقال له : هو ليس عندى . فقال : أخبرت أنه دخل اليك . فقال له :أدخل الدار وفتشها ان شئت . فدخل فطاف فى كل موضع فى الدار ولم يفطن لغلاف المزملة . ولما خرج جعل أبو حاتم يصفق وينادى على المزملة : المبرد ، المبرد (بكسر الراء المشددة) وتسامع الناس بذلك فلهجوا به » .

وأيد هذه الرواية أبو الفدا فى كتابه « المختصر فى تاريخ البشر » . وروى ابن خلكان نقلا عن ابن الجوزى أن الذى أطلق عليه هذا اللقب هو أستاذه المازنى ، ولم يذكر كيف لقبه به . الا أن جلال الدين السيوطى فى كتابه « المزهر » علل ذلك فقال :

« قال السيرافى : لما صنف المازنى كتابه « الألف واللام » سأل أبا العباس محمد بن يزيد عن دقيقه وعويصه فأجاب بأحسن جواب ، فقال : قم فأنت المبرد (بكسر الراء المشـددة) أى المثبت للحق ، وغيره الكوفيون ففتحوا الراء » وأيد ياقوت الحموى فى « معجم الأدباء » رواية السيوطى هذه .

وفى « النجوم الزاهرة » أنه سمى المبرد بفتح الراء المشددة لحسن وجهه ، فيقال : رجل مبرد ، ومقسم ، ومحسن اذا كان حسن الوجه . وهكذا قال الوزير الاندلسى محمد بن هشـام المصحفى المتوفى سنة ٤٨١ هـ .

وابن عبد ربه يقول فى العقد الفريد انه بفتح الراء ٠ وقسا فى الحكم عليه فقال : ألا ترى أنه مع علمه باللغة ومعرفته باللسان وضع كتابا أسماه « الروضة » وقصد فيه الى أخبار الشعراء المحدثين فلم يختر لكل شاعر الا أبرد ما وجد له ، وانتهى الى الحسن بن هانىء (أبى نواس) فاختار له من أبرد شعره أبياتا ما سمعناها ، ولا رويناها ، ولا ندرى من أين وقع عليها ٠ وقد اختار لأبى العتاهية أبياتا تقتل من بردها ٠

وكلام ابن عبد ربه هذا جدير بشىء من التأمل ، اذ تشم فيه رائحة الحسد للمبرد على اتساع دائرة محفوظاته ، وروايته شعرا ما سمعه ابن عبد ربه ونحوه ٠ فهل لهذا الحسد أثر فى الحكم العنيف الذى أصدره على كتاب « الروضة » وعلى المبرد ؟ ٠

فى رأينا أن مثل هذا الحكم يجب أن يؤخذ بكثير من التحفظ ٠

وكثيرون يقولون ان الكوفيين هم الذين كانوا يلقبونه بالمبرد (بفتح الراء) من البرود تهكما به ٠ ومن ذلك ما روى من أن عبيد الله بن أحمد بن طاهر حدث أن أباه قال فى المبرد :

ويوم كحر الشوق فى الصدر والحشا
على أنه منه أحر وأوقد
ظللت به عند المبرد ثاويا
فمازلت فى ألفاظه أتبرد

وأحمد بن أبى طاهر كوفى ، ومتعصب للكوفيين على البصريين ٠

ومن ذلك أيضا ما روى فى النجوم الزاهرة ، ومعجم الأدباء ، وتاريخ بغداد مما يدل على ما كان يحمله أحمد بن أبى طاهر المتعصب على البصريين للمبرد رأس البصريين ٠

فقد قال : خرجت من منزل أبى الصقر نصف النهار فى تموز (يوليه) فقلت ليس بقربى منزل أقرب من منزل المبرد اذ كنت لا أقدر أن أصل الى منزلى بباب الشام فجئته فأدخلنى فى حويشة له ، وجاء بمائدة فأكلت معه لونين طيبين ، وسقانى ماء باردا وقال : أحدثك الى أن تنام ، وجعل يحدثنى أحسن حديث فحضرنى لشؤمى وقلة شكرى بيتان فقلت : قد حضرنى بيتان أأنشدهما ؟ فقال : ذاك اليك وهو يظن أنى أمدحه : فأنشدته :

ويوم كحر الشوق فى صدر عاشق ... على أنه منه أحر وأوقد
ظللت به عند المبرد ثاويا ... فمازلت فى ألفاظه أتبرد

هكذا كان يصنع الكوفيون مع البصريين عامة ، ومع رأسهم وزعيمهم المبرد خاصة فالمبرد قد أحسن لقاء ضيفه فى بيته ، وقدم له خير ما عنده ، وأخذ يؤنسه بطيب حديثه واذا هذا الضيف الكوفى لشؤمه وقلة شكره كما وصف هو نفسه يقابل الحسنة بالسيئة . ولهذا لا يعاب على المبرد ما فعله فقد روى هذا الكوفى فى ختام حديثه أن المبرد قال : والله لا جلست عندى بعد هذا ، وأخرجنى فمضيت الى بيتى ، ومرضت من الحر الذى أصابنى .

ومن ذلك أيضا ما حدث به أبو الفضل بن طومار فقال :

كنت عند أبى جعفر محمد بن نصر بن بسام فدخل عليه حاجبه فأعطاه رقعة وثلاثة دفاتر كبارا فقرأ الرقعة فاذا المبرد قد أهدى اليه كتاب « الروضة » ، وكان ابنه على حاضرا فرمى بالجزء الاول اليه ، وقال : أنظر يابنى ، هذه أهداها الينا المبرد . فأخذ ينظر فيه وكان بين يديه دواة وشغل أبو جعفر بحديثنا ، فأخذ على الدواة ووقع على ظهر الجزء شيئا ، وتركه وقام . فلما انصرف قال أبو جعفر : أرونى أى شىء كتب هذا المشئوم ؟ فنظرنا فاذا هو قد كتب :

لو برأ الله المبـــرد من جحيم يتـــوقد
كان فى الروضـــة حقـــا من جميـــع النـــاس أبرد

لقد كان على هذا يتعصب للكوفيين تعصبا ينسى معه كل انصاف ولهذا قال أبوه المحايد المتزن : أرونى ماذا كتب هـــذا المشئوم ؟ وما كان ليصف ابنه هذا الوصف لولا ضيقه بتعصبـــبه الأعمى ، ولكن هكذا كان يهاجم الكوفيـــون المبرد لذلك كانوا لا ينطقون لقبه الا بفتح الراء تهكما به ٠

وقد روى لسليمان بن عبد الله النهروانى المتوفى سنة ٤٩٣ شعر منه الأبيات التالية :

تقـــول بنيتى أبتى تقنـــــع ولا تطمح الى الأطماع تهتـــــد
ورض باليأس نفسك فهو أحرى وأزين فى الورى وعليك أعـــود
فلو كنت الخليــــل وســـيبويه أو الفـــــراء أو كنت المبـــرد
لما ســـاويت فى حى رغيفـــا ولا تبتـــاع بالمـــاء المبـــرد

ولا ندرى أكان هذا الشاعر المتأخـــر عن عصر المبرد متأثرا بمتبعى مذهب الكوفيين أم أنه عمـــــد الى فتح راء المبرد لضرورة الشعر كى يتخلص من عيب السناد (١) ٠

وعرف عن المبرد أنه كان كثيرا ما ينشد قوله :

لا تـــكرهن لقبـــا شـــهرت به فلرب محظـــــوظ من اللقب
قد كان لقب مرة رجـــــل بالوائلى فعـــد فى العـــرب

واستنبط بعض المحققين لحياته من هذا أنه كان أحيانا يضيق

---

(١) السناد اختلاف مايراعى قبل حرف الروى من الحروف والحركات .

صدره بفتح راء هذا اللقب الذى يلح عليه الكوفيـــون فيهون على نفسه بهذا الشعر ونحوه ٠

وقد حقق العلامة الشنقيطى هــذا اللقب واقتنع أنه بكسر الراء ، وكان يتبرم بمن يفتحونها ويقول :

والكسر فى راء المبـــرد واجب وبغير هذا ينطق الجهـــلاء

متى بدأ يتلقى العلم :

لا نعرف شيئا من مرحلة طفولته ، لأن الذين أرخوا له أهملوا هذا الجزء من حياته اهمالا مطلقا ، ولا نحسب الا أنه كان كغيره من أبناء عصره يسلمهم ذووهم الى من يعلمهـــــم القراءة والكتابة ، ثم يتولى تحفيظهم كتاب الله ٠

ويلوح أنه أتم ذلك صغيرا ، وبدا فيه ميل الى العلم فأخذ يرتاد حلقات العلماء التى كانت تعقد فى البصرة وهو مايزال صبيا لين العود ٠ حدث عن نفسه حديثا سجله الأنبـــارى فى كتاب « نزهة الألبا » وخلاصة حديثه أنه قال :

حضرت مجلس السجستانى وأنا حدث فرأيت فى حلقته بعض ما ينبغى أن تهجر حلقته بسببه (١) فتركته مدة ثم صرت اليه ،وعميت عليه بيتا لهرون الرشيد ، وكان يجيد استخراج المعمى فقال :

أيا حسن الوجـه قد جئتنـــا بداهيــــــة عجب فى رجب
فعميت بيتـــا وأخفيتـــه فلم يخف بل لاح مثل الشهب
فأظهر مكنونه الطيطوى (٢) وهتك عنه الحمـــام الحجب

---

(٢) قيل ان هذا الذى ترك الحلقة بسببه هو اتجار السجستانى فى كتب لايستريح اليها المبرد ٠

(٢) طاط الفحل يطيط طيوطا أى هاج وهدر فى الابل فاذا سمعت صوته الناقة ضبعت وهو عند أرباب الابل غير محمود لانه يتظاهر بالرغبة فى التلقيح وهو لايريده .١٠

فذلك ما كان مستعصيا لنا فتناولته عن كثب
أيا من اذا ما دنونا له نأى ، واذا ما نأينا اقترب
عذرناك اذ كنت مستحسنا وبيتك ذو الطرتين عجب
سلام على النازح المغترب تحية حب به مكتئب

واذا كان هذا يدل على أن المبرد بدأ يتلقى العلم على كبار العلماء حدثا فان الشريشى فى « شرح مقامات الحريرى » يؤكد ذلك فيقول :

يحكى أن سيبويه كان يقرأ على الخليل بن أحمد متنقبا لئلا يشغله بحسنه عن تعليمه . ومع تحفظ الخليل وورعه كان اذا استأذن عليه سيبويه يقول : مرحبا بزائر لا يمل . وكذلك كان أبو حاتم السجستانى رجلا ورعا يختم القرآن فى كل أسبوع ، ويتصدق كل يوم بدينار ومع هذا الفضل كان يميل بحبه الى أبى العباس المبرد ، وكان أبو العباس يلزم حلقته وهو غلام وسيم فقال فيه :

ماذا لقيت اليوم من متمجن خنث الكلام
وقف الجمال بوجهه فسمت له حدق الأنام
حركاته وسكونه يجنى بها ثمر الأنام
فاذا خلوت بمثله وعزمت فيه على اعتزام
لم أعد أفعال العفا ف ، وذاك آكد للغرام
نفسى فداؤك يا أبا العبا س يا جل اعتصامى
فارحم أخاك فانه نزر الكرى ، بادى السقام
وانله ما دون الحرا م فليس يرغب فى الحرام

وقد وردت هذه الأبيات أيضا فى « نزهة الألباء » دون تعيين من قيلت فيه ، وروى البيت السادس على الوجه الآتى :

نفسي فداؤك يا عبيد الله جل بك اعتصامي

ويستدل من هذا كله على أن المبرد أخذ يرتاد حلقات كبار علماء عصره وهو ، على حد قول الشريشي ، غلام وسيم . وظهر نبوغه منذ حداثته . وقد روى الزبيدي والقفطي أن اليوسفي الكاتب قال :

« كنت يوما عند أبي حاتم السجستاني اذ أتاه شاب من أهل نيسابور فقال له : يا أبا حاتم اني قدمت بلدكم وهو بلد العلم والعلماء ، وأنت شيخ هذه المدينة وقد أحببت أن أقرأ عليك كتاب سيبويه . فقال له : الدين النصيحة ، ان أردت أن تنتفع بما تقرأ فاقرأ على هذا الغلام محمد بن يزيد . فتعجبت من ذلك » .

وفي هذا الخبر ما يؤيد أنه بدأ يتلقى العلم حدثا ونبغ صغيرا، وحاز ثقة أساتذته وهو ما زال طالبا للعلم .

شيوخه :

نشأ المبرد في البصرة ، وتلقى العلم فيها على أكبر علماء عصره. أخذ عن الجرمي (بفتح الجيم وسكون الراء) وهو أبو عمر صالح بن اسحق ، وكان فقيها عالما بالنحو واللغة وناظر الفراء ببغداد ويقول المبرد انه كان اثبت القوم في كتاب سيبويه ويقول المبرد أيضا : قد قرأت عليه الجماعة وانه كان عالما باللغة حافظا لها ، وله كتب انفرد بها . وروى عنه المبرد أنه كان يقول في قوله تعالى : « ولا تقف ما ليس لك به علم » أي لا تقل سمعت ولم تسمع ، ولا رأيت ولم تر ، ولا علمت ولم تعلم « ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » .

وأخذ عن أبي عثمان المازني الذي يقول عنه المبرد انه لم يكن بعد سيبويه أعلم منه بالنحو ، وانه ناظر الأخفش الأكبر في أشياء كثيرة فانتصر عليه .

والمازنى هو أبو عثمان بكر بن محمد بن عثمان المازنى البصرى النحوى الذى خلف مؤلفات عديدة ٠ وكان غاية فى الورع ، وقد روى عنه المبرد ان بعض أهل الذمة قصده ليقرأ عليه كتاب سيبويه، وبذل له مائة دينار فى تدريسه اياه ، فامتنع أبو عثمان من ذلك ٠ قال المبرد : فقلت له : جعلت فداك أترد هذه المنفعة مع فاقتك ، وشدة ضائقتك ؟ فقال : ان هذا الكتاب يشتمل على ثلثمائة وكذا وكذا آية من كتاب الله عز وجل ، ولست أرى ان امكن منها ذميا غيرة على كتاب الله وحمية له ٠ ثم قال المبرد : واتفق ان غنت جارية بحضرة الخليفة الواثق بقول الشاعر العربى :

أظلوم أن مصابكم رجلا أهدى السلام تحية ظلم

فاختلف من كان بالحضرة فى اعراب رجلا فمنهم من نصبه وجعله اسم ان ، ومنهم من رفعه على أنه خبرها ، والجارية مصرة على أن شيخها أبا عثمان المازنى لقنها اياه بالنصب فأمر الواثق باشخاصه ٠ قال أبو عثمان : فلما مثلت بين يديه قال ممن الرجل ؟ قلت : من بنى مازن ، قال : أى الموازن ؟ أمازن تميم ، أم مازن قيس ، أم مازن ربيعة ؟ قلت من مازن ربيعة ، فكلمنى بكلام قومى وقال : باسمك ؟ لأنهم يقلبون الميم باء ، والباء ميما ٠ قال : فكرهت أن أجيبه على لغة قومى كيلا أواجهه بالمكر ، فقلت : بكر يا أمير المؤمنين ، ففطن لما قصدته ، واعجب به ٠ ثم قال : ما تقول فى قول الشاعر : « أظلوم ان مصابكم رجلا » أترفع رجلا أم تنصبه ؟ فقلت: بل الوجه النصب يا أمير المؤمنين فقال : ولم ذلك ؟ فقلت : ان مصابكم مصدر بمعنى اصابتكم ٠ قال المازنى : فأخذ اليزيدى فى معارضتى ، فقلت : هو بمنزلة قولك ان ضربك زيدا ظلم ، فالرجل مفعول مصابكم وهو منصوب ، والدليل عليه أن الكلام معلق الى أن تقول ظلم فيتم ٠ فاستحسنه الواثق وقال : هل لك من ولد ؟ قلت:

نعم بنية يا أمير المؤمنين قال : ما قالت لك عند مسيرك الينا ؟ فقلت : أنشدت قول الأعشى :

أيا أبتـــا لا ترم عنـــدنا فانا بخـــير اذا لم ترم
أرانا اذا أضمرتك البـــلا د نجفى ، وتقطع منـــا الرحم

قال : فما قلت لها ؟ قال : قلت قول جرير :

ثقى بالله ليس له شريك ومن عند الخليفة بالنجاح

قال الخليفة : على النجاح ان شاء الله تعالى ، ثم أمر لى بألف دينار ، وردنى مكرما ·

قال المبرد : فلما عاد الى البصرة قال لى : كيف رأيت يا أبا العباس ؟ رددنا مائة فعوضنا الله ألفا · وكان المبرد يعول فى النحو على المازنى ، ويقول انه بدأ بقراءة كتاب سيبويه على الجرمى ، وختمه على المازنى · وتوفى المازنى سنة تسع وأربعين ومائتين ·

وأخذ عن أبى اسحاق الزيادى ، وهو أبو اسحاق ابراهيم بن سفيان الزيادى ، وقيل له الزيادى لأنه من أولاد زياد بن سمية المشهور باسم زياد بن أبيه ، وكان عالما بالنحو ، قرأ كتاب سيبويه، وله فيه نكت وخلاف فى بعض المواضع ·

وأخذ عن الرياشى ، وهو أبو الفضل عباس بن الفرج ، وكان من كبار أهل اللغة ، كثير الرواية للشعر ، وقرأ كتاب سيبويه على المازنى ، وكان المازنى يقول : قرأ على الرياشى الكتاب وهو أعلم به منى · وتوفى الرياشى سنة سـبع وخمسين ومائتين فى خلافة المعتمد · وكان المبرد يعجب بشعر الرياشى ، ويستشهد به · وكان الرياشى يعرف للمبرد قدره فلما انتقل المبرد الى بغداد كان الرياشى يزوره كلما قدم من البصرة ·

وكان المبرد يتردد على الجاحظ ويسمع منه ويروى عنه حتى عد من شيوخه . والجاحظ هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب كان عالما بالأدب فصيحا بليغا مصنفا فى فنون العلوم ، وتوفى سنة خمس وخمسين ومائتين .

وتحدث المبرد عنه قال : سمعت الجاحظ يقول لرجل آذاه : أنت والله أحوج الى هوان من كريم الى اكرام ، ومن علم الى عمل ، ومن قدرة الى عفو ، ومن نعمة الى شكر .

وتحدث عنه أيضا وهو يشير الى ما كانت عليه قصور الخلفاء والأمراء والوزراء من العناية بالعلم والأدب فقال :

حدثنى الجاحظ عن ابراهيم السندى قال : كانت تصير الى « هاشمية » جارية « حمدونة » فى حاجات صاحبتها فأجمع نفسى لها ، وأطرد الخواطر من فكرى ، وأحضر ذهنى جهدى خوفا من أن تورد على ما لا أفهمه لبعد غورها ، واقتـــدارها على أن تجرى على لسانها ما فى قلبها .

وقال المبرد أيضا : دخلت على الجاحظ فى آخر أيامه وهـــو عليل فقلت له : كيف أنت ؟ فقال : كيف يكون من نصفه مفلوج لو نشر بالمناشير ما أحس بها ، ونصفه الآخر منقرس لو طار الذباب بقربه لآلمه . والأمر فى جميع ذلك أننى جزت التسعين . وأنشد :

أترجو أن تكون وأنت شـــيخ ... كما قد كنت أيام الشـــباب
لقد كذبتك نفســك ليس ثوب ... دريس كالجديد من الثيــاب

وأخذ أول ما أخذ عن أبى حاتم السجستانى ، وهو أبو حـاتم سهل بن محمد السجستانى كان عالما ثقة فى اللغة والشعر ، ولم يكن ــ كما قال المبرد ــ حاذقا فى النحو . وكان كثير التصانيف فى اللغة ، وصنف فى النحو والقراءة ، وتوفى سنة خمس وخمسين

ومائتين • ويقول المبرد انه كان اذا التقى هو والمازنى تشاغل ، أو بادر بالانصراف تحرزا من أن يسأله المازنى فى النحو • قال المبرد: وكان السجستانى جماعا للكتب، يتجر فيها •

وأخذ عن التوزى ، وهو أبو محمد عبد الله بن محمد التوزى كان من أكابر علماء اللغة وتوفى سنة ثمان وثلاثين ومائتين • ويقول عنه المبرد : ما رأيت أحدا أعلم بالشعر من أبى محمد التوزى كان أعلم من الرياشى والمازنى •

وقال المبرد أيضا : سأل التوزى عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير عن قول الفرزدق :

ومنا غداة الروع فتيان غارة اذا متعت بعد الأكف الأشاجع

فلم يجب • ومعنى متعت احمرت من الدم ، ومنه قولهم نبيذ ماتع أى شديد الحمرة • وقد أكثر المبرد من ذكر التوزى فى كتبه ورواياته •

الا أن ثقافة المبرد لم تكن مقصورة على ما يتلقاه من شيوخه بل كان يقرأ كل ما يمكن أن يصل اليه من كتب السابقين ، وكان شديد الحرص على كل كتاب أو أوراق تصل اليه ، كما كان شديد الحرص على كتاب سيبويه ويروى « معجم الأدباء » أن أبا الحسين محمد بن ولاد قدم الى العراق وفيها أهله لأخذ كتاب سيبويه عن أبى العباس المبرد ، وكان المبرد لا يمكن أحدا من نسخته ، اذ كان شديد الضن بها • فعمد ابن ولاد الى ابن المبرد وكلمه على أن يجعل له فى كل كتاب منه جعلا سماه له ، فأجابه ابن المبرد الى ذلك فأكمل نسخه • ولما علم المبرد بذلك فيما بعد سعى بابن ولاد الى بعض خدمة السلطان ليحبسه له عقابا على فعلته ، لكن أبا الحسين احتمى بصاحب خراج بغداد ، وكان أبو الحسين يؤدب ولده ، فأجاره منه •

من أخذوا عن المبرد وتتلمذوا له :

بعد موت المازنى صار المبرد امام النحويين البصريين ، وعليه تلقى النحو والأدب طائفة كبيرة ممن صاروا فى مستقبل أيامهم أعلاما ، ومؤلفين ، وذوى آثار قيمة فى العلم والأدب · نذكر منهم الزجاج ، وسنتحدث عنه بعد بشىء من التفصيل ، ونذكر منهم الصولى ، ونفطويه النحوى ، وأبا على الطومارى ، وابن السراج ، والأخفش الأصغر ، وأبا على اسماعيل الصفار ، وأبا جعفر أحمد بن محمد الصفار ، وأبا الطيب الوشاء ، وابن المعتز ، وأبا الحسين ابن الجزار النحوى ، وابن درستويه ، وأبا جعفر النحاس ·

وهؤلاء جميعا قد نبغوا وصاروا أعلاما ، وتركوا فى العلم والأدب ذخائر من قيم المؤلفات ·

مكانة المبرد :

انتهت اليه زعامة النحويين بعد المازنى بغير منازع ، وأجمع معاصروه ، وكل من جاءوا بعده ، ومن أرخوا له على أنه العالم الكامل، والمعلم البارع والأديب الذى لا يبارى · وضاقت حلقة دروسه بالراغبين فى الأخذ عنه ، وان كان لا يعلم الا بأجر ، ولا يأخذ الأجر الا على قدره ، فكان يأخذ من تلميذه وصفيه الزجاج ، وروى « معجم الأدباء » أن المنذرى قال : اختلفت الى أبى العباس المبرد وانتخبت أجزاء من كتابيه المعروفين بالروضة والكامل أقرؤهما عليه ، وقاطعته نظير ذلك على شىء مسمى · ولم يأذن لى فى قراءة حكاية واحدة لم يكن وقع الشرط عليها ·

ومع ذلك كان الاقبال على التلقى منه شديدا ، وكان كبار القوم يستنصحونه اذا أرادوا مؤدبا لأبنائهم ، وما ذلك الا لعلمه وفضله ·

قال القفطى فى كتاب « انباه الرواة على أنباه النحاة » :

« كان أبو العباس محمد بن يزيد من العلم ، وغزارة الأدب ، وكثرة الحفظ ، وحسن الاشارة ، وفصاحة اللسان ، وبراعة البيان، وملوكية المجالسة ، وكرم العشرة ، وبلاغة المكاتبة ، وحلاوة المخاطبة ، وجودة الخط ، وصحة القريحة ، وقرب الافهام ، ووضوح الشرح وعذوبة المنطق على ما ليس عليه أحد ممن تقدمه أو تأخر عنه » .

واتفق ياقوت فى « معجم الأدباء » والأنبارى فى « نزهة الألبا » على وصفه بأنه : « كان امام العربية ، وشيخ أهل النحو ببغداد ، واليه انتهى علمها بعد الجرمى والمازنى » وأنه كذلك « كان حسن المحاضرة فصيحا ، بليغا ، مليح الأخبار ، ثقة فيما يرويه ، كثير النوادر فيه ظرافة ولباقة »

وكان اسماعيل القاضى المعاصر له يقول : « ما رأى محمد بن يزيد مثل نفسه ممن كان قرينه ، ولا يرى بعده مثله » .

وقال العلامة ابن شهبة الأسدى فى كتابه « طبقات النحاة واللغويين » :

« كان فصيحا ، بليغا ، مقدما ، ثقة ، اخباريا ، علامة ، صاحب نوادر وظرافة ، جميلا ، وسيما لا سيما فى صباه .. وكان حسن النوادر ، كثير الأمالى » .

وقال الزبيدى :

« كان بارعا فى الأدب وكثرة الحفظ والفصاحة وجودة الخط » .

وفى « نزهة الألبا » و « معجم الأدباء » و « أخبار البصريين » أن السيرافى قال : « ما رأيت أحسن جوابا من المبرد فى معانى

القرآن فيما ليس فيه قول لمتقدم ، ولقد فاتنى منه علم كثير لقضاء ذمام ثعلب » وأن نفطويه قال : « ما رأيت أحفظ للأخبار بغير أسانيد منه »

وفى كتاب « سر الصناعة » أن ابن جنى قال : « يعد المبرد جيلا فى العلم ، واليه أفضت مقالات أصحابنا ، وهو الذى نقلها وقررها ، وأجرى الفروع والعلل والمقاييس عليها » .

وقد وصفه البحترى بأنه كوكب سعد ، ودعا طالبى العلم الى الأخذ منه فى مدحة له يقول فيها :

ما نال ما نال الأمير محمد الا بيمن محمد بن يزيد
وبنو ثمالة أنجم مسعودة فعليك ضوء الكوكب المسعود

وجاء فى كتاب « تاريخ بغداد »

حدثنا أبو يعلى قال : قال لى أبو العباس المبرد : كنت أناظر بين يدى جعفر بن القاسم فكان يقول : أراك اليوم عالما ، أراك اليوم عالما . فكان هذا يحفظنى ، فلما رأى ذلك منى قال : ان قولى لك أراك اليوم عالما لا يعنى عندى أنك قبل اليوم لم تكن على غير هذه الحال ثم انتقلت اليها ولكن على حد قول الله تعالى « والأمر يومئذ لله » وان الأمر اليوم ويومئذ لله .

وفى « تاريخ بغداد » و « معجم الأدباء » أن ابا عبد الله المفجع قال : كان المبرد لعظم حفظه اللغة واتساعه فيها يتهم بالكذب .

وقال الزبيدى :

« لم يكن أبو العباس محمد بن يزيد على رياسته وتفرده بمذهب أصحابه (يعنى البصريين) وأربائه عليهم بفطنته ، وصحة قريحته متخلفا فى قول الشعر ، وكان لا ينتحل ذلك ، ولا يعتزى اليه ، ولا يرسم نفسه به . وله أشعار كثيرة » .

ولما عرف من فضله وعلمه وظرفه وحسن محاضرته كان سادة القوم وفضلاؤهم يرغبون أشد الرغبة فى منادمته ومسامرته ، وها هو ذا البحترى الشاعر العربى الكبير يحرص على الائتناس به فى مجلس أنس فيكتب اليه :

اليوم سبت وعندنا ما كفى — الحر طعام والورد منا قريب
ولنا مجلس على النهر فيا — ح فسيح ترتاح فيه القلوب
ودوام المدام يدنيك ممن — كنت تهوى وان جفاك الحبيب
فأتنا يا محمد بن يزيد — فى استتار كى لا يراك الرقيب
نطرد الهم باصطباح ثلاث — مترعات تنفى بهن الكروب
ان فى الراح راحة من جوى الحـ — ـب ، وقلبى الى الأديب طروب

ولابن الرومى قصيدة طويلة فى مدح المبرد ، وليست منشورة فى الديوان المطبوع المتداول ولكنها فى مخطوطة بدار الكتب ، وقد أورد البارودى فى مختاراته شطرا منها جاء فيه :

يا أبا العباس انى رجل — فى عمن عاند الحق عنود
ويمينا انك المرء الذى — حبه عندى سواء والسجود
لم أزل قدما وقلبى ويدى — ولسانى لك مذ كنت جنود
شاهد أنك بحر زاخر — لك من نفسك مد بل مدود
يجتنى درك رطبا ناعما — فلنا منه شنوف وعقود
غير أن البحر ملح آسن — ولأنت المشرب العذب البرود

وجاء فى « معجم الأدباء » أن شاعرا (لم يسمه) مدح المبرد بقوله :

واذا يقال من الفتى كل الفتى — والشيخ والكهل الكريم العنصر
والمستضاء بعلمه وبرأيه — وبعقله قلت : ابن عبد الأكبر

وفى « معجم الأدباء » و « أخبار البصريين » و « نزهة الألبا » قول شاعر آخر يمدحه ولكن كتاب « تاريخ بغداد » أورد الأبيات

كاملة منسوبة الى قائلها وهو الشاعر أحمد بن عبد السلام • قال: حدث أبو بكر بن ابى الأزهر أن المبرد كان ينسب الى الأزد فقال فيه احمد بن عبد السلام :

أيا بن سراة الأزد أزد شنوءة — وأزد العتيك الصدر رهط المهلب
أولئك أبناء المنايا اذا عدوا — الى الحرب عدوا واحدا الف مقنب
همو حرم الاسلام بالبيض والقنا — وهم ضربوا نار الوغى بالتلهب
وهم سبط أنصار النبى محمد — على أعجمى الخلق والمتعرب
وأنت الذى لايبلغ الناس وصفه — وان أطنب المداح مع كل مطنب
رأيتك والفتح بن خاقان راكبا — وأنت عديل الفتح فى كل موكب
وكان أمير المؤمنين اذا دنا — اليك يطيل الفكر بعد التعجب
وأوتيت علما لا يحيط بكتبه — علوم بنى الدنيا ولا علم ثعلب
يؤوب اليك الناس حتى كأنهم — ببابك فى أعلى منى والمحصب

صلاته بعظماء عصره :

منذ جلس المبرد فى حلقات الدروس يتلقى العلم ظهر نبوغه وجده ، وخفة روحه ، وحضور بديهته ، وكان يتمتع بحافظة واعية، وذاكرة قوية ، وأقبل بعد تلقى الدروس من شيوخه يقرأ كل ما يصل الى يده من كتب وأوراق ، ويلتقط كل ما يسمع من نادرة أو فكاهة أو رواية أو خبر ، وبذلك شاع ذكره ، وعرف خبره كبار العلماء ، وطلاب العلم ، ووجهاء القوم وسادتهم وشرفاؤهم ، فأقبلوا عليه ينشدون الاستماع الى عذب حديثه ، وجميل روايته وحسن فكاهته • وما عرف عنه من الظرف والتزام أدب المجالس جعلهم يدعونه لحضور مجالس سمرهم ، بل ويلحون فى الدعوة الى حد الالزام • هذا الى جانب ما منحه الله من جمال ووسامة وقسامة جعلت من لقبوه بالمبرد (بفتح الراء) من غير الكوفيين يعنون الجميل

الوجه ، وذلك مما جعل شيخه أبا حاتم السجستانى مع ما عرف عنه من الورع والتقوى يقول فيه :

أبرزوا وجهك الجميل ولاموا من افتتن
لو أرادوا صيانتى ستروا وجهك الحسن

ويقول فيه أيضا :

وقف الجمال بوجهه فسمت له حدق الأنام

وكان يدعى للمسامرة والمنادمة والمذاكرة منذ شبابه المبكر لذلك فانه حين ذكرت الأبيات التى أنشدها فى مجلس مسامرة وشاع خبرها وهى : « حبذا ماء العناقيد ... الخ » وسئل عنها بعد أن تقدمت به السن أجاب بأنها من عبث مجالس الأنس .

وكان كثيرا ما يتهرب من طالبيه للمسامرة على نحو ما فعل مع الوالى وصاحب الشرطة حين اختفى فى بيت شيخه السجستانى . وقد قال القفطى :

« كان أبو العباس المبرد مقدما فى الدولة عند الوزراء والأكابر، ولما مات الفتح بن خاقان كتب محمد بن عبد الله بن طاهر يحث فى اشخاص المبرد اليه ، فلما وصل اليه ظل مقيما معه ، وسبب له أرزاقا على مصر حسبما كانت أرزاق القدامى تجرى عليهم من هناك » .

وكان كثير من سراة القوم وعظمائهم يختصونه بأن يختار لهم من يراه أصلح لتأديب أبنائهم كما طلب منه عبيد الله بن سليمان أن يختار له مؤدبا لابنه القاسم فقال له : ان خير من يصلح لذلك هو الزجاج ، ولكنه الآن عند بعض أهل الصراة فكتب اليهم عبيد الله يستنزلهم عن الزجاج فنزلوا له عنه ، وأسلم اليه ابنه القاسم ليتولى تأديبه .

وكما تشير هذه الواقعة الى أن المبرد كان موضع ثقة سادة القوم فانها من جانب آخر تشير الى صفة كريمة فيه هى صفة الوفاء فالزجاج - كما سنذكر بعد - كان من تلاميذ ثعلب ، وهو الذى أوفده ثعلب ليترأس جماعة تفض مجلس المبرد أول قدومه الى بغداد ، واذا الزجاج يتكشف له أنه أمام أستاذ لا يبارى فترك حلقة ثعلب ، ولزم المبرد ، وفرض على نفسه درهما كل يوم حتى يفرق الموت بينهما ، ووفى لأستاذه بشرطه ، وكافأه المبرد على الوفاء بوفاء ٠

وذكر ابن خلكان ان ابراهيم بن المدبر لما أراد جليسا يجمع الى تأديب ولده الامتاع بايناسه عمد الى المبرد ليختار له من يشاء فعرض عليه اسم تلميذه الأخفش الأصغر ، وتم اختياره لذلك ٠

أما الخلفاء فما نمى الينا من أخباره يفيد أنه لم يتصل الا بواحد منهم هو الخليفة المتوكل مع أنه عاصر المعتصم ، والواثق بالله ، والمتوكل ، والمنتصر ، والمستعين بالله ، والمهتدى بالله ، والمعتمد على الله ، ثم المعتضد بالله ٠

وكان أول اتصال له بالمتوكل فيما روته الأنباء أن المتوكل ، وكانت حاضرة ملكه سر من رأى (سامرا) ، قرأ يوما وبحضرته الفتح بن خاقان قول الله تعالى «وما يشعركم أنها اذا جاءت لا يؤمنون» (بفتح همزة ان) ٠ فقال له الفتح : انها يا سيدى بالكسر ، وأبدى كل منهما أنه المصيب فتبايعا على عشرة آلاف درهم يدفعها من لا يكون الحق فى جانبه ٠ وتحاكما الى يزيد بن محمد المهلبى ، وكان صديقا للمبرد ، فلما وقف يزيد على ذلك خاف أن يسقط عند أحدهما فقال : ما أعرف الفرق بينهما ، وما رأيت أعجب من أن يكون باب أمير المؤمنين يخلو من عالم متقدم ٠ فقال المتوكل : أفليس

ها هنا من يسأل عن هذا ؟ فقال : ما أعرف احدا يتقدم فتى بالبصرة يعرف بالمبرد • فقال المتوكل : ينبغي أن يشخص ، وأنفذ كتابا الى محمد بن القاسم بن محمد بن سليمان الهاشمي ان يشخصه مكرما •

قال المبرد فوردت سر من رأى وأدخلت على الفتح بن خاقان فقال : يا بصرى كيف تفسر هذا الحرف « وما يشعركم انها اذا جاءت لا يؤمنون » أبفتح همزة ان أم بكسرها ؟ فقلت : انها بالكسر ، وهو الجيد المختار ، وذلك أن أول الآية وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها • قل انما الآيات عند الله وما يشعركم • ثم قال الله : يا محمد « انها اذا جاءت لا يؤمنون » باستيفاء جواب الكلام المتقدم • قال الفتح : صدقت •

وركب الفتح الى دار أمير المؤمنين فعرفه بقدومي ، وطالبه بما تخاطرا عليه وتبايعا فيه • فأمر المتوكل باحضاري فحضرت ، فلما وقعت عين المتوكل على قال : يا بصرى كيف تقرأ الآية « وما يشعركم أنها اذا جاءت لا يؤمنون » بالكسر أم بالفتح ؟ قلت: يا أمير المؤمنين أكثر الناس يقرءونها بالفتح •• فضحك وضرب رجله اليسرى وقال : احضر المال يافتح •

قال المبرد : وأخرجت فلم أصل الى الموضع الذى كنت فيه نازلا حتى أتتنى رسل الفتح فأتيته فقال : يا بصرى ، أول ما ابتدأتنا بالكذب ؟ فقلت : ما كذبت • قال : وكيف وقد قلت لأمير المؤمنين ان الصواب وما يشعركم أنها بفتح الهمزة ؟ فقلت : أيها الأمير لم أقل هذا ، وانما قلت أكثر الناس يقرءونها بالفتح ، وأكثرهم على الخطأ ، وانما تخلصت من اللائمة وهو أمير المؤمنين • فقال لى : أحسنت •

قال المبرد : وانى ما رأيت أكرم كرما ، ولا أرطب لسانا من الفتح .

وقال : لقد حملت الى المتوكل سنة ست وأربعين ومائتين .

ومعنى ذلك انه كان فى منتصف العقد الرابع من عمره .

هذا اللقاء الأول مع المتوكل ، والذى تم بعد استدعائه من البصرة ليكون حكما بينه وبين الفتح بن خاقان فى تصحيح نطق همزة ان فى قوله تعالى « وما يشعركم أنها » لم يترتب عليه توطيد مكانته لدى المتوكل أو الفتح بن خاقان ، اذ لم تتوثق صلته بهما الا على يد بندار بن عبد الحميد الكرخى ، قال المبرد :

كان سبب غناى بندار بن عبد الحميد الكرخى المعروف باسم بندار بن لرة الأصبهانى . وذلك أنى حين أصعدت الى سامرا وردتها فى أيام المتوكل فآخيت بها بندار بن لره ، وكان واحد زمانه فى رواية دواوين العرب حتى كان لا يشذ عن حفظه من شعر شعراء الجاهلية والاسلام الا القليل . وكان أصح الناس معرفة باللغة ، وكان له دخلة على المتوكل ، فجمع بينى وبين النحويين ، ورفع حديثى الى الفتح بن خاقان ، ثم توصل الى أن وصفنى للمتوكل فأمر باحضارى مجلسه ، وكان المتوكل تعجبه الأخبار والانساب، ويروى صدرا منها يمتحن من يراه بما يقع فيها من غريب اللغة . فلما دنوت من طرف بساطة استدنانى حتى صرت الى جوار بندار فأقبل علينا وقال : يابن لره ، ويا بن يزيد ما معنى هذه الأحرف التى جاءت فى هذا الخبر ؟ ثم ذكر كلاما أشبه بالأحاجى . قال المبرد : فبقيت متحيرا ، فبدر بندار وقال : يا أمير المؤمنين فى هذا نظر وروية . قال : أجلتكما بياض يومى فانصرفا، وباكرانى غدا . فخرجنا من عنده فأقبل بندار على وقال : ان ساعدك الحظ ظفرت بهذا الخبر ، فاطلبه فانى طالبه . فانطلقت الى منزلى،

وقلبت الدفاتر ظهرا لبطن حتى وقعت على هذا الخبر فى أثناء أخبار الاعراب فحفظته · وباكرت بندارا فأنهضته معى ، وصبحنا المتوكل، وبدأت فرويت له الخبر ، ثم فسرت ألفاظه · فالتفت الى بندار وقال : ابن يزيد فوق ما وصفتم · ثم قال للغلام : على بالخازن ، فحضر ، فأمره بهبة لى ، وقال له : اخرج مع ابن يزيد ، وقل للحاجب يسهل اذنه علينا · فصار ذلك أصل مالى ، وكان بندار سببه ومصدره ·

وتوطدت مكانة المبرد لدى المتوكل منذ هذا اللقاء الذى دبره صديقه بندار بن لره ، وتلت ذلك لقاءات أخرى زادته قربا من قلب المتوكل ووزيره الفتح بن خاقان ، وأصبح الفتح هو الذى يمهد لحضور المبرد مجالس المتوكل ، والمتوكل يفتح قلبه للمبرد ، وكان ذلك مما أوحى الى الشاعر أحمد بن عبد السلام أن يقول ضمن مدحه للمبرد :

رأيتك والفتح بن خاقان راكبا — وأنت عديل الفتح فى كل موكب
وكان أمير المؤمنين اذا رنا — اليك يطيل الفكر بعد التعجب

وقد روى الحصرى فى « زهر الآداب » والمرزبانى فى « معجم الشعراء » أن المبرد تحدث عن نفسه فقال :

دخلت يوما على المتوكل ، وكان الفتح بن خاقان قد اختار لدخولى وقت شربه ، وكان الشراب قد أخذ منه · فسألنى قائلا : يا بصرى ، أرأيت أحسن وجها منى ؟ فقلت : لا والله ولا أسمح راحة · ثم تجاسرت فقلت :

جهرت بحلفة لا أتقيها — بشك فى اليمين أو ارتياب
بأنك أحسن الخلفاء وجها — وأسمح راحتين ولا أحابى
وأن مطيعك الأعلى مقاما — ومن عاصاك يهوى فى تباب

فقال : أحسنت وأجملت فى حسن طبعك وبديهتك . قلت : ما ظننتنى أبلغ هذا الشرف ، ولا أنال هذه الرتبة . فلا زال أمير المؤمنين يسمو بخدمه الى أعلى المراتب ، ويصرفهم فى أشرف المذاهب .

وتوثقت علائق الود بين المبرد والفتح بن خاقان ، وكان ذلك ثمرة رابطة الأدب التى تجمع بينهما ، والتى جعلت كلا منهما يدرك خصائص الآخر ويحرص على وده .

وقد جاء فى أمالى السيد المرتضى أن المبرد قال : « ما رأيت أحرص على العلم من ثلاثة : الجاحظ ، والفتح بن خاقان ، واسماعيل بن اسحاق القاضى ، فأما الجاحظ فانه كان اذا وقع فى يده كتاب قرأه من أوله الى آخره أيا كان الكتاب ، وأما الفتح بن خاقان فانه كان يحمل الكتاب فى خفه فاذا قام من بين يدى المتوكل للبول أو الصلاة أخرج الكتاب للنظر فيه وهو يمشى حتى يبلغ الموقع الذى يريده ، ثم يصنع مثل ذلك فى رجوعه الى أن يأخذ مجلسه ، وأما اسماعيل بن اسحاق فانى ما دخلت عليه قط الا وفى يده كتاب ينظر فيه أو يقلب الكتب لطلب كتاب ينظر فيه » .

واذا كان لم يتصل بأحد من الخلفاء غير المتوكل فما نحسب ذلك الا لأنه رجل كان يؤثر العافية ، وكان حريصا على العلم والتعليم مكبا على التأليف . لقد كان يرى كيف يدور الصراع عنيفا فى قصور الخلفاء ، وكيف يتهدد خطر الموت الخليفة نفسه فضلا عن خلصائه واصفيائه لذلك عكف على الاستزادة من العلم ، وتزويد تلاميذه بما فتح الله عليه به ، وعكف على التأليف حتى أتيح له أن يبز كثيرين غيره من علماء عصره ومن سبقهم فى عدد المؤلفات ، فقد عدوا له نحو أربعة وأربعين كتابا ، وان كان الذى وصل الينا منها قليل محدود .

ولم يتصل بأحد من الخلفاء بعد المتوكل ، ولكنه كان على اتصال خارج دار الخلافة بكبار الأدباء من الوزراء ومن فى درجتهم وقد روى الحصرى فى كتابه « زهر الآداب » أن المبرد قال : « ما رأيت فى أصحاب السلطان مثل اسماعيل بن اسحق ، والحسن بن رجاء كنت اذا رأيت أحدهما رأيت رجلا كأنما خلق لذروة منبر ، أو صدر مجلس · يتكلم وكأنه يتنفس ، يسهب ويطنب ، ويعرب ويغرب ولا يعجب ويعجب » ·

وكان يرتاد داره عظماء القوم وسادتهم وقد جاء فى « جمع الجواهر والملح » أنه : دخل بعض أبناء الملوك على المبرد وعنده سلة حلوى قد أعدها لبعض اخوانه فوجد ابنه الفرصة فى اشتغال أبيه فأقبل يأكل منها فنظر اليه المبرد وأنشد :

الناس فى غفلاتهم ورحى المنية تطحن

بين المبرد والزجاج :

الزجاج هو ابو اسحاق ابراهيم بن السرى بن سهل الزجاج· كان من أكابر أهل العربية حسن العقيدة ، جميل الطريقة ، عالما نحويا ولغويا لامعا ، وأديبا بارعا ، خلف آثارا قيمة وتوفى سنة احدى عشرة وثلثمائة فى خلافة المقتدر بالله ·

كان الزجاج تلميذا لثعلب ، فلما ظهر المبرد فى بغداد خشى ثعلب مزاحمة المبرد له ، وانتزاع الرياسة منه فأغرى به تلاميذه يعنتونه بالأسئلة عسى أن يعجزوه ، ويصرفوا عنه من تحلقوا حوله وكان الزجاج على رأس من أغراهم ثعلب باعناته لانه كان أبرع تلاميذه ·

قال الزجاج فيما يرويه « معجم الأدباء » و « نزهة الالبا » « وتاريخ بغداد » : لما قدم المبرد بغداد جئت لأناظره ، وكنت أقرأ

على ثعلب ، فعزمت على اعناته فلما باحثته ألجمنى بالحجة ، وطالبنى بالعلة ، وألزمنى الزامات لم أهتد اليهـــا ، فاستيقنت فضله ، واسترجحت عقله ، وأخذت فى ملازمته ٠

وروى الأنبارى أن الزجاج قال :

كنت أخرط الزجاج فاشتهيت النحو فلزمت أبا العبـــاس المبرد ، وكان لا يعلم مجانا ، ولا يعلم بأجرة الا على قدرها ٠ فقال لى : أى شىء صناعتك ؟ فقلت : أخرط الزجاج ، وكسبى كل يوم درهم ونصف درهم ، وأريد أن تبالغ فى تعليمى ، وأنا أشرط أن أعطيك كل يوم درهما الى أن يفرق الموت بينـنـــا ، استغنيت عن التعلم أو احتجب اليه ٠ قال : فلزمته ، وكنت أخدمه فى أموره ، ومع ذلك أعطيــه الدرهم ٠ ونصحنى (أخلص لى) فى العــلم حتى استقللت ٠

ثم قال : وجاء كتاب من بعض الأكابر من الصراة يلتمسون معلما نحويا لأبنائهم ، فقلت له : أسمنى لهم فأسمانى ، فخرجت فكنت أعلمهم وأنفذ اليه فى كل شهر ثلاثين درهما ، وأتفقده بعــد ذلك بما أقدر عليه ٠

قال : وبقيت على ذلك مدة ثم طلب عبيد الله بن سليمان مؤدبا لابنه القاسم فقال له المبرد : لا أعرف لك الا رجلا زجاجا عند قوم بالصراة ٠ فكتب اليهم عبيد الله فاستنزلهم عنى وأحضرنى ، وأسلم الى القاسم فكان ذلك سبب ما نالنى من الغنى ٠

وقصة انقطاع الزجاج للأخذ عن المبرد بعد أن كان يأخذ عن ابى العباس ثعلب قد حمل الينا تفصيلها ابن القفطى فى كتابه « انباه الرواة على أنباه النحاة » اذ قال :

لما قتل المتوكل بسر من رأى (سامرا) دخل المبرد بغداد ، فقدم بلدا لا عهد له بأهله فاختل وأدركته الحاجة فتوخى شـهود صلاة الجمعة ، فلما قضيت الصلاة أقبل على بعض من حضره وسأله أن يفاتحه السؤال ليتسبب له القول ، فلم يكن عند من حضره علم فلما رأى ذلك رفع صوته وطفق يفسر ويوهم أنه قد سئل ، وصارت عنده حلقة عظيمة ، وهو مستمر فى مواصلة كلامه . فتشوف احمد ابن يحيى ثعلب الى الحلقة ، وكان كثيرا ما يرد الجامع قوم خراسانيون من ذوى النظر فيتكلمون ويجتمع الناس من حولهم ، فاذا أبصرهم ثعلب أرسل من تلاميذه من يناقشهم فاذا انقطعوا (عجزوا) عن الجواب انفض الناس عنهم فلما رأى كثرة من حول المبرد أمر ابراهيم بن السرى الزجاج وابن الخياط بالنهوض وقال لهما : فضا حلقـة هذا الرجل ، فنهض معهما من حضر من أصحابه . فلما صاروا بين يدى المبرد قال له الزجاج : أتأذن – أعزك الله – فى المفاتشة ؟ فقال له المبرد : سل عما أحببت . فسأل عن مسألة ، فأجاب عنها بجواب أقنعه . فنظر الزجاج فى وجوه أصحابه متعجبا من تجويد المبرد للجواب . فلما انقضى ذلك قال له المبرد : أقنعت بالجواب ؟ قال الزجاج : نعم . قال المبرد : فان قال قائل فى جوابنا هذا كذا وكذا ما أنت راجع اليه ؟ وجعل المبرد يوهن جواب المسألة ويفسده ، ويعتل فيه . فبقى الزجاج سادرا لا يحير جوابا ثم قال : ان رأى الشيخ أعزه الله أن يقول فى ذلك . فقال المبرد : فان القول على نحو كذا وكذا فصحح الجواب الأول ، وأوهن الاعتراض . فبقى الزجاج مبهوتا .

وقال الزجاج فى نفسه : قد يجوز أنه كان حافظا لهذه المسألة مستعدا للقول فيها فسأله مسألة ثانية ففعل المبرد فيها كما فعل فى

الأولى ، وهكذا حتى سأله أربع عشرة مسألة ، وهو يجيب عن كل منها بمثل ما فعله فى المسألة الأولى ٠

فلما رأى الزجاج ذلك قال لأصحابه : عودوا الى الشيخ فلست مفارقا هذا الرجل ، ولابد من ملازمته والأخذ عنه ٠ فعاتبه أصحابه وقالوا : تأخذ عن مجهول لا تعرف اسمه ، وتترك من شهر اسمه وعلمه ، وانتشر فى الآفاق ذكره ؟ فقال : لست أقول بالذكر والخمول ولكن أقول بالعلم والعمل ٠

ولزم الزجاج المبرد فسأله عن حاله فأخبره برغبته فى الأخذ عنه ، وذكر له أنه قد حبس نفسه على التعلم الا ما يشغله من صناعة الزجاج خمسة أيام من كل شهر فيتقوت بذلك الشهر كله ٠ ثم أجرى على المبرد فى الشهر ثلاثين درهما ، وأمره المبرد باخراج كتب الكوفيين ، ولم يزل ملازما له ، آخذا عنه حتى برع من بين أصحابه ٠

وكان المبرد لا يقرىء أحدا كتاب سيبويه الا اذا قرأه على الزجاج وصحح كتابه به ٠ وكان ذلك أول رياسة أبى اسحق الزجاج ٠

ومن هذا يعرف أن الزجاج كان أول تلميذ للمبرد فى بغداد، وأول من دفع له أجرا فيها ، وظل وفيا له طوال حياته ، وقابل المبرد وفاءه بوفاء فكان كما قلنا لا يقرىء أحدا كتاب سيبويه الا صحح كتابه على الزجاج ، وحين سنحت فرصة عمل فيه نفع أدبى ومادى قدمه كما فعل مع أهل الصراة ، ومع عبد الله بن سليمان ٠ ولما تقدمت بالمبرد السن ، وأدركه ضعف الشيخوخة

أيام المعتضد طلب منه تفسير بعض الكتب فقال : ان هذا كتاب طويل يحتاج الى تعب وشغل وانه قد كبر وضعف عن ذلك ثم قال : « ان دفعتموه الى صاحبى ابراهيم بن السرى الزجاج رجوت أن يفى بذلك » .

وألف الزجاج كتابا فى الرد على ثعلب انتصـــارا لأستاذه وصديقه المبرد . وتمثل وفاء الزجاج للمبرد بعد وفاته فى كثرة رواياته عنه ، ودفاعه عن آرائه .

بين المبرد وثعلب

تمهيد : علاقة العلماء ببعضهم خلال القرن الثالث الهجرى :

القرن الثالث الهجرى الذى عاشه المبرد كان زاخرا بأعلام اللغة والأدب والبيان والرواية ، وكان التنافس بين هؤلاء العلماء الأعلام المتعاصرين على أشده ، كل يسعى جاهدا فى أن يكون محط الأنظار ، وملتقى الزوار ، وكعبة طالبى العلم ، والمقرب لدى الخلفاء والأمراء والوزراء والسادة ٠

والتنافس فى ذاته أمر حسن لأنه يشحذ الهمم ، ويحفز الى العمل ، مالم ينقلب الى أنانية مستأسدة لاغاية لها الا هدم الآخرين والارتفاع على أنقاضهم ، والى هذا الحد الكريه وصل تنافس العلماء خلال هذا القرن ٠

وكتب تاريخ الأدب قد سجلت كثيرا من أحداث هذا التنافس البغيض ، وحسبك أن تقرأ « وفيات الأعيان » أو « نزهة الألبا » أو « شذرات الذهب » أو « انباه الرواه » لترى الى أى حد وصل الأمر بهؤلاء الأعلام فى تنافسهم البغيض ٠

فمثلا يروى الحريرى فى « درة الغواص » كما روى غيره أن أبا عمرو الجرمى حين شخص الى بغداد ثقل موضعه على الأصمعى

اشفاقا من أن يصرف وجوه أهلها عنه ، ويصير السوق له ، فأعمل الفكر فيما يغض من قدره فلم ير الا أن يرهقه فيما يسأله عنه . فأتى حلقته يوما وقال له :

كيف تنشد قول الشاعر :

قد كن يخبأن الوجوه تسترا   فاليوم حين بدأن للنظار

أتقول : حين بدأن أم حين بدين ؟

فقال الجرمى : حين بدأن .

قال الأصمعى : أخطأت .

قال الجرمى : حين بدين

قال الأصمعى : غلطت ، انما هو حين بدون أى ظهرن (أى أنها من الفعل بدا يبدو) .

فأسرها الجرمى فى نفسه ، وفطن لما قصده الأصمعى ، واستأنى الى أن تصدر الأصمعى حلقته ، واحتف الجمع به ثم وقف به وقال له : كيف تقول فى تصغير مختار ؟

قال الأصمعى : مخيتير .

قال الجرمى : أنفت لك أن تقول ذلك . أما تعلم أنه من الخير ، وأن التاء زائدة ؟ ولم يزل يندد بغلطه ويشنع به الى أن انفض الناس من حوله .

ومن ذلك أيضا مارواه الخفاجى فى شرح درة الغواص من أن الرشيد جمع بين الكسائى واليزيدى وهما قمة علماء جيلهما ، ليتناظرا عنده ، وكان اليزيدى دون الكسائى فى النحو ، فلكى يخرج المناظرة عن هذا المجال قال للكسائى : أتقول تمرة مذنبة

(بسكون الذال وفتح الباء) أم مذنبة (بفتح الذال وتشديد النون) ولم يكن الكسائى سيىء الظن بصاحبه فلم يجل بباله أنه يغالطه ويخادعه فقال أقولهـا بفتح الذال وفتح النون المشـددة ! فقال اليزيدى : اذا كان ماذا ؟ قال الكسائى : اذا بدا الارطاب من أسفلها . ففرح اليزيدى بأنه أوقع منافسه فى خطأ ، وضرب بقلنسوته على الأرض وقال : أخطأت ياشيخ لأن التمرة لا تذنب ، ولكن البسرة هى التى تذنب . فغضب الرشـيد وقال لليزيدى أتكتنى بمجلسى وتسفه على الشيخ ؟ والله ان خطأ الكسائى مع حسن أدبه لأحب الى من صوابك مع قبح أدبك .

على هذا الغرار من التنافس المحموم كانت تمضى الحياة برجال اللغة والادب والنحو فى هذه الفترة من تاريخ الادب العربى ، وعلى هذه الصورة كان التنافس بين ثعلب والمبرد ، وبدأ به ثعلب اذ كان يغرى تلاميذه بالمبرد ، ويوحى اليهم أن يرهقوه بالأسئلة عسى أن يعجزوه ، وكان لايدع فرصة تسنح للنيل من المبرد الا اهتبلها .

تعريف بثعلب :

هو أبو العباس احمد بن يحيى ، وثعلب لقبه ، وقد ولد سنة مائتين وعاش احدى وتسعين سنة ، ولما توفى رثاه شاعر بقوله :

مات ابن يحيى فماتت دولة الأدب
ومات احمد يحيى العجم والعـرب
فان تـولى ابو العبـاس مفتقـدا
فلم يمت ذكره فى الناس والكتب

ومع علمه وفضله كان لا يحب أن يرتفـع رأس فى مسـاماة رأسه ، أو قريبا منه ، فضلا عن أن يكون أعلى من ذلك . لذلك كان يتخذ من تلاميذه أدوات لفض حلقة كل من يجمع حوله حلقة علمية فى

المسجد حيث يكون تلقى العلوم فكان لا يتورع أن يأمر تلاميذه ببذل ما يستطيعون من جهد لاحراج من يحاول أن يزحمه فى مركزه ، أو يفكر فى الظهور الى جانبه ·

حقا ان علماء هذا العصر يكادون جميعا يتفقون فى صفة واحدة هى التباغض الخفى حينا والظاهر أحيانا الا أن أمر ذلك طال بين هذين العالمين الكبيرين المبرد وثعلب · وسجل المؤرخون لهما كثيرا من مظاهر التنافر ·

روى ياقوت أنه قد كان بين المبرد وثعلب ما يكون بين المعاصرين من المنافرة ، واشتهر ذلك حتى صار مضرب الأمثال ، وحتى قال بعضهم ممثلا بعسر اللقاء بين هذين العالمين :

كفى حزنا أنا جميعا ببلدة ... ويجمعنا فى أرضها شر مشهد
وكل لكل مخلص الود وامق ... ولكنه فى جانب عنه مفرد
نروح ونغدو لا تزاور بيننا ... وليس بمضروب لنا يوم موعد
فأبداننا فى بلدة ، والتقاؤنا ... عسير كلقيا ثعلب والمبرد

واذا كان التقاء ثعلب والمبرد قد صار مضرب المثل فى العسر فان المسئول الأول عن هذا هو ثعلب ، فهو الذى بدأ به ، وهو الذى أصر عليه وأسرف فيه · وطالما أبدى المبرد رغبة فى أن يلقى ثعلبا عسى أن يصفو له قلبه ، ولكن ثعلبا كان يأبى ذلك اباء شديدا ·

كان المبرد يحسن تأليف عبارته ويجيد القاءها ، وكان أهل التجميل — كما يقول ياقوت — يفضلونه لذلك على ثعلب ·· وقد عبر عن ذلك الشاعر أحمد بن عبد السلام حين قال :

رأيت محمد بن يزيد يسمو ... الى الخيرات فى جاه وقدر
وفتيانية الظرفاء فيه ... وأبهة الكبير بغير كبر
فينثر ان أدار الفكر درا ... وينثر لؤلؤا من غير فكر

وكان الشعر قد أودى ناحيا ... أبو العباس داثر كل شعر
وقالوا : ثعلب يفتي ويملى ... وأين الثعلبان من الهزبر
وقالوا : ثعلب رجل عليم ... وأين النجم من شمس وبدر
وهذا فى مقالك مستحيل ... تشبه جدولا وشلا ببحر

واذا كان هذا الشاعر قد سما بالمبرد فجعل نثره درا ولؤلؤا وجعل شعره مجددا لشباب الشعر ، وجعله شمسا ، وبدرا ، وهزبرا (أسدا) ، وبحرا فان ثعلب فى رأيه لا يعدو أن يكون بالنسبة له نجما ، أو ثعلبانا ، أو جدولا قليل الماء ٠

ولكن مع مبالغة هذا الشاعر فى الموازنة بينهما فان المنصفين لا ينكرون نسبة العلم والفضل اليهما على السواء ٠ وهناك شاعر آخر ذكره ياقوت ولم يفصح عن اسمه ، ولكن كتاب « النجوم الزاهرة » جاء فيه أنه أبو بكر بن الأزهر ، وانه قال :

أيا طالب العلم لا تجهلن ... ولذ بالمبرد أو ثعلب
تجد عند هذين علم الورى ... فلا تك كالجمل الأجرب
علوم الخلائق مقرونة ... بهذين فى الشرق والمغرب

والزجاج الذى بدأ تلميذا لثعلب ، ووكل اليه ثعلب مهمة فض حلقة المبرد أول قدومه الى بغداد قد سحر بعلم المبرد وبلاغته وقوة حجته فانحاز اليه دون ثعلب ، وأخلص له الود ، وربط نفسه به معاهدا اياه الا ينقض ذلك حتى يفرق الموت بينهما ، والزجاج ، وهذا شأنه ، يقول :

« كان المبرد يحب الاجتماع بثعلب للمناظرة ، وكان ثعلب يكره ذلك » ٠

وحكى ابو القاسم جعفربن محمد بن حمدان الموصلى ، وكان صديقا لهما ، قال :

« قلت لأبى عبد الله الدينورى ختن ثعلب : لم يأبى ثعلب الاجتماع بالمبرد ؟

فقال : لأن المبرد حسن العبارة ، حلو الاشارة ، فصيح اللسان ، ظاهر البيان • وثعلب مذهبه مذهب المعلمين ، فاذا اجتمعا فى مجلس حكم للمبرد على الظاهر الى أن يعرف الباطن » •

هذا ويروى « معجم الأدباء » أن احمد بن فارس اللغوى وهو من أنصار ثعلب قال :

كان أبو العباس ثعلب لا يتكلف الاعراب فى كلامه • كان يدخل المجلس فنقوم له فيقول :

أقعدوا ، أقعدوا بفتح الهمزة •

ويروى الزبيدى أيضا أن تلميذا آخر من تلاميذ ثعلب وهو ابن المدور قال عنه « •• ولم يكن مع ذلك موصوفا بالبلاغة ، ولا رأيته اذا كتب كتابا الى بعض أصحاب السلطان خرج عن طبع العامة » •

والأزهرى فى « تهذيب اللغة » يقسم علماء العربية الى أربع طبقات بالنسبة لزمن وجودهم وقد جعل المبرد من رجال الطبقة الرابعة وقال :

« أبو العباس محمد بن يزيد الثمالى الملقب بالمبرد ، وأبو العباس احمد بن يحيى الشيبانى يمثلان الطبقة الرابعة • وأجمع أهل هذه الصناعة من العراقيين وغيرهم أنهما كانا عالمى عصرهما ، وأن احمد بن يحيى كان واحد عصره ، وكان محمد بن يزيد أعذب الرجلين بيانا واحفظهما للشعر المحدث ، والنادرة الظريفة ، والأخبار الصحيحة ، وكان من أعلم الناس بمذاهب البصريين فى النحو •

ومع اشتداد التنافر بينهما ، وعنف ثعلب على المبرد فان

المبرد كان بعيدا عن العنف به ، ويأبى مواجهته بالسوء فلم يعرف عنه أنه أغرى به أحـدا من تلاميـذه ، أو أوعز الى أحـد أن يرهقه بسـؤال • وقد روى أن أحـد الأكابر من بنى طاهر طلب من أبى العباس ثعلب أن يكتب له مصحفا على مذهب أهل التحقيق فكتب « والضحى » بالياء • لأن مذهب الكوفيين أنه اذا كانت كلمة من هذا النحو أولها ضمة أو كسرة كتبت ألفها ياء ولو كانت من ذوات الواو • أما عند البصريين فانهـا ان كانت من ذوات الواو كتبت بالألف • فنظر المبرد فى المصحف فقال : ينبغى أن يكتب «والضحا» بالألف لأنه من ذوات الواو • فجمع ابن طاهر بينهما ، فقال المبرد لثعلب : لم كتبت « والضحى » بالياء ؟

فقال ثعلب : ذلك لضم أوله •

قال المبرد :

ولم اذا ضم أوله وهو من ذوات الواو تكتبه بالياء ؟
قال ثعلب :

لأن الضـمة تشبه الواو ، وما أوله واو يـكون آخـره ياء ، فتوهموا أن أوله واو • ومع أن رد ثعلب كما يبدو من خلال هذا الحوار رد ضعيف يتيح للمبرد أن يجول فيه ويصول ليتشفى من هذا المنافس الذى طالما أغرى به من يعنتونه ، فانه أبى أن يـكون كذلك واكتفى بأن يقول لثعلب :

أفلا يزول هذا التوهم الى يوم القيامة ؟

بل أكثر من ذلك تدليلا على انصاف المبرد انه سئل عن ثعلب فقـال :

« ثعلب اعلم الكوفيين بالنحو • فلما قيل له : والفـراء ؟ قال : لايعشره » •

أما ثعلب فكان يتصيد الفرص ليقول في المبرد أغلظ ما يمكن أن يقال . روى الزجاج فى أماليه أن أبا الحسن الأخفش قال :

كنت يوما بحضرة ثعلب فأسرعت فى القيام قبل انقضاء المجلس فقال لى : الى أين ؟ ما أراك تصبر عن مجلس الخلدى (وبهذه التسمية كان يتهكم ثعلب بالمبرد) . قال الأخفش : فقلت له : لى حاجة . فقال انى أراه يقدم البحترى على أبى تمام ، فاذا أتيته فقل له : ما معنى قول أبى تمام :

أآفة النجيب كم افتراق   أظل فكان داعية اجتماع

قال الأخفش : فلما صرت الى أبى العباس المبرد سألته عنه فقال : معنى هذا أن المتحابين والمتعاشقين قد يتصارعان ويتهاجران ادلالا ، لاعزما على القطيعة . واذا حان الرحيل وأحسا بالفراق تراجعا الى الود ، وتلاقيا خوف الفراق ، وخوف أن يطول اللقاء بعده . فيكون الفراق حينئذ سببا للاجتماع ، كما قال الآخر :

متعا باللقاء يوم الفراق   مستجيرين بالبكا والعناق
كم أسرا هواهما حذر النا   س ، وكم كتما غليل اشتياق
فأطل الفراق فالتقيا فيه   ، فراق أتاهما باتفاق
كيف ادعو على الفراق بحتف   وغداة الفراق كان التلاقى ؟

قال الأخفش : فلما عدت الى ثعلب فى المجلس التالى سألنى عنه ، فأعدت عليه الجواب والأبيات ، فقال : ما أشد تمويهه ! ما فعل شيئا ، انما معنى البيت أن الانسان قد يفارق محبوبه رجاء أن يوفق فى سفره فيعود الى محبوبه مستغنيا عن التغرب فيطول اجتماعه معه . ألا تراه يقول فى البيت التالى :

وليست فرحة الأوبات الا لموقوف على ترح الوداع

وهذا نظير قول الآخر :

سأطلب بعد الدار عنكم لتقربوا وتسكب عيناى الدموع لتجمدا

والموازنة بين جواب المبرد فى مسألة « والضحى » وجواب ثعلب هذا يكشف عن رفق المبرد وقسوة ثعلب ·

واسم الخلدى الذى يطلقه ثعلب على المبرد تهكما به قيل انه نسبة الى قصر الخلد الذى بناه المنصور ببغداد ، وبنيت حوله منازل فصارت محلة كبيرة ، وكان المبرد ينزل هناك ، فهو يعنى أن المبرد أقحم نفسه فى زمرة علية القوم الذين سكنوا حول قصر الخليفة ، وقيل انه نسبة الى الخلد الذى هو ـ كما جاء فى كتاب « حياة الحيوان » للدميرى دويبة عمياء صماء لا تعرف ما بين يديها الا بالشم ، ويضرب بها المثل فى الفساد فيقال : أفسد من خلد بضم الخاء ، وقال الخليل بن احمد بفتح الخاء ، لاندرى الى أيهما ينسبه ثعلب ولكن الذى نحسه انه يسميه بذلك تهكما ·

وجاء فى « المزهر » للسيوطى ان الزجاج قال :

دخلت على ثعلب بعد انصرافى من حلقة المبرد اذ كان قد أملى علينا شيئا من كتابه « المقتضب » فسلمت على ثعلب وعنده أبو موسى الحامض ، وكان يحسدنى كثيرا ، ويجاهرنى بالعداوة ، وكنت أحتمله وألين له لموضع الشيخوخة · فقال ثعلب : قد حمل الينا ما أملاه هذا الخلدى (يعنى المبرد) فرأيته لايطوع لسانه بعبارة ·

قال الزجاج : فقلت له انه لا يشك فى حسن عبارته اثنان ، ولست بسوء رأيك فيه بالغا منه عيبا ·

هكذا كان يقول ثعلب فى المبرد فى حين يقول المبرد عنه انه أعلم الكوفيين ، وأعلم من الفراء • ويقول شـــاعر فى مدح المبرد وتفضيله على ثعلب :

وأوتيت علما لا يحيط بكنهـــه علوم بنى الدنيا ولاعلم ثعلب

ومما يروى عن أبى على احمـد بن جعفـر النحوى زوج ابنة ثعلب انه كان يخرج من بيت ثعلب وهو جالس أمام بابه ، ويمضى ومعه دفتره ومحبرته فيقرأ على المبرد كتاب سيبويه ، فيعاتبه ثعلب ويقول له : ماذا يقول الناس اذا رأوك تمضى الى هذا الرجل تقرأ عليه ؟ ولكن زوج ابنته كان لا يلتفت الى قوله ويمضى فى سبيله •

وتشير هذه الرواية فى وضوح الى مدى ما أحرزه المبرد من التفوق على منافسه ، ومن الاستئثار بأقرب الناس اليه ، وما كان ذلك ليتأتى له لولا صفات كريمة فيه قامت الى جانب علمه الغزير ، وبديهته الحاضرة ، ولسانه الذرب ، وعقله الحصيف مما جـذب القلوب اليه ، وأطلق ألسنة الشعراء بمدحه والثناء عليه • ومن ذلك قول أحدهم :

واذا يقال من الفتى كل الفتى والشيخ والكهل الكريم العنصر
والمســـتضاء بعلمه وبرأيـــه وبعقله ؟ قلت ابن عبد الأكبر

ومما يؤيد ما وصف به من كريم الخلق انه قد نمى اليه أن أبا العباس ثعلبا ذكره بكلام قبيح ، فلم يزد على أن قال :

رب من يعنيـــه حـــالى وهـــو لا يجرى ببـــالى
قلبـــه مـــلآن مـــنى وفـؤادى منـــه خـــالى

وقد كان لهذين البيتين أثرهما الحسن فى نفس ثعلب فقد

روى أنه منذ سمع ذلك أمسك عن المبرد فلم تسمع منه بعد ذلك كلمة قبيحة فى حقه .

ويظهر أن أصدقاء المبرد وأصدقاء ثعلب وتلاميذهما كانوا يشعلون نار البغضاء بينهما بما ينقلون من هذا لذاك ، ومن ذاك لهذا ، ويحاولون اضرام نار الخصومة كلما احسوا أنها أخذت تخمد فما ان يسمع واحد منهم كلمة من أحد هذين العالمين الكبيرين تمس الآخر من قريب أو من بعيد حتى يطير بها اثارة للفتنة واشعالا لنار الخصومة .

كان بين المبرد وثعلب منافرات كثيرة ، والناس مختلفون فى تفضيل احدهما على الآخر وحدث أن جاء رجل الى ثعلب فقال له : يا أبا العباس ، قد هجاك المبرد . فقال :

بماذا ؟

فأنشده :

أقسم بالمبتسم العذب ومشتكى الصب الى الصب
لو أخذ النحو عن الرب ما زاده الا عمى قلب

فقال ثعلب : أما أنا فقد روى لى من شعر أبى عمرو بن العلاء :

يشتمنى عبد بنى مسمع فصنت عنه النفس والعرضا
ولم أجبه لاحتقارى به من ذا يعض الكلب اذا عضا ؟

ومن أمثلة سعى الساعين بالشر بين الرجلين ما رواه الحصرى فى «زهر الآداب» اذ قال :

روى العتبى ان أباه قال : سمعت أعربيا يقول لأخيه فى معاتبة جرت بينهما : « أماوالله لرب يوم كتنور الطاهى قد رميت بنفسى فى سمومه أحتمل منه ما أكره لما أحب » .

فقال المبرد : أحسب ان هذا العتبى صنع هذا الكلام ، وانه أخذه من قول بشار :

ويوم كتنور الاماء سجرنه وأوقدن فيه النار حتى تضرما
رميت بنفسى فى أجيج سمومه وبالعيس حتى بض منخرها دما

ومع أن هذا نقد أدبى رفيع يدل على عمق الفكر ، وكثرة الحفظ ، وحضور البديهة فان أحد أصحاب ثعلب ـ كما يقول الحصرى ـ قد أخذ هذا المعنى وحوله الى هجاء للمبرد فقال :

ويوم كحر الشوق فى الصدر والحشا
على أنه منه أحر وأوقد
ظللت به عند المبرد جالسا
فمازلت فى ألفاظه أتبرد

وفى كتاب « سير أعلام النبلاء » موازنة بين الرجلين على لسان ابن حماد النحوى قال فيها :

« كان ثعلب أعلم باللغة وبالنحو من المبرد ، وكان المبرد أكثر تفننا فى جميع العلوم من ثعلب » .

الا أن شاعرا من انصار المبرد وازن بين الرجلين بميزان آخر فقال :

بنفسى أنت يا بن يزيد من ذا يساوى ثعلبا بك غير قين
اذا زارتكما العلماء يوما رأت شأويكما متفاوتين
تفسر كل مقفلة بحذق ويستر كل واضحة بغين
كأن الشمس ما تمليه شرحا وما يمليه همزة بين بين

والمنصفون من النقاد والرواة يحكمون لهما معا بغزارة العلم ،

وجلال القدر ، وقد سئل أبو بكر السراج : أيهما أعلم : المبرد أم ثعلب ؟ فقال :

ما أقول فى رجلين العالم بينهما ؟

وتحدث أبو العباس محمد بن عبد الله بن طاهر قائلا :

قال أبى : حضرت مجلس أخى محمد بن عبيد الله بن طاهر ، وحضره أبو العباس احمد بن يحيى ثعلب ، وأبو العباس محمد بن يزيد المبرد • فقال لى أخى : قد حضر هذان الشيخان وانى أود أن أعرف أيهما أعلم ، فاجلس فى الدار الفـــلانية واجمع بينهما ، واسمع كلامهما • قال : ففعلت ذلك ، وتناظرا ، ثم عدت الى أخى فسألنى عن أمريهما فقلت : لما شرعا فى النظر شاركتهما فى فهم ماقالا ، ثم دقا فلم أفهم من كلامهما الدقيق شيئا ، وما يعلم أيهما أفضل الا من هو أعلم منهما •

فقال أخى : انصافك أدق من كلامهما •

وحين عدا الموت على المبرد ، وانطوت صفحة وجوده حزن ثعلب لموته ، وتألم لخلو بغـــداد من مثله • وقد عبر عن ذلك الشـــاعر ابو بكر بن العلاف اذ قال :

ذهب المبرد ، وانقضــت أيامه   وليـــذهبن مـــع المبرد ثعلب
بيت من الآداب أضحى نصـــفه   خربا ، وباقى البيت منه سيخرب
فابكوا لما سلب الزمان ، ووطنوا   للدهر أنفســكم على ما يســـلب
ذهب المبرد حيث لا ترجـونه   أبدا ، ومن ترجـــونه فمغيب
فتزودوا من ثعلب فبكأس مـــا   شرب المبرد عن قـــريب يشرب
واستحلبوا ألفـــاظه فكأنـــكم   بسريره ، وعليـــه جمع محلب
وأرى لكم أن تكتبوا أنفاســـه   ان كانت الأنفـــاس مما يكتب
فليـــلحقن بمن مضى متخلف   من بعـــده ، وليذهبن ونذهب

وكثيرون ينسبون هذه الأبيات الى ثعلب نفسه ، وسواء أكان هذا أم ذاك فهى زفرة محزون على علم طواه الموت ، وطوى من بعده ثعلبا ٠

أجل ، طوى الموت هذين العالمين الكبيرين ، وبقيت آثارهما العلمية والأدبية منارة هدى لمن جاء من بعدهما ، وبقيت ذكرى خصومتهما وتنافرهما لتكون عبرة أى عبرة ٠

بقيت ذكرى هذه الخصومة تشير الى الذين يسعون بالفساد بين الناس ، وتحذر من الذين لا يكادون يجدون بادرة نفرة حتى يبذلوا أقصى جهودهم لتعميق الخلاف وتوسيع هوته ٠

ولا تكون الحياة فى يوم من الأيام شرا مطلقا ولا خيرا مطلقا ، فالى جانب المتحاملين كان يوجد منصفون لا يتحرجون من قولة صدق ، أو اصدار حكم عادل ، فقد سئل أبو على الدينورى ختن ثعلب ، سأله اسماعيل بن اسحق المصعبى : كيف صار محمد بن يزيد أعلم بكتاب سيبويه من أحمد بن يحيى ؟ فقال لأن محمد بن يزيد قرأه على العلماء وأحمد بن يحيى قرأه على نفسه ٠

وهناك صفة جمعت بين المبرد وثعلب ، وذلك أن كلا منهما كان حريصا على المال بخيلا به ٠ وقد وصف المبرد بأنه كان ممسكا بخيلا ، يقول : ماوزنت شيئا بالدرهم الا ورجح الدرهم فى نفسى ٠٠ هذا مع السعة التى كان فيها ، وكان على ماقيل مقتصدا فى ملبسه ومأكله ، وقد فهمنا من قصة ابنه مع سلة الحلوى حين اشتغل هو بالحديث مع أبناء الملوك الذين كانوا يزورونه مايدل على أنه كان حريصا ممسكا فى البيت والا ما اغتنم ابنه مثل هذه الفرصة ليأكل ما أعد للضيوف ، أما الملبس فطالما سمع وهو ينشد :

يامن تلبس أثوابا يتيه بها ... تيه الملوك على بعض المساكين
ما غير الجل أخلاق الحمير ولا ... نقش البراذع أخلاق البراذين

وكان ثعلب أشد منه بخلا وحرصا على المال ٠

وقد روى الزبيدى أن أبا بكر بن عبد الملك قال : لولا انى أكره أن أكون عيابا للعلماء خاصة لأخبرتك عن المبرد وثعلب فى بخلهما من الأخبار التى تزيد على أخبار محمد بن الجهم البرمكى ، والكندى ، وخالد بن صفوان (تلك الشخصيات التى تناولها الجاحظ بالتحليل اللاذع فى كتابه « البخلاء ») ٠

وقيل فى وصفهما أيضا : ان المبرد كان يصرح بالطلب ، واما ثعلب فكان يلمح وكان من آثار تنافسهما فى تلاميذهما عدة مؤلفات منها :

ما ألفه ابن درستويه ، وما ألفه الزجاج فى الرد على ثعلب ٠

وما ألفه أحمد بن فارس وأبوبكر بن الأنبارى فى الانتصار لثعلب ٠

آراء المبرِّد في العلماء والأدباء

جاء فى « نزهة الألبا » أن المبرد قال :

كان أبو زيد صاحب لغة وغريب ونحو ، وكان أكثر من الأصمعى فى النحو ، وكان أبو عبيدة أعلم من أبى زيد والأصمعى بالانساب والأيام والأخبار . وكان للأصمعى يد غراء فى اللغة لا يعرف فيها مثله ، ولا يعرف مثله أيضا فى كثرة الرواية .

وأنه قال أيضا :

كان أبو زيد عالما بالنحو ، ولم يكن مثل الخليل وسيبويه ، وكان يونس من أنداد أبى زيد فى العلم واللغات ، الا أن يونس كان أعلم بالنحو من أبى زيد .

وروى عنه أنه قال :

ما رأيت أحدا أعلم بالشعر من أبى محمد التوزى . كان أعلم به من الرياشى والمازنى ، وكان أكثر من أبى عبيدة معمر بن المثنى . قال : وقد سأل التوزى عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير عن قول الفرزدق :

ومنا غداة الروح فتيان غارة ... اذا متعت بعد الأكف الأشاجع

فلم يجب . ثم قال المبرد : متعت معنـــاها احمرت من الدم ، ومنه قولهم : نبيذ ماتع أى شديد الحمرة .

وقال جلال الدين السيوطى فى « المزهر » :

أخذ عن سيبويه وعن الأخفش رجل يعرف باسم الناشىء ، وقد وضع كتابا فى النحو لم يتمه وقد قال عنه المبرد : لو خرج علم الناشىء الى الناس لما تقدمه أحد .

وروى الشريشى فى شرح مقامات الحريرى أن المبرد قال : كان الشافعى رضى الله عنه أشعر الناس ، وآدب الناس ، وأعلمهم بالفقه والقراءات . ولقد أخبرنى بعض أصحابى أنه قد مات ولد لعبد الرحمن بن مهدى فكتب اليه الشافعى رضى الله عنه :

« يا أخى ، عز نفسك بما تعزى به غيرك ، واستقبح من فعلك ما تستقبحه من غيرك ، واعلم أن أمض المصائب فقـــد سرور ، وحرمان من أجر ، فكيف اذا اجتمعا مع اكتساب وزر ؟ فتناول حظك يا أخى اذا قرب منك قبـــل أن تطلبه وقد نأى عنك . ألهمك الله عند المصائب صبرا ، وأحرز لنا ولك بالصبر أجـــرا .

انى أعــزيك لا أنى على ثقـــة
من الحيـــاة ولكن ســـنة الدين

فما المعزى ببـــاق بعــد ميتـــه
ولا المعـزى ، وان عاشـــا الى حين

وفى كتاب « المضاف والمنسوب » للثعالبى أن المبرد قال :

ما رايت للبغداديين كتابا أحسن من كتاب ابن السكيت فى المنطق . وابن السكيت من أئمة اللغـــة ، وكان يؤدب أولاد

المتوكل . قال أحمد بن أبى عبيدة : شاورنى ابن السكيت فى منادمة المتوكل فنهيته ولكنه حمل ذلك على أنه حسد منى له ، وأجاب الى ما دعى له من المنادمة . وكان يرى تقديم على بن أبى طالب . وحدث أن كان فى أحد الأيام ينادم المتوكل فحضر المعتز والمؤيد ابنا المتوكل ، فقال لابن السكيت : أيهما أحب اليك : ابناى هذان أم الحسن والحسين ؟ فغض ابن السكيت من ابنيه، وذكر الحسن والحسين بما هما أهله ، فغضب المتوكل وأمر الاتراك فداسوا بطنه ، ثم حمل الى داره حيث مات صبيحة اليوم التالى .

وجاء فى « زهر الآداب » أن المبرد قال :

كانت الخنساء وليلى الأخيلية متقدمتين لأكثر الفحول ، وقلما رأيت امرأة تتقدم فى صناعة وان قل ذلك فالجملة ما قال الله تعالى : « أومن ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين » .

ثم قال : ومن أحسن المراثى ما خلط فيه بين مدح وتفجع على المرثى ، فاذا وقع ذلك بكلام صحيح ، ولهجة معربة ، ونظم غير متفاوت فهو الغاية من كلام المخلوقين . وضرب مثلا للرثاء الكامل قول الخنساء ترثى اخاها صخرا :

ولولا كثرة الباكين حولى ... على اخوانهم لقتلت نفسى
وما يبكون مثل أخى ، ولكن ... أعزى النفس عنه بالتأسى
يذكرنى طلوع الشمس صخرا ... وأذكره لكل غروب شمس

وقال : انها تذكره أول النهار للغارة ، وآخره للأضياف .

وقيل ان أحمد بن المعذل كان غاية فى اللغة والأدب والبيان، وكان أخوه عبد الصمد بن المعذل شاعر البصرة ، وكان كثير الهجاء للناس ولأخيه أحمد ، حتى لقد كان أخوه يقول له :

« أنت كالأصبع الزائدة ان تركت شانت ، وإن قطعت آلمت »
وعبد الصمد هذا هو الذى تنسب اليه الأبيات التى قيلت فى قبيلة ثمالة والتى نسبها بعض الناس الى المبرد نفسه وقد تحدث المبرد عن عبد الصمد وأخيه أحمد فقال :

كان أحمد بن المعذل من الأبهة والتمسك بالمنهج ، والتجنب للعبث وترك التعرض لما فى أيدى الناس زهدا فيه على غاية . وقد حمل فقها وأدبا من أهل البصرة فأخذ الصلة غير متمنع ولا منكر . ووصله اسحاق بن ابراهيم فقبل الصلة واستدعى أخاه عبد الصمد فأبى بل قال فيه :

عذيرى من أخ قد كان يبدى ... على من لابس السلطان عتبه
وكان يذمهم ، فى كل يوم ... له بالجهل والهذيان خطبه
فلما أن أتته دريهمات ... من السلطان باع بهن ربه

وقال المبرد فى شعر أبى العتاهية :

كان يخرج القول منه كمخرج النفس قوة وسهولة واقتدارا . وكان المبرد يعظم كتاب سيبويه أيما تعظيم ، ولهذا كان يقول لكل من يريد أن يقرأه عليه : هل ركبت البحر ؟ تعظيما لهذا الكتاب غير أن تعظيمه له لم يمنعه من نقده فى كتاب سماه « نقد كتاب سيبويه » ورد عليه ابن ولاد فى كتاب سماه « الانتصار » .

وجاء فى « ذيل زهر الآداب » أن المبرد وصف أبا شراعة الشاعر فقال :

كان أبو شراعة حليما ، مألوفا ، جميل الخلق ، كريم العشرة . وكان يقول من الشعر ما يجانب به مذاهب المحدثين ، ويقترف طريق الماضين وأهل البادية . فشعره عربى محض .

وجاء فى الذيل أيضا أن المبرد حدث أن أستاذه أبا عمر الجرمى قال له : قرأت ديوان الهذليين على الأصمعى ، وكان أحفظ له من أبى عبيدة . وأنه كان يقول فى قوله تعالى : « ولا تقف ما ليس لك به علم » أى لا تقل سمعت وأنت لم تسمع ، ولا رأيت ولم تر ، ولا علمت ولم تعلم « ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » .

وجاء فى كتاب « طبقات النحاة واللغويين » لابن شهبة الأسدى أن المبرد قال عن اسماعيل بن اسحاق بن اسماعيل ابن حماد مؤلف كتاب أحكام القرآن : أنه أعلم منى بالتصريف .

بعض اراء المبرّد في النقد واللغة والنحو

في ثنايا كتب السلف آراء للمبرد يفهم منها مستقصيها ما كان يتمتع به المبرد من براعة في النحو واللغة ، ومن ذوق رفيع في النقد الأدبي البناء ، هذا فوق كتبه العديدة وما تضمنته من جوانب الفكر والمعرفة ، وان كان لم يصل الينا منها الا القليل مما ذكر المؤرخون له ، مثل ابن النديم وياقوت والانباري ، أنه قد ألفه .

وقد اخترنا من ثنايا الكتب التي راجعناها لدراسة حياته وأدبه طائفة من الآراء هي التي نعرض لها هنا :

ـ قال ابن هشام في « مغني اللبيب » :

« اذن » الناصبة للمضارع تبدل نونها ألفا عند الوقف عليها تشبيها لها بتنوين الاسم المنصوب . أما المازني والمبرد فقد قالا : يوقف عليها بالنون لأنها مثل نون أن ولن ثم قال ابن هشام : والجمهور يكتبونها بالألف ، وكذا رسمت في المصاحف ، ولكن المازني والمبرد يكتبانها بالنون . أما الفراء فقال : ان عملت

كتبت بالألف ، والا كتبت بالنون للتفريق بينها وبين اذا (يعنى الظرفية والفجائية) .

ـ عند التعرض فى شرح المعلقات لقول زهير فى الحرب :

فتنتج لكم غلمان أشأم ، كلهم كأحمر عاد ، ثم ترضع فتفطم

قال التبريزى : ان الأعلم الشنتمرى يرى أن الشاعر أخطأ ، وكان الصواب أن يقول كأحمر ثمود . وقال آخرون لم يغلط الشاعر ولكنه جعل عادا مكان ثمود اتساعا ومجازا . وقال ثعلب فى شرح شعر زهير : أراد بأحمر عاد أحمر ثمود ، وهو عاقر الناقة قدار بن سالف .

أما أبو العباس المبرد فقد قال : هذا ليس بغلط لأن ثمود يقال لها عاد الآخرة ، ويقال لقوم هود عاد الأولى ، والدليل على هذا قول الله تعالى فى قوم ثمود : « وأنه أهلك عادا الأولى » .

ـ وروى السيد المرتضى فى أماليه أن المبرد قال :

مما يفضل لتخلصه من التكلف ، وسلامته من التزيد ، وبعده عن الاستعانة قول أبى حية النميرى :

رمتنى وستر الله بينى وبينها عشية آرام الكناس رميم
ألا رب يوم لو رمتنى رميتها ولكن عهدى بالنضال قديم

ثم قال : ان الشاعر يقول : أصابتنى بمحاسنها ، ولو كنت شابا لرميت كما رمت ، وقتلت كما قتلت ، ولكن عهدى قد تطاول بالشباب . وهذا كلام واضح . ثم فسر الاستعانة فقال معناها أن يدخل فى الكلام ما لا حاجة بالمستمع اليه ليصحح وزنا أو يقيم نظما .

وعقب المرتضى على ذلك بأن البيتين اللذين نسبهما المبرد الى أبى حية هما لنصيب .

ـ ومن قواعد النقد التى وضعها قوله : « من أحسن المراثى ما خلط فيه بين مدح وتفجع على المرثى ، فاذا وقع ذلك بكلام صحيح ، واهجة معربة ، ونظم غير متفاوت فهو الغاية من كلام المخلوقين » .

ـ روى الشريشى أن حسن التقسيم ذكر فى مجلس المبرد فقال : لم أسمع أحسن تقسيما مما ورد لقيس بن ذريح اذ قال :

وقد كان فيها للأمانة موضع والكف مرتاد ، وللعين مرتع

ثم قال : ان حسن التقسيم أن يستقصى الشاعر تفصيل ما بدأ به فيستوعبه فلا يغادر قسما يقتضيه الا أورده .

ـ من أقوال المبرد فى « الكامل » :

« ليس بقدم العهد يفضل القائل ، ولا لحدثان الدهر يهضم المصيب ، ولكن يعطى كل ما يستحقه » .

وقد روى الشريشى عنه هذا ثم قال : ان هذا الذى قاله المبرد رأى جيد وهو الحق .

ـ وقال الامام الموصلى فى كتابه « المثل السائر » :

يحكى أن المبرد قال :

« ليس أحد فى زمانى : الا وهو يسألنى عن مشكل فى معانى القرآن ، أو مشكل من معانى الحديث ، أو غير ذلك من مشكلات علم العربية . فأنا بهذا امام الناس فى زمانى . ولكن اذا عرضت لى حاجة الى بعض اخوانى وأردت أن أكتب اليه شيئا فى أمرها أحجم ، لأنى أرتب المعنى فى نفسى ثم احاول أن أصوغه بألفاظ مرضية فلا أستطيع » .

وقال الموصلى تعقيبا على ذلك :

« ان المبرد بهذا يفرق بين العلم والكتابة ، ويشير الى أن الانسان قد يقع له المعنى الشريف ، ويعجز عن اختيار الألفاظ الملائمة لشرف هذا المعنى » .

ـ وقال الآمدى فى كتاب «الموازنة بين أبى تمام والبحترى» ان المبرد أنشد للعتبى قوله :

أضحت بخدى للدموع رسوم … أسفا عليك ، وفى الفؤاد كلوم
والصبر يحسن فى المواطن كلها … الا عليك فانه مذموم

ثم قال ان أبا تمام أخذ هذا المعنى فقال فى رثاء ادريس ابن بدر الشامى :

دموع أجابت داعى الحزن همع
توصل منا عن قلوب تقطع
وقد كان يدعى لابس الصبر حازما
فأصبح يدعى حازما حين يجزع

ثم قال ان أبا تمام عاد فجاء بهذا المعنى فى موضع آخر اذ قال :

الصبر أجمل غير أن تلذذى
فى الحب أحرى أن يكون جميلا

ـ وجاء فى « صبح الأعشى » للقلقشندى أن الجرجانى حكى ان الكندى المتفلسف ركب الى أبى العباس المبرد وقال له : انى أجد فى كلام العرب حشوا . قال المبرد : فى أى موضع ؟ قال الكندى : يقولون مثلا : عبد الله قائم ، ويقولون : ان

عبد الله قائم ، ويقولون : ان عبد الله لقائم . فالالفاظ متكررة والمعنى واحد .

فقال أبو العباس المبرد : لا ، ليس المعنى واحـــدا ، بل المعانى مختلفة لاختلاف الألفاظ . فقولهم : عبد الله قائم اخبـــار عن قيامه ، وقولهم : ان عبد الله قائم جواب على سؤال (أى اجابة عن شك فى قيامه) ، وقولهم : ان عبد الله لقائم جواب على انكار منكر لقيامه .

ــ وفى « أمالى الزجاج » أن نفطويه روى أن ابن الأعرابى قال : ان الصبر من معانيه الاجتراء على الشىء ، ومنـــه قوله تعالى : « فما أصبرهم على النـــار » قال نفطويه ولكن المبرد قال : ان تأويله : ما الشىء الذى دعاهم الى الصبر عليها ؟ .

وفحـوى ذلك أن ابن الاعـــرابى يرى أن « ما » تعجبية ولهذا ذهب الى أن الصبر بمعنى الاجتراء ، أما المبرد فيرى أن « ما » استفهامية فيكون الصبر فى معناه المتعارف عليه وهو الاحتمـــال .

ــ حدث محمد بن عبد الله الكاتب قال : كنت عند المبرد يوما فأنشدنا :

جسمى معى غير أن الروح عندكم
فالجسم فى غربة ، والروح فى وطن

فليعجب النـــاس منى أن لى بدنا
لا روح فيـــه ، ولى روح بلا بدن

ثم قال : ما أظن أن الشعراء قالوا أحسن من هـــذا . قلت : ولا قول الآخر ؟ قال : هيه . قلت : الذى يقول :

فارقتم وحييت بعدكم ما هكذا كان الذى يجب
فالآن ألقى الناس معتذرا من أن أعيش وأنتم غيب

قال : ولا هذا . قلت : ولا قول خالد الكاتب :

روحان لى : روح تضمنها بلد ، وأخرى حازها بلد
وأظن غائبتى كشاهدتى بمكانها تجد الذى أجد

قال : ولا هذا . قلت : أنت اذا هويت شيئا ملت اليه . ولم تعدل الى غيره ، قال : لا ، ولكنه الحق . فأتيت ثعلبا فأخبرته فقال ثعلب : ألا أنشدته ؟

غابوا فصار الجسم من بعدهم ما تنظر العين له فيا
بأى وجه أتلقاهم اذا رأونى بعدهم حيا
يا خجلتى منهم ، ومن قولهم ما ضرك الفقد لنا شيا

قال : ورأيت ابراهيم الحربى فأخبرته فقال : ألا أنشدته ؟

يا حيائى ممن أحب اذا ما قلت بعد الفراق انى حييت
لو صدقت الهوى حبيبا على الصحة لما نأى لكنت أموت

قال : فرجعت الى المبرد فقال : أستغفر الله ، الا هذين البيتين يعنى بيتى ابراهيم .

– وقرأ الدكتور زكى مبارك قول الرواة ان المبرد كان يستجيد هذين البيتين :

ولى كبد مقروحة من يبيعنى بها كبدا ليست بذات قروح
أباها على الناس لا يشترونها ومن يشترى ذا علة بصحيح؟

فقال اننى ما زلت بعد ذلك أرددهما ، وأتغنى بهما .

ـوروى الزبيدى أن أبابكر بن عبد الملك قال : قال جدى سمعت محمد بن يزيد المبرد بقول : النعم : الابل خاصـــة ٠ وان كان معها بقر أو شاء أو كلاهما قيل لجميع ذلك نعم لاتصـــاله بالنعم . فان أفردت الشاة أو البقر لم يقل لشىء منها نعم ٠ وأنشد للأخطل ما يؤيد قوله :

فيوم منك خـــير من أناس كثير عنـــدهم نعم وشـــاء

قال : ونظير ذلك كلمة قوم ، انما يقال ذلك للرجال ، فان كان معهم نساء قلت قوم ، وان انفردن لم يقـــل لهن قوم ٠ قال الله عز وجل : « لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن » وأنشـــد لزهـــير :

ومـــا أدرى ولست أخـــال أدرى
أقـــوم آل حصـــن أم نســـاء

وذكر التاريخى أنه سمع ذلك فاستحسنه ، وأن أبا محمد المغربى حضر فاستحسن الشرح ، وقبل رأس المبرد (تعظيما له).

وقال أبو بكر بن يحيى المنجم : سئل أبو اسحاق الزجاج فى مجلس العباس بن الحسن عن ذلك فقال كما قال المبرد . فقال يحيى بن على : يقال ذلك للرجال والنساء ، واحتج بقول الله عز وجل « كذبت قوم نوح المرسلين » وقال : كذبت النساء والرجال فقال الزجاج : لعل زهير بن أبى سلمى أخطأ ، وأنشد البيت ، فضحك كل من فى المجلس وضحك معهم العبـــاس ٠ فقال يحيى :احتججت بالقرآن فلم يقبل منى ، واحتج خصـــمى بقول زهير فقبل قوله . فقال الزجاج : فى القرآن شاهد أبين من شاهدى ٠ فقال : وما هو ؟ فقال : « لا يسخر قوم من قـــوم

عسى أن يكونوا خيرا منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن » فقال يحيى : نعم .

ـ ومن المأثور عنه قوله فى وصف كلام العرب :

« من كلام العرب الاختصار المفهم ، والاطناب المفخم . وقد يقع الايماء الى الشيء فيغنى عند ذوى الألباب عن كشفه فهو كما قيل لمحة دالة » . ثم قال : ومن ألفاظ العرب البينة القريبة المفهمة الحسنة الوصف ، الجميلة الرصف ، قول الحطيئة :

وذاك فتى ان تأته فى صنيعة ... الى ماله لم تأته بشفيع

وقول عنترة :

يخبرك من شهد الوقيعة أننى ... أغشى الوغى ، وأعف عند المغنم

ـ قال المرزبانى فى كتابه « الموشح » : حدثنى عبد الله بن أحمد أن المبرد روى قول الأعشى :

وتبرد برد رداء العروس ... فى الصيف رقرقت فيه العبيرا
وتسخن ليلة لا يستطيع ... نباحا بها الكلب الا هريرا

ثم قال : هذا كلام مقبول ومستحسن الا انه أتى به فى بيتين وطول الخطاب ، وأجود منه قول طرفة بن العيد :

تطرد البرد بحر ساخن ... وعكيك القيظ ان جاء بقر

فقول طرفة أجمع وأخصر .

وروى المرزبانى أيضا أن ابراهيم بن محمد بن عرفة النحوى أخبره أن محمد بن يزيد المبرد قال : أخطأ محمد بن يسير فى قوله :

وذلك لأن القنوع انما هو السؤال ، والقانع هو السائل ، ومنه قول الله تبارك وتعالى « فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر » . فالمعتر هو الذى يتعرض للسؤال ولا يسأل (أى كأنه يراه عارا يتحرج منه) ، والقانع هو الذى يسأل . يقال : قنع يقنع (بفتح النون فيهما) قنوعا اذا سأل فهو قانع لا غير ، واذا رضى قيل قنع (بكسر النون) يقنع (بفتح النون) قناعة فهو قنع وقانع جميعا .

ـ وقال الحريرى فى « درة الغواص » :

« يقولون : « ادخل باللص السجن » فيغلطون فيه ، والصواب أن يقال : أدخل اللص السجن ، أو دخل به . لأن الفعل يعدى تارة بهمزة النقل كقولك خرج واخرجته ، وتارة بالباء كقولك خرج وخرجت به . فأما الجمع بينهما فممتنع فى الكلام ، كما لا يجمع بين حرفى استفهام » .

ثم قال الحريرى بعد ذلك : وقد اختلف النحويون هل بين حرفى التعدية فرق أم لا ؟ وقال الأكثرون أنهما بمعنى واحد . ولكن المبرد قال : بل بينهما فرق ، وهو أنك اذا قلت : أخرجت زيدا كان بمعنى أنك حملته على الخروج ، واذا قلت : خرجت به كان بمعنى انك خرجت واستصحبته معك . ووافق المبرد على هذا جماعة منهم السهيلى .

ـ الكوفيون يجيزون العطف على الضمير المجرور بدون تكرير حرف الجر ، أما البصريون فيرون أن شرط جوازه تكرير حرف الجر ، فيقولون : مررت بك وبزيد ، ولهذا لحنوا حمزة فى قراءة « واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام » (بجر

كلمة الأرحام عطفا على الضمير فى به) والمبرد ينكر عليه هذا حتى لقد قال : لو أنى صليت خلف امام فقرأ بها لقطعت صلاتى .

ـ وقال الحريرى : من أوهام الخواص قولهم : تبريت من فلان بمعنى برئت منه فيخطئون فيه لأن معنى تبريت تعرضت . أما ما هو بمعنى البراءة فيقال تبرأت كما جاء فى التنزيل « تبرأنا اليك » .

ويقول الشهاب الخفاجى فى شرح درة الغواص : ان المبرد قال فى « المقتضب » : اعلم أن قوما من النحويين يرون ابدال الهمزة من غير علة جائزا ، فيجيزون : قريت واجتريت فى معنى قرأت واجترأت ، وهذا القول لا وجه له عند أحد ممن تصح معرفته ، فلا رسم له عند العرب . ثم يقول الشهاب الخفاجى : الذى أنكره المبرد ذكره بعضهم على أنه لغة لبعض العرب .

ـ وقال الحريرى : ان النحاة والمفسرين قد اختلفوا فى قوله تعالى « والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء » والاختلاف يدور حول اضافة قروء وهو جمع الكثرة الى ثلاثة فى حين كان الأولى أن يقال : ثلاثة أقراء .

وقال الشهاب الخفاجى ، فى هذه الآية أربعة أوجه :

الأول : أنه لما جمع المطلقات جمع القروء لأن كل مطلقة تتربص ثلاثة أقراء فصارت كثرة بهذا الاعتبار .

الثانى : أنه من باب الاتساع ، ووضع أحد الجمعين موضع الآخر .

الثالث : أن قروء جمع قرء (بفتح القاف) فلو جاء على أقراء لجاء على غير قياس لأن وزن أفعال لا يطرد فى وزن فعل بفتح الفاء .

الرابع : وهو مذهب المبرد ، أن التقدير ثلاثة من قروء فحذف من (الدالة على التبعيض) ٠

ـ روى المرزبانى فى كتاب « الموشح » أن الأخفش قال : أخبرنى المبرد أن سليمان بن عبد الله بن طاهر أنشده لنفسه قوله :

... ... وقد مضت لى عشرونان ثنتان

قال المبرد فقلت له : أيها الأمير هذا لحن لأن اعرابا لا يدخل على اعراب ٠ نقول : والذى يعنيه المبرد أن كلمة « عشرون » ملحق بجمع المذكر فيرفع بالواو ، وعند تثنيته يرفع بالألف فيجتمع فى كلمة واحدة اعرابان ، وهذا لا يجوز ٠

ـ وروى الثعالبى فى كتابه « ثمار القلوب » أن المبرد فسر مزامير داود بأنها ألحانهم ٠

ومن الشواهد التى أوردها كتاب الضرائر للألوسى فى باب وضع الكلام فى غير موضعه قول مرار الفقعسى :

صددت فأطولت الصدود وقلما وصال على طول الصدود يطول

وموضع الخلاف وقوع الاسم بعد قلما ، وفيه أقوال لخصها ابن هشام فى « المغنى » ومجمل تلخيصه : أن سيبويه قال : ضرورة ، ووجه الضرورة أن حقها أن يليها الفعل صريحا ، والشاعر أولاها فعلا مقدرا ، فكلمة وصال مرفوعة بفعل محذوف تقديره يطول مفسر بالمذكور وقيل وجه الضرورة أنه قدم الفاعل ، ورد ابن السيد بأن البصريين لا يجيزون تقدم الفاعل فى شعر أو نثر ٠ أما المبرد فانه قال : وصال فاعل قل المتصلة بما ، وما زائدة ٠ واختار أبو على الفارسى مذهب المبرد وأيده لأنه ـ كما يبدو لنا ـ واضح ، وبعيد عن تكلف التأويل وتلمس الأسباب ٠

ـ ومن شواهد « الكافية » التى شرحها عبد القادر البغدادى فى « خزانة الأدب » قول الشاعر :

أبالموت الذى لابـــد أنى مــلاق ـ لا أباك ـ تخـــوفينى

قال أبو على الفـــارسى : تخـــوفينى أراد تخوفينني فحذف احدى النونين . ووضح المبرد قول أبى على وفصله فقال : حذف النون الثانية وهذا أولى ، لأن هذه النون زيدت مع ياء المخاطبـة لتقى الفعل من الكسرة ، أما الاولى فهى علامة الرفع .

ومن شواهد « الكافية » أيضا :

مشائيم ، ليسوا مصلحين عشيرة ولا ناعبا الا ببين غرابهـــــا

قال سيبويه : يجوز نصب ناعبـــا بالعطف على مصلحين المنصوبة (لأنها خبر ليس) ويجوز الجر بالعطف على مصلحين بعد توهم الباء الزائدة فى خبر ليس ، والتقـــدير ليسوا بمصلحين ولا ناعب .

وقال المبرد : لا يجوز الا النصـــب ، وأما حرف الجر فانه لا يضمر ، وقد سبق أنه أعلن تبرمه بالتوهم ، ووازن عبد القادر البغدادى بين الرأيين فأيد رأى المبرد ، وقال : قـــد بين سيبويه ضعفه وبعده ، مع أخذه من العرب .

ـ أجاز المبرد أن تعمل ان النـــافية عمل ليس ، واستشهد بقول الشاعر :

ان هو مستـــوليا على أحد الا على أضـــعف المجانين

واعتبر الضمير (هو) اسم ان العاملة عمل ليس ، ومستوليا خبرها ، ووافقه الكسائى أما سيبويه والفراء فقد قالا يرفع خبرها لأنها لا تعمل كما أن ما التميمية لا تعمل .

وعبد القادر البغدادى يؤيد رأى المبرد والكسائى ، ويقول أنه سمع من أهل العالية (١) « ان أحد خيرا من أحد الابالعافية »

ـ ومن الشواهد التى كثر الجدل حولها قول الشاعر :

طلبوا صلحنا ولات أوان ... فأجبنا أن ليس حين بقاء

يقول المبرد ، ويوافقه السيرافى ، أصله ولات أوان طلبوا ، فلما حذفت الجملة بنى أوان على السكون أو الكسر ، ثم أبدل التنوين من المضاف اليه ٠

وقال الفراء ان لات تستعمل حرف جر لأسماء الزمان خاصة٠

ودار حول هذا نقاش تناوله ابن هشام ، والأخفش ، والزجاج ، وغيرهم وكان الترجيح لرأى المبرد ٠

ـ وروى المرزبانى فى كتابه « الموشح » أن المبرد قال : ان من شعر أبى نواس الذى يذم قوله فى الرشيد :

وأخفت أهل الشرك حتى أنه ... لتخافك النطف التى لم تخلق

فهذا الشعر بادى العوار جدا ٠ ويعنى المبرد أن الشاعر خلع على ممدوحه صفة من الصفات التى تفرد بها الخالق وحده ٠ وهذه مبالغة ممقوتة ٠٠ ثم ان الشاعر عاد فكرر هذا المعنى البغيض فى مكان آخر اذ قال :

هارون ألفنا ائتلاف مودة ... ماتت لها الأحقاد والأضغان
حتى الذى فى الرحم لم يك صورة ... لفؤاده من خوفه خفقان

---

(١) العالية عالية الحجاز وهى أرض واسعة سكنتها قريش ومن والاها من القبائل مثل بنى عامر واسد وغطفان وغيرهم ٠

فهـــو يرى أن الشاعر قـــد أسرف فى المبالغة حتى جعل المستحيل ممكنا اذ جعل للنطفة فى الرحم قلبـــا يحس بالفزع ، ويخفق خوفا من ممدوحه ·

وروى المرزبانى أيضا أن المبرد خطأ أبا العتاهية فى قوله :

ولربمـــا سئل البخيـل الشيء   لا يســـوى فتيـــلا

وقال ان الصواب أن يقول لا يساوى من ساواه يساويه · وأنه عاب على أبى نواس أنه لحن فى قوله :

فمـــا ضرها ألا تـكون لجرول   ولا المزنى كعب ولا لزياد

وذلك أنه خفف ياء النسب فى قوله (المزنى) فى حشـــو الشعر (أى خلال كلمات البيت) وانما يجوز هذا فى القوافى ·

ومن الشواهد الذى أوردها سيبويه فى « الكتاب » :

····   ····   وقد بدا هنك من المئزر

وهذا عجز بيت من أبيات للأقيشر الأسدى وكان قد سكر وعربد فبدت عورته فضحكت منه امرأته فقال :

تقول يا شيخ أما تسـتحى   من شربك الخمر على المـــكبر
فقلت لو باكرت مشـــمولة   صفرا كلون الفرس الأشـــقر
رحت وفى رجليك ما فيهمـــا   وقد بدا هنـــك من المئزر

قال المبرد : انما الرواية : (وقد بدا ذاك من المئزر)

وفى معارضة المبرد لسيبويه فى هذا يقـــول ابن جنى فى كتابه « المحتسب » : انه لا يوافق على اعتراض المبرد ، ويقول : انه اعتراض على العرب الذين روى عنهم سيبويه الذى حكاه كما سمعه ، وحين يقول : « انما الرواية كذا » فكأنه قال لســـيبويه

كذبت على العرب ، ولم تسمع ما حكيتة عنهم ، واذا بلغ الأمر هذا الحد من السرف فقد سقطت كلفة القول معه ٠

نقول وكلمة « هنك » تعنى عورتك ، وهى كناية عن كل ما يقبح ذكره ، أو عن الشيء الذى لا يعرف اسمه ، أو غاب اسمه عن البال ، ولا تزال هذه الكلمة مستعملة بهذا المعنى فى بعض بلاد اقليمى جرجا وقنا من الديار المصرية ٠ فكلمة « ذاك » كما يريدها المبرد اشارة الى العورة التى تعنيها « هنك » فالوزن واحد ، والمعنى واحد فى الحالين ٠

– وقال ابن جنى فى « المحتسب » فى معرض القراءات الشاذة :

حكى أبو العباس محمد بن يزيد عن أبى عثمان عن أبى زيد قال : سمعت عمر بن عبيد يقرأ « فيومئذ لا يسأل عن ذنبه أنس ولا جأن » فظننته قد لحن اذ أظهر همزة « جأن » الى أن سمعت العرب تقول : شأبة ، ومأدة ، ودأبة فى موضع شابة ، ومادة ، ودابة ، وعليه قول كثير :

« ... ... اذا ما العوالى بالعبيط احمأرت »

– وروى المرزبانى أن المبرد قال : عيب على الفرزدق قوله :

يا أخت ناجية بن سامة اننى   أخشى عليك بنى ان طلبوا دمى

وقالوا : ما للمتغزل وذكر الأولاد والاحتجاج بطلب الثارات؟ هلا قال كما قال جرير :

ان العيون التى فى طرفها حور   قتلننا ثم لم يحيين قتلانا ؟

من كل هذا يتجلى أن المبرد كان ذا ذوق رفيع فى الادب ، وكان ضليعا فى اللغة ، متبحرا فى النحو ، خلصت له زعامة طبقته

عن جدارة واستحقاق . وكان فى نقده للشعر لا ينظر الى اللغة فحسب ، ولا الى النحو فحسب ولكنه ينظر اليهما معا ، ولا يغفل جانب المعنى وهذا هو منهج النقد السليم .

وكان جريئا فى نقده لا يتحرج من المجاهرة باظهار العيب فيما يسمع أو يقرأ ، ولو كان هذا الذى يسمعه أو يقرؤه لواحد من فطاحل الشعراء ، أو الادباء ، أو لواحد من شـيوخه ومن يتلقى عنهم فقد نقد سيبويه مع أنه تلقى النحو عن «الكتاب» الذى صنعه سيبويه ، وكان تلاميذه يقرءونه عليه ، بل لقد روى ياقوت أنه نقد أبا عبيدة حين كان يروى عنه ، وذلك أن المبرد حكى أنه كان يوما عند أبى عبيدة فسأله رجل : كيف تقول : عنى بالأمر ؟ قال : هو كما قلت ، عنى بالأمر . فقال الرجل : وكيف آمر منه ؟ قال فغلط أبو عبيدة وقال : اعن بالامر . قال المبرد : فأومأت للرجل أن ليس كما قال . فرآنى أبو عبيدة فأمهلنى قليـلا ، ثم قال : ما تصنع عندى ؟ قلت : ما يصنع غيرى . قال : لست كغيرك . قلت : ولم ؟ قال : لأنى رأيتك مع انسان خوزى سرق منى قطيفة . فانصرفت ، ثـم تحملت عليه باخوانه فلما جئته قال لى : أدب نفسك أولا ، ثم تعلم الأدب .

قال المبرد : وصواب الامر من عنى أن يكون باللام لا يجوز غيرها ، تقـول : ليعن بالامر لأنك تأمر غير من بحضرتك ، وأمر الغائب يكون بالمضارع المجزوم بلام الامر .

هكذا كان المبرد عبقريا لماحا جريئا فى الحق .

ـ قال الأزهرى فى تهذيب اللغة : يقول الله عز وجـل « ارم ذات العماد » وقد سمعت المنذرى يروى عن المبرد أنه قال : رجل طويل العماد اذا كان معمدا أى طويلا ، وقوله تعالى : « ارم ذات العماد » أى ذات الطول .

وروى الازهرى أيضا أن المبرد قال : العتورة : الشدة فى الحرب ، وبنو عتورة سميت بهذا لقوتها ، وعتور اسم واد خشن · ثم قال : وقد جاء على فعول من الاسماء خروع ، وعتور وهو الوادى الخشن التربة ، وبنو عتورة كانوا أولى صبر وخشونة فى الحرب ·

ـ روى صاحب « العقد الفريد » أن المبرد قال :

التمتمة فى المنطق هى التردد فى التاء ، والفأفأة التردد فى الفاء ، والعقلة هى التواء اللسان عند الكلام ، والحبسة تعذر الكلام عند ارادته ، واللفف ادخال حرف فى حرف ، والطمطمة أن يكون الكلام مشبها لكلام العجم ، واللكنة أن تعترض عند الكلام اللغة الأعجمية ، واللثغة أن يعدل بحرف الى حرف (كأن ينطق السين ثاء ، أو الراء غينا) ، والغنة أن يشرب الحرف صوت الخيشوم ، والخنة أشد منها ،والترخيم حذف حرف من الكلام (ومنه سمى المنادى المرخم أى الذى حذف حرفه الأخير) ·

ـ وقال الشريشى :

ذكر معنى تعاوره البحترى وأبو تمام ، والبحترى حاضر ، فقال المبرد للبحترى : أنت فى هذا أشعر من أبى تمام · فقال البحترى : لا والله ذلك الرئيس **الأستاذ** ، والله ما أكلت الخبز الا به ·

ثم روى أن عبد الله بن الحسن سأل المبرد عن أبى تمام والبحترى ، أيهما أشعر فقال :

لأبى تمام استخراجات لطيفة ، ومعان ظريفة ، وجيده أجود من شعر البحترى · وشعر البحترى أحسن استواء من شعره ، لأن البحترى يقول القصيدة كلها فتكون سليمة من طعن طاعن ، وأبو تمام يقول البيت النادر والبارد ، وما أشبهه الا بغائص يخرج

الدرة والمخشلبة وهى زجاجة توضع مكان الدرة . على أن لأبى تمام والبحترى ما لو قيس بأكثر شـــعر الاوائل ما وجدوا فيه مثله . وللبحترى بيتان لو ضما الى شعر زهير لجازا فيه ، وهما :

فما سـفه السفيه وان تعدى بأنجع فيك من حلم الحـليم
متى أحفظت ذا كـرم تخطى اليـك ببعض أفعـال اللئيم

ثم أخذ المبرد فى هذا المجلس يروى من شعره فى مدح ابنى صاعد ، والفتح بن خاقان وقد نزل الى الاسد فقتله ، ويأخذ من هذا الشعر شواهد على أنه مقدم على نظرائه .

من أمالى المبرد ورواياته وفكاهاته

عرف المبرد بعذوبة الحديث ، وطلاقة اللسان ، وسلامة العبارة ، وحسن الفكاهة . ولهذا حرص الولاة والأمراء على استدعائه للمنادمة والمسامرة منذ حداثته . وكان أعرف الناس بأدب المجالسة حتى وصف بأنه « ملوكى المجالسة » ، ويفسر لنا هذا موقفه بين المتوكل والفتح بن خاقان يوم وقع الاختيار عليه ليكون حكما بينهما فى موضوع فتح همزة ان أو كسرها فى قوله تعالى « وما يشعركم انها اذا جاءت لا يؤمنون » وقد أسلفنا قبل كيف أجاب الفتح بن خاقان ، وكيف لم يواجه الخليفة بأنه أخطأ بل قال « أكثر الناس يقرءونها بالفتح » تلميحا الى أن أكثرهم على خطأ ، وعرفنا كيف غضب الفتح أولا ، ثم كيف أدرك أن الشيخ يلتزم جانب اللياقة فى خطاب الخليفة فاحتضنه واصطفاه .

وكان العظماء الذين لا يظفرون به أنيسا ومسامرا يستنصحونه ليختار لهم من يراه يصلح لمنادمتهم ومسامرتهم . وقد روى الأخفش أن ابراهيم بن المدبر استهدى المبرد جليسا يجمع الى تأديب ولده الامتاع والمؤانسة فندبنى لذلك ، وكتب معى : « قد أنفذت اليك فلانا ، وجملة أمره أننى بعثت به وأنا أتمثل فيه قول الشاعر :

اذا زرت الملوك فان حسبى ... شـفيعا عندهم أن يخبرونى

ولما عرف به من الظرف كان ظرفاء الأدباء يبادلونه المفاكهة كلما سنحت فرصة للمفاكهة وقد روى الحصرى فى « ذيل زهر الآداب » أن سدابة المغنى قال لأبى العباس المبرد : صر الى اليوم لنأنس بك . قال : أى شىء آكل عندك ؟ فقال سدابة : أنت وأنا (يريد لحما مبردا عليه سداب وهو نوع من الأفاويه) .

وروى الحصرى كذلك ان برد الخيار لقى المبرد على الجسر فى يوم بارد فقال : أنت المبرد ، وأنا برد الخيار ، واليوم بارد . أعبر بنا سريعا لئلا يصيب الناس الفالج .

وكانت حلاوة فكاهته تغلب عليه حتى فى ساعات حنقه وغضبه ، وقد سبق الاشارة الى قصة سلة الحلوى التى اغتصبها ابنه فتمثل لذلك بقول القائل : الناس فى غفلاتهم ...

وكان معلما بارعا عرف تلاميذه فضله وبراعته منذ قدم بغداد حتى ان الذين ندبهم ثعلب ليفضوا مجلسه قد انحازوا اليه منذ أول لقاء وصار منهم أنبه العلماء شأنا من بعده مثل الزجاج والأخفش وغيرهما . كان يلتزم مع تلاميذه ومع رواد مجلس علمه أسلوبا تربويا هو روح ما وصل اليه فن التربية فى العصر الحديث . كان اذا اراد أن يثبت فى اذهان من حوله بعض المعانى ، أو اذا أراد أن يوجههم وجهة خاصة . أو اذا أحس فيهم مللا ، أو اذا أدرك أن أذهانهم مكدودة عمد الى ذكر نادرة مليحة ، أو قصة فكهة ، أو نكتة بارعة ، أو رواية لطيفة وذلك ليشحذ أذهانهم ، ويعيد اليهم نشاطهم ، ويسترعى انتباههم ويجعلهم قادرين على استيعاب ما يلقى عليهم ، أو يقرعونه من العلم والتحصيل .

من هنا كثرت أماليه ، ورواياته ، وفكاهاته ، وزخرت كتب

الأدب والتاريخ التى تحدثت عنه بكثير منها . وليته كان قد دونها لنا ووصلت الينا كما وصلت مثلا أمالى الزجاج ، وأمالى ابن الشجرى ، وأمالى المرتضى وغيرهم ، أو دونها لنا بعض تلاميذه لتصل الينا كاملة .

وسنعرض هنا ما تتسع له صفحات هذا الكتاب مما عثرنا عليه فى هذا الباب .

كان المبرد يروى لجلسائه بعض ما يستجيده ، ومن ذلك الرواية التالية :

لما وصل المأمون الى بغداد قال ليحيى بن أكثم : وددت لو أنى وجدت رجلا مثل الأصمعى ممن عرف أخبار العرب وأيامها وأشعارها فيصحبنى كما صحب الأصمعى الرشيد . فقال له يحيى : ها هنا شيخ يعرف هذه الأخبار يقال له عتاب بن ورقاء من بنى شيبان قال : فابعث لنا اليه . فلما حضر قال له يحيى : ان أمير المؤمنين يرغب فى حضورك مجلسه ومحادثته . فقال : أنا شيخ كبير ، ولا طاقة لى لأنه قد ذهب منى الأطيبان .

فقال له المأمون : لابد من ذلك .

فقال الشيخ : فاسمع يا أمير المؤمنين ما حضرنى : —

أبعد ستين أصبو والشيب للمرء حرب
شيب ، وسن واثم أمر لعمرك صعب
يابن الامام فهلا أيام عودى رطب
واذ مشيبى قليل ومنهل العيش عذب
فالآن لما رأى بى عواذلى ما أحبوا
آليت أشرب راحا ماحج لله ركب

فقال المأمون : ينبغى أن تكتب هذه الأبيات بالذهب ، وأعفى الشيخ ، وأمر له بجائزة .

ـ روى ياقوت أن المبرد قال : سمعت المازنى يقول : معنى « اذا لم تستح فاصنع ما شئت » أى اذا صنعت مالا تخجل اذا عرف أنك فعلته فاصنع منه ما شئت ، وليس على ما يذهب العوام اليه (والعوام يفسرونه على أنه اذا لم يكن عندك حياء فافعل ما تشاء) ٠

وروى ياقوت أيضا أن المبرد قال : حدثنى المازنى قال : مررت ببنى عقيل فاذا رجل أسود ، قصير ، أعور ، أبرص قائم على تل سماد يملأ جواليق معه من ذلك السماد وهو يغنى بأعلى صوته :

فان تصرمى حبلى ، وتستكرهى وصلى
فمثلك موجود ولن تجدى مثلى

فقلت صدقت والله ، ومتى تجد ويحك مثلك ؟ فقال : بارك الله عليك ، واسمع خيرا ، ثم اندفع ينشد :

يا ربة المطرف والخلخال ما أنت من همى ولا أشغالى
مثلك موجود ٠ ومثلى غالى

ـ جاء فى « نزهة الألباء » أن المبرد قال :

دخل الأصمعى على الرشيد بعد غيبة كانت منه فقال : يا أصمعى ، كيف أنت بعدنا ؟ فقال : مالاقتنى بعدك أرض يا أمير المؤمنين ٠ فتبسم الرشيد ٠ ولما خرج الناس قال : ما معنى قولك مالاقتنى أرض بعدك ؟ فقال : ما استقرت بى أرض فقال : هذا حسن ، ولكن لا ينبغى أن تكلمنى بين يدى الناس الا بما أفهمه ، فاذا خلوت فعلمنى فانه يقبح بالسلطان ألا يكون عالما ٠ أما اذا كلمتنى بمالا أفهمه فلا يخلو اما أن أسكت أو أجيب ، فاذا سكت علم الناس أنى لا أعلم اذ لم أجب ، واذا أجبت بغير الجواب يعلم من حولى أنى لا أفهم ما قلت ٠ قال الأصمعى : فعلمنى الرشيد بذلك أكثر مما علمته ٠

ــ وذكر المبرد أن رجلا كان يألف حلقة الأصمعى ، وكلما صار الى ضيعته أهدى الى الأصمعى مما يحمل منها . وترك الرجل حلقة الأصمعى وألف حلقة أبى زيد ، وكان أبوزيد لا يقبل شيئا ، فمر الرجل يوما بالأصمعى فأنشده الأصمعى من قول الفرزدق :

ولج بك الهجـــران حتى كأنمـــا

ترى الموت فى البيت الذى كنت تألف

وقال ابن خلكان :

كان المبرد كثير الأمالى ، حسن النوادر . فمما أملاه أن أبا جعفر المنصور ولى رجلا على العميان والأيتام والقواعد من النســاء اللاتى لا أزواج لهن . فدخل على هذا المتولى رجل ومعه ولده وقال : ان رأيت ــ أصلحك الله ــ أن تثبت اسمى مع القواعد . فقال له المتولى : القواعد نساء فكيف أثبتك فيهن ؟ قال : ففى العميان ؟ قال . أما هذا فنعم فان الله تعالى يقول : انها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور . قال الرجل : وتثبت ولدى فى الأيتام ؟ فقال : هذا أفعله أيضا فان من يكن أنت أباه فهو يتيم . ثم انصرف عنه وقد أثبته فى العميان وولده فى الأيتام .

وروى القفطى أن المبرد قال :

حضرت مجلس المتوكل وقد عمــل فيه النبيـــذ وبين يديــه أبو عبادة البحترى وهو ينشده قصيدة يمدحه فيها ، وبالقرب من البحترى أبو العنبس الصيمرى ، وكانت القصيدة التى ينشـــدها البحترى هى التى أولها :

من أى ثغـــر تبتســـم   وبأى طـــرف تحتكم

ويمضى فيها حتى يقول :

قل للخليفة جعفـــر بـــ   ـن المتوكل بن المعتصـــم
نلنا الهـــدى بعد العمى   بك ، والغنى بعد العدم

فلما انتهى رجع القهقرى لينصرف ، فوثب أبو العنبس وقال : ياسيدى يا أمير المؤمنين تأمر برده ؟ فرده ، فقال أبو العنبس : قد عارضتك فى قصيدتك ، وكنت بحضرة أمير المؤمنين ، ثم اندفع ينشد قصيدته التى عارض بها قصيدته البحترى وكلها تهكم عليه وهجاء له .

فضحك المتوكل وضرب برجله اليسرى وقال : ادفعوا الى أبى العنبس عشرة آلاف درهم . فقال الفتح بن خاقان : يا سيدى ، والبحترى الذى هجى وأسمع المكروه ينصرف خائبا ؟ فقال : يدفع له عشرة آلاف درهم . فقال الفتح : وهذا البصرى الذى أشخصناه من بلده (يعنى المبرد) لا يشركهما فيما حصلاه ؟ فقال : يدفع له أيضا عشرة آلاف درهم . قال المبرد : فانصرفت ساعة الهزل بثلاثين ألف درهم ، ولم ينفع البحترى جده ولا اجتهاده ولا تقدمه .

ـ وفى الأغانى أن الأخفش حدث أن المبرد قال :

نظر رجل الى يونس النحوى وهو يهادى(١) كبرا بين اثنين ، وكان الرجل يعاديه فقال : يا أبا عبد الرحمن ، أبلغت ما أرى ؟ فعلم يونس أنه قال ذلك شامتا فقال له : هذا الذى كنت أرجو فلا بلغته .

ثم قال المبرد : ان ابن الزيات أخذ هذا المعنى فقال :

وعائب عابنى بشيب لم يعد ، لما ألم ، وقته
فقلت اذ عابنى بشيبى يا عائب الشىء لا بلغته

وفى الأغانى أيضا أن الأخفش قال :

حدث المبرد أنه كان لابن الزيات برذون أشهب لم ير مثله فراهة وحسنا ، فسعى به محمد بن خالد الى المعتصم ، ووصف له

(١) يهادى على البناء للمجهول اى يتمايل بفعل ضعف الشيخوخة .

فراهته . فبعث المعتصم اليه فأخذه منه ، فقال ابن الزيات أبياتا يرثيه فيها ومنها :

كيف العزاء وقد مضى لسبيله — عنا فودعنا الأشم الأشهب
دب الوشاة فأبعدوك ، وربما — بعد الفتى، وهو الأحب الأقرب
لله يوم نأيت عنى ظاعنا — وسلبت قربك، أى علق(١) أسلب
نفس مفرقة أقام فريقها — ومضى لطيته فريق يجنب

ومما جاء فى «الاغانى» كذلك أن المبرد قال :

دارت الأمطار بسرمن رأى فتأخر الحسن بن وهب عند ابن الزيات الذى كان وزيرا والحسن يكتب له ، وأرسل ابن الزيات يستدعى الحسن فأجاب معتذرا :

أوجب العذر فى تراخى اللقاء — ما توالى من هذه الأنواء
لست أدرى ماذا أقول وأشكو — من سماء تعوقنى عن سماء
غير أنى أدعو على تلك بالثكـ — ـل ، وأدعو لهذه بالبقاء
فسلام الله أهديه غضا — لك منى يا سيد الوزراء

وفى «الاغانى» عن الأخفش أن المبرد حدثهم عن الشاعر أبى شراعة فقال :

كان أبو شراعة قبيح الوجه جدا فنظر يوما فى المرآة فأطال ، ثم قال : الحمد لله الذى لا يحمد على الشر غيره .

ثم قال أيضا :

وكان أبو شراعة صديقا لابراهيم بن المدبر أيام تقلده البصرة، وكان ابن المدبر لا يفارقه فى سائر أحواله ، ولا يمنعه حاجة يسأله اياها ، ولا يشفع لأحد الا شفعه . فلما عزل ابراهيم بن المدبر شيعه الناس ، وشيعه أبو شراعة فجعل يرد الناس حتى لم يبق

(١) العلق : النفيس الذى يعلق به القلب .

غيره ، فقـــال له : يا أبا شراعة غاية كل مودع الفراق ، فانصرف راشدا مكلوءا من غير قلى (١) والله ولا ملل · وأمر له بعشرة آلاف درهم ، فعانقه أبو شراعة وبكى فأطال ، ثم أنشد :

يا أبا اســحق سر فى دعــة — وامض مصحوبا فما منك خلف
ليت شــعرى أى أرض أجدبت — فأغيثت بك من جهد العجف(٢)
انمـــا أنت ربيــع باكر — حيثما صرفه الله انصرف

ـ وفى «زهر الآداب» أن المبرد روى قول شاعر لم يسمه فى هجاء رجل يعرف بابن البعير :

يقولون أبنـــاء البعير ومالهم
سنام، ولا فى ذروة المجد غارب(٣)
أظنت سفاها من ســفاهة رأيهـا
بأن أهجهـا لمـــا هجتنى محارب
فلا وأبيهـــا اننى بعشــيرتى
ونفسى عن ذاك المقـــام لراغـــب

وفى «زهر الآداب» أيضـــا أن المبرد روى قول عمر بن أبى ربيعة :

طالمـا غربتم فاســتقلوا — حان من نجم الثريا طلوع

ثم قال : « حان من نجم الثريا طلوع » كناية ، فهو انما يريد الثريا بنت على بن عبد الله ، وكانت موصوفة بالجمال ، وتزوجها سهيل بن عبد الرحمن بن عوف الزهرى وانتقل بها الى مصر ، وفى ذلك يقول عمر ، وقد ضرب لهما المثل بالنجمين :

(١) قلى : هجر
(٢) العجف : الجدب
(٣) غارب : هو مابين الظهر او السنام والعنق .

أيها المنكح الثريا سهيلا حسبك الله كيف يلتقيان ؟
هى شامية اذا ما استقلت وسهيل اذا استقل يمانى

— وروى الأصفهانى أن أحمد بن عبد الله بن عمار حدثه فقال:

كنا يوما عند المبرد وعنده فتى من ولد أبى البخترى (الشاعر العالم الذى كان يتولى القضاء بعسكر الخليفة المهدى) ، وفتى من ولد أبى دلف العجلى (المشهور بالشجاعة والكرم) فقال المبرد لابن أبى البخترى : أعرف لجدك قصة ظريفة فى الكرم ، حسنة لم يسبق اليها ، فقال الفتى : وما هى ؟ قال المبرد : دعى رجل من أهل الأدب الى بعض المواضع فسقوه نبيذا غير الذى كانوا يشربون منه ، فقال فيهم :

نبيذان فى مجلس واحد لايثار مثر على مقتر !
فلو كان فعلك ذا فى الطعا م لزمت قياسك فى المسكر
ولو كنت تطلب شأو الكرا م صنعت صنيع أبى البخترى
تتبع اخوانه فى البلا د فأغنى المقل عن المكثر

فلما بلغت الأبيات أبا البخترى بعث اليه بثلثمائة دينار .

قال ابن عمار : فقلت للمبرد قد فعل جد هذا الفتى (يعنى ولد أبى دلف) فى مثل هذا المعنى ما هو أحسن من هذا . قال : وما فعل ؟ قلت : بلغه أن رجلا افتقر بعد ثروة فقالت له امرأته : افترض فى الجيش(١) . فقال :

اليك عنى فقد كلفتنى شططا
حمل السلاح، وقول الدارعين(٢) قف

(١) انضم الى صفوف الجيش فيفرض لك عطاء
(٢) الدارعين : اللابسين دروعا

أمن رجال المنايا خلتنى رجــلا
أمسى وأصبح مشتاقا الى التلف

تمشى المنايا الى غيرى فأكرهها
فكيف أمشى اليهــا بارز الكتف

حســبت أن نزال القرن (١) من خلقى
أو أن قلبـــى فى جنبى أبى دلـــف

وحين بلغت الابيات أبا دلف أحضره ، ثم قال له : كم أملت امرأتك أن يكون رزقك ؟ قال : مائة دينار · قال : وكم أملت أن تعيش ؟ قال : عشرين عاما . قال : فلك ما أملت به امرأتك فى مالنا دون مال السلطان ، وأمر باعطائه اياه ·

قال ابن عمــار : فرأيت وجه ولد أبى دلف يتهلل ، وانكسر ابن أبى البخترى · وعلق الحصرى على رواية الأصفهانى فقال : ان الأبيات التى رواها ابن عمار فى أبى دلف ولم ينســبها هى لأحمد ابن أبى العيناء الشاعر المجيد الذى شهر من شعره قوله :

ولمــا أبت عيناى أن تملــكا البكا
وأن تحبسا سح الدموع السواكب

تثاءبت كى لا ينكر الدمع منــكر
ولــكن قليلا ما يفيــد التثاؤب

فقـــد عرضتمانى للهوى ونممتما
على ، لبئس الصاحبان لصــاحب

ولــكن هذا الشعر لا يخلو من عيب فى قافيته ·

---

(١) البطل ·

– ومما استحسنه ابن خلكان ورواه فى « وفيـــات الأعيان » ما رواه المبرد فى « الـكامل » اذ قال :

ان الحجاج الثقفى لمـا ولى تميم بن زيد القينى بلاد السند دخل البصرة فجعل يخرج من أهلها من شاء ، فجـاءت عجوز الى الفرزدق الشاعر فقالت له : انى استجرت بقبر أبيك وأتيت منه بحصيات(١) فقال : ما شأنك ؟ قالت : ان تميم بن زيد خرج بابن لى معه ، ولا قرة لعينى ولا كاسب لى غيره . فقال لها : وما اسم ابنك ؟ قالت : خنيس فكتب الى تميم :

تميم بن زيـد لا تـكونن حاجتى
بظهر فلا(٢) يعيـــا على جوابهـــا
فهب لى خنيسا ، واحتسب فيه منة
لعبرة أم ما يســـوغ شرابهـــا
أتتنى فعـــاذت يا تميم بغـــالب
وبالحفرة السافى عليها ترابهـــا
وقـــد عـــلم الأقوام أنك ماجد
وليث اذا ما الحرب شبت شهابها

فلما ورد الكتاب على تميم تشـكك فى الاســم أهو خنيس أم حبيش فقال : انظروا من له هذا الاسم فى عسكرنا ، فأصيب ستـة ما بين خنيس وحبيش فوجه بهم جميعا اليه .

– وفى « العقد الفريد » وفى غرر الخصائص » أن المبرد قال : خرجنا من بغداد الى واسط فملنا الى دير هرقل ننظر الى المجانين ، فنظرنا الى فتى منهم فملنا اليه ، وسلمنا عليه فلم يرد الســـلام . فقلت له : ما تجد ؟ قال :

---

(١) مفردها حصيئة تصغير حصوة .
(٢) الفلا ، والفلاة : الصحراء ، وبظهر اى مطروحة مهملة .

الله يعلم أننى كمد لا أستطيع أبث ما أجد
روحان لى : روح تضمنها بلد ، وأخرى حازها بلد
وأرى المقيمة ليس ينفعها صبر ، وليس يفوتها جلد
وأظن غائبتى كشاهدتى بمكانها تجد الذى أجد

فقلت : أحسنت • فأومأ الى شيء ليرمينا به فولينا هاربين • فقال : سألتكم بالله ألا رجعتم حتى أنشدكم ، فان أحسنت فقولوا أحسنت ، وان أسأت فقولوا أسأت • فرجعنا فقلنا له : قل • فقال :

لما أناخوا قبيل الصبح عيسهم(١)
ورحلوها وسارت بالدمى(٢) الابل
وقلبت من خلال السجف(٣) ناظرها
ترنو الى ودمع العين ينهمل
وودعت ببنان زانها عنم(٤)
ناديت : لا حملت رجلاك يا جمل
ويلى من البين ويل حل بى وبها
من نازل البين حان البين فارتحلوا
يا حادى العيس عرج كى نودعهم
يا راحل العيس فى ترحالك الأجل
انى على العهد لم أنقض مودتهم
يا ليت شعرى لطول العهد ما فعلوا ؟

قال المبرد : فقلنا له ماتوا ، فصاح قائلا : انا لله وانا اليه

---

(١) العيس : الابل
(٢) الدمى : جمع دمية ، ويعنى بها معشوقته الجميلة .
(٣) السجف : الستائر .
(٤) العنم : شجر له ثمرة حمراء يشبه بها البنان المخضوبة ، والواحدة : العنمة والبنان : الاصبع .

راجعون ، وأنا والله أموت • واستلقى على ظهره وتمدد ، ومن عجب أنه مات فعلا ، فلم نبرح حتى دفناه رحمة الله عليه •

وهكذا يرويها ابن كثير فى « البداية والنهاية » مع اختلاف يسير •

– وروى « العقد الفريد » أن المبرد قال :

دخلنا فى احدى المرات دير هرقل فاذا بمجنون فى يده حجر ، وقد تفرق الناس عنه ، وهو يقول : يا معشر اخوانى اسمعوا منى • ثم أنشأ يقول :

وذى نفس صاعد يئن بلا عائد
يكر على جحفل ويضعف عن واحد (١)

روى ابن رشيق ان المبرد قال ان الناس سمعوا منشدا ينشد قول عمارة بن عقيل :

أأترك ان قلت دراهم خالد
زيارته ؟ انى أذن للئيم

وعرف المأمون ذلك فقال : أو قلت دراهم خالد ؟ احملوا اليه مائتى ألف درهم ، فلما وصلت الدراهم خالد بن زيد دعا بعمارة وقال له : هذا مطر من سحابك ، ودفع اليه عشرين الف درهم •

– وجاء فى « الأغانى » أن المبرد قال :

بلغنى من غير وجه أن الرشيد لما ضرب أبا العتاهية وحبسه وكل به صاحب خبر يكتب اليه بكل ما يسمعه منه • فكتب اليه أنه سمعه ينشد :

---

(١) يعنى بالواحد معشوقته . والجحفل الجيش.

أما والله ان الظلم لــؤم — وما زال المسيء هو الظلوم
الى ديان يـوم الدين نمضى — وعند الله تجتمع الخصوم

قال : فبكى الرشيد ، وأمر باحضار أبى العتاهية ثم أطلقه وأمر له بألفى دينار ·

ـ وفى أمالى المرتضى ، وشرح مقامات الحريرى للشريشى أن المبرد حدث فقال : كان بالبصرة طفيلى مشهور ، وكان ذا أدب وظرف · فمر بسكة النخع بالبصرة على قوم عندهم وليمة فاقتحم عليهم ، وأخذ مجلسه مع من دعى · فأنكره صاحب المنزل وقال له : لو تأنيت يا هذا قبل الدخول حتى يؤذن لك لكان أحسن لأدبك ، وأعظم لقدرك ، وأجل لمروءتك · فقال الطفيلى : انما اتخذت البيوت ليدخل فيها ، ووضعت الموائد ليؤكل عليها ، والحشمة قطيعة ، واطراحها صلة . وقد جاء فى الآثار : صل من قطعك، وأعط من منعك ، وأحسن الى من أساء اليك .

ـ وجاء فى النجوم الزاهرة أن المبرد قال :

دخل رجل على الشافعى فقال : ان أصحاب أبى حنيفة لفصحاء فأنشأ الشافعى يقول :

فلولا الشعر بالعلماء يزرى — لكنت اليوم أشعر من لبيد
وأشجع فى الوغى من كل ليث — وآل مهلب وأبى يزيد
ولولا خشية الرحمن ربى — حسبت الناس كلهم عبيدى

ـ وفى النجوم الزاهرة أيضا أن الأخفش روى أن المبرد قال لهم : سألت أبا الفضل الرياشى عن معنى قول الشاعر :

الريح تبكى شجوها — والبرق يلمع فى الغمامة

فقال : هو عندى كقولهم : « ويل للشجى من الخلى » أى أنه مثل

يحكى كما سمع • ويعنى أن البرق يضحك ، والريح تبكى فضربه مثلا لنفسه • ثم قال المبرد : وغير الرياشي يرى أن الريح تبكى والبرق يبكى فى حال كونه لامعا فى الغمامة ، فجملة يلمع حال وليست خبرا •

– وجاء فى امالى المرتضى أن المبرد روى أن سعيد بن سلم قال : مدحنى أعرابى ببيتين لم أسمع أحسن منهما وهما :

أيا ساريا بالليل لا تخش ضلة   سعيد بن سلم ضوء كل مكان
لنا مقرم أربى على كل مقرم(١)   جواد حشا فى وجه كل جواد

قال : ولكننى أغفلت صلته فهجانى ببيتين لم أسمع أهجى منهما وهما :

لكل أخى مدح ثواب علمته   وليس لمدح الباهلى ثواب
مدحت ابن سلم والمديح لهزه   فكان كصفوان عليه تراب

– وفى أمالى الزجاج أن المبرد قال :

أثبتت الروايات والأخبار أن ليلى الأخيلية لم تكن امرأة توبة بن الحمير ولم تكن أخته ولا كان بينهما نسب شابك الا أنهما كانا جميعا من بنى عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة ، وكان يحبها وتحبه ، فأقاما على حب عفيف دهرا ، وتلك السنة فى عشاق بنى عذرة وغيرهم ، الى أن قتل توبة • وكان سبب قتله أنه كان يطلبه بنو عوف فأحسوا قدومه من سفره فأتوه طروقا وبينه وبين الحى مسيرة ليلة ومعه أخوه عبد الله ومولاه قابض فهربا وأسلماه • وفى ذلك تقول ليلى :

دعا قابضا والمرهفات تنوشه   فقبحت مدعوا ، ولبيك داعيا

---

(١) المقرم : السيد

فيا ليت عبد الله حل مكانه　　فاودى ولم أسمع لتوبه ناعيا

ومن جيد ما رثته به قولها :

أقسمت أبكى بعد توبة هالـكا　　وأحفل من دارت عليه الدوائر
لعمرك ما بالموت عار على الفتى　　اذا لم تصبه فى الحياة المعاير
فلا الحى مما يحدث الدهر سالم　　ولا الميت ان لم يصبر الحى ناشر
وكل شـــباب أو جديد الى بلى　　وكل امرىء يوما الى الله صـــائر

ـ وفى أمالى الزجاج أيضا أن الأخفش ذكر أن المبرد روى لهم من رثاء عبد الرحمن العطوى لأحمد بن أبى دؤاد قوله :

وليس صرير النعش ماتسمعونه　　ولكنه أصلاب قوم تقصــف
وليس نسيم المسك ما تجدونه　　ولـــكنه ذاك الثنـــاء المخلف

ـ ومما جاء فى أمالى الزجاج رواية عن الأخفش أن المبرد قال :

روت الرواة أنه لـما توفى عبد الرحمن بن أبى بكر الصـــديق رحمه الله ولم تحضره عائشة زارت قبره ثم قالت : يا أخى انى لو حضرت وفاتك مازرت قبرك ، ثم أنشأت تقول متمثلة :

وكنا كندمانى جذيمة حقبــة　　من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
فلما تفرقنا كأنى ومالــــكا　　لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

وكانت قد حضرت أبا بكر رحمه الله وهو يجود بنفسه فقالت : هذا والله كما يقول حاتم الطائى :

أماوى ما يغنى الثــــراء عن الفتى
اذا حشرجت يوما وضاق بها الصـــدر

فقال لها : يا بنية لا تقولى هذا ، ولــكن قولى : « وجاء ســكرة الحق بالموت » ، وهكذا كان يقرؤها أبو بكر رحمه الله بدون تاء فى جاءت وبتقديم كلمة الحق .

ـ وفى « الأغانى » يروى الاصبهانى أن الأخفش حدث أن المبرد قال : دخل نصيب الشاعر على الفضل بن الربيع مسلما فوجد عنده جماعة من الشعراء قد امتدحوه فهم ينشدونه ويأمر لهم بالجوائز . ولم يكن نصيب قد امتدحه ولا أعد شيئا ، فلما فرغوا ـ وكان يردد شيئا فى نفسه ـ استأذن فى الانشاد فأذن له فأنشد قصيدة (بنت وقتها) أولها قوله :

طرقتك مية والمزار شطيب ... وثنتك بالهجران وهى قريب
لله ميه خلة لو أنها ... تجزى الوداد بودها وتثيب
وكأن مية حين أتلع(١) جيدها ... رشا أغن(٢) من الظباء ربيب

وبعد استرسال فى النسيب انتقل الى المدح فقال :

والبرمكى وان تقارب سنه ... أو باعدته السن فهو نجيب
يا آل برمك ما رأينا مثلكم ... ما منكم الا أغر وهوب

ولما أتم الانشاد أبدى الفضل استحسانه ، وأمر له بثلاثين ألف درهم . فلما قبضها وثب قائما وهو يقول :

انى سأمتدح الفضل الذى حنيت
منا عليه قلوب البر والضلع
جاد الربيع الذى كنا نؤمله
فكلنا بربيع الفضل مرتبع
كانت تطول بنا فى الأرض نجعتنا
فاليوم عند أبى العباس ننتجع (٣)

هذه بعض روايات أثرت عنه مما كان يتحف به خلصاءه ، وفى كتابه « الكامل » ثروة من الروايات الأدبية القيمة .

---

(١) اتلع : ارتفع وطال .
(٢) غزال ابيض جميل ـ ظبى اغن فى ترنينه غنة وهى ترخيم فى صوته .
(٣) الانتجاع : طلب المعروف .

اتهام ظالم

الى جانب ما عرف به المبرد من كثرة المحفوظ ، ويقظة الذاكرة كان يتمتع بذهن وقاد ، وبديهة حاضرة ، وكان يجد من كل ذلك ما يسعفه كلما وجه اليه سؤال بقصد الافادة ، أو لمجرد التحدى الذى كان يواجهه من أنصار ثعلب أو نحوهم من الكوفيين .

وقد ردد الاعتراف بقدراته هذه أنصاره تحدثا بنعمة الله عليه فى حين انحرف خصومه بهذا الوصف الى اتهامه صراحة أو ضمنا بالوضع فى اللغة ، بل واتهامه أيضا بالكذب والاختلاق .

أثر عن المفجع البصرى ، وهو كوفى من أنصار ثعلب أنه قال :

« كان المبرد لكثرة حفظه للغة وغريبها يتهم بالوضع فيها ، فتواضعنا على مسألة لا أصل لها نسأله فيها لننظر ماذا يجيب . وكنا قبل ذلك تمارينا فى عروض بيت الشاعر :

أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا
حنانيك بعض الشر أهون من بعض

فقال بعضنا أنه من البحر الفلانى ، وتردد على أفواهنا من

تقطيعه « ق بعضنا » ثم ذهبنا الى المبرد فقلت له : ما القبعض عند العرب ؟ فقال : هو القطن ، وفى ذلك يقول الشاعر :

... ... كأن سنامها حشو القبعضا

وذكر عجز البيت ، ولم يذكر صدره . قال المفجع : فقلت لأصحابى ترون الجواب والشاهد ، فان كان صحيحا فهو عجب ، وان كان مختلقا على البديهة فهو أعجب » .

ان المفجع البصرى ، وهو من أنصار ثعلب منافس المبرد كما أسلفنا ، يقدم لقصته باشارة الى اتهام المبرد بالوضع فى اللغة ، ويجعل الاتهام بمثابة خبر شائع يعرفه الجميع ، ثم يختم قصته باثارة الشكوك فى الرجل لينفذ الى غايته من تأييد الاتهام .

هذا ، وهناك رواية أخرى تشير الى أنه يسىء استعمال حضور بديهته ، فينقض الأمانة العلمية ، ويتنكر لما قاله جلة العلماء من أن من قال لا أدري فقد أفتى . وتشير الى أنه فى سبيل الاحتفاظ بمكانته ورياسته يتجاهل أن قوى الانسان مهما تكن فهى محدودة ، وأنه « فوق كل ذى علم عليم » وان الله أيضا يقول : « وما أوتيتم من العلم الا قليلا » ، وان الحكماء قالوا : « من ظن أنه علم فقد جهل » . وما نحسب أن المبرد ـ على علمه وفضله وسمو مكانته ـ قد غفل أو تغافل عن ذلك ، أو تنكر له ، وانما هو شىء افتراه عليه بعض خصومه .

وتلك الرواية الأخرى التى نتحدث عنها هى ما رواه ياقوت وغيره اذ قالوا ان أبا العباس المبرد ورد الدينور زائرا لعيسى بن هامان فأول ما دخل عليه وقضى سلامه قال له عيسى : أيها الشيخ، ما الشاة المجثمة التى نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن أكلها ؟ فقال

هى الشاة القليلة اللبن مثل اللجبة(١) . قال عيسى : فهل من شاهد ؟ قال المبرد : نعم ، قول الراجز :

لم يبق من آل الحميد نسمة الا عنيز لجبة مجثمة

قيل : واذا الحاجب يستأذن لأبى حنيفة الدينورى ، فلما دخل قال له عيسى : ما الشاة المجثمة التى نهينا عن آكلها ؟ فقال : هى التى جثمت على ركبتيها وذبحت من خلف ، أى من قفاها . فقال عيسى : كيف تقول ذلك ، وهذا شيخ العراق - يعنى أبا العباس المبرد - يقول هى مثل اللجبة وهى القليلة اللبن ، وأنشده البيت الذى استشهد به المبرد . فقال : أبو حنيفة : أيمان البيعة تلزم أبا حنيفة ان كان هذا التفسير سمعه الشيخ أو قرأه ، وان كان البيت الا لساعته هذه . فقال المبرد : صدق الشيخ أبو حنيفة فاننى أنفت أن أرد عليك من العراق وذكرى قد شاع فيكون أول ماتسألنى عنه لا أعرفه .

قالوا : فاستحسن عيسى منه هذا الاقرار ، وترك البهت .

الأرجح أن هذه حادثة ملفقة يبعد أن يكون لها أصل . ولكن ايرادها على هذه الصورة يدل على أن راويها أراد ابراز المبرد فى صورة الذى يعمد الى الوضع تحرجا من أن يقال عجز عن الاجابة . وهذا فى رأى أفاضل العلماء يناقض الأمانة العلمية ، وليس يزرى بالعالم أن يقول فى بعض الأحيان لا أدرى ، أو يطلب مهلة للاجابة كما فعل المبرد نفسه ومعه صديقه ابن لرة حين وجه اليهما الخليفة المعتصم مسألة فى أول لقاء دبره له ابن لره - كما أوضحنا حين عرضنا لصلته بالخلفاء والأمراء .

هذا ، وتاريخ المبرد ، وما أثر عنه ، وما شهد له به المنصفون

---

(١) عنز لجبة أو شاة لجبة (بالحركات الثلاث) التى تولى لبنها وذهب.

ينفى عنه صفة الاختلاق أو الوضع فى اللغة ، فقد روى عنه فى كتاب « مجالس العلماء » أنه قال : « لا أتقلد مقالة متى لزمتنى الحجة » . وانه أيضا قال : « ربما روأت فى الحرف سنة لتصح لى حقيقته ومعنى روات فى الحرف بحثت عن الكلمة واستقصيتها .

وجاء فى كتاب « لسان الميزان » :

« وثقه العلماء وأصحاب الجرح والتعديل ، وان المفجع البصرى اتهمه بالكذب فى نقل اللغة . ولكن المفجع لا يعتد بجرحه» .

وابن ولاده الذى تصدى له ، وألف كتاب « الانتصار » ليرد عليه فيما خالف فيه سيبويه ينصفه فيقول : « ليس هو عندنا ممن يتعمد الكذب » .

وقال عنه الخطيب فى « تاريخ بغداد » : « كان عالما فاضلا موثوقا به فى الرواية » .

وقال عنه ابن كثير فى « البداية والنهاية » : « كان ثقة ثبتا فيما ينقله » .

وروى الأخفش أنه سمع المبرد يقول :

« ان الذى يغلط ثم يرجع لا يعد ذلك خطأ عليه ، لأنه قد خرج منه برجوعه عنه . وانما الخطأ البين هو الذى يصر فيه صاحبه على الخطأ الذى وقع فيه ولا يرجع عنه ، فهذا يعد كذابا ملعونا » .

وهذا الذى أطلقه شعاراً قد ثبت أنه نفذه عملا فقد قال الصولى : حدثنى عبد الله بن المعتز قال : جاءنى محمد بن يزيد النحوى فاحتبسته فأقام عندى . وجرى ذكر أبى تمام فلم يوفه حقه ، وكان فى المجلس رجل من الكتاب ما رأيت أحفظ منه لشعر أبى تمام فقال له : يا أبا العباس ، ضع فى نفسك من شئت من

الشعراء ثم انظر أيحسن أن يقول مثل ما قال أبو تمام لأبى المغيث يعتذر اليه :

شهدت لقد أقوت(١) مغانيكم بعدى
ومحت(٢) كما محت وشائع من برد

فأنجدتم من بعد اتهام داركم
فيادمع أنجدنى على ساكنى نجد

ثم مر فى القصيدة حتى بلغ قوله فى الاعتذار :

أتانى مع الركبان ظن ظننته
نغضت(٣) له رأسى حياء من المجد

لقد نكب العذر الوفاء بساحتى
اذن ، وسرحت الذم فى مسرح الحمد

فقال أبو العباس محمد بن يزيد : ما سمعت أحسن من هذه قط . ما يهضم هذا الرجل حقه الا أحد رجلين : اما جاهل بعلم الشعر ومعرفة الكلام ، واما عالم لم يتحر شعره ولم يسمعه .

قال ابن المعتز : وما مات المبرد الا وهو مقر بفضل أبى تمام واحسانه .

وحين عرض للحديث عن اسماعيل بن اسحاق بن اسماعيل بن حماد مؤلف كتاب « أحكام القرآن » لم يتحرج أن يصفه بأنه أعلم منه بالتصريف . والذى تصل به الشجاعة الأدبية الى الاعتراف لغيره بأنه أعلم منه لا يتحرج أن يقول فى مسألة ما لا أدرى دون أن يلجأ الى الوضع أو التلفيق .

---

(١) اقوت : خلت .
(٢) محت : بليت وتمزقت .
(٣) نغضت : حركت .

هذا ما قال المبرد وما فعل ، وهذا ما قيل فيه . وما قال المبرد وما فعل ، وما شهد به له المنصفون يدل على أنه فوق أن يتهم بالوضع واختلاق الأجوبة ، لأن الذى يجاهر بلعن الكذاب لا ريب أنه يتحرج من الكذب .

وعلى هذا فاتهام المبرد بالكذب والوضع فى اللغة مردود ، ومصدره الكوفيون الذين عرفوا بالتعصب ضد البصريين ، فالمفجع وهو على رأس من اتهموا المبرد بالوضع من أنصار ثعلب ، والخصومة بين المبرد وثعلب عرفت وشاعت وصارت مضرب الأمثال ، وهى — كما يقول الدكتور زكى مبارك — مبعثها الحقيقى الخصومة بين البصريين والكوفيين .

وكم من ذوى علم وفضل قبل المبرد وبعده ، قد اتهموا ظلما ، بل ان صحابة الرسول وخلفاءه وخلصاءه لم يسلموا من الاتهام . وقد تحدث الصاحبى فى باب سنن العرب فى حقائق الكلام والمجاز من كتابه « فقه اللغة » فقال عن ابن قتيبة أنه يطلق اطلاقات منكرة كالذى رواه عن الشعبى من أن أبا بكر وعثمان وعليا توفوا ، ولم يجمعوا القرآن ، أى لم يحفظوه .

قال وروى شريك عن اسماعيل بن أبى خالد أنه قال : سمعت الشعبى يقول ويحلف بالله لقد دخل على بن أبى طالب حفرته وما حفظ القرآن ! !

قال الصاحبى : وهذا كلام شنع جدا فى حق من يقول (يعنى الامام عليا) « سلونى قبل أن تفقدونى ، فما من آية الا أنا أعلم أبليل نزلت أم بنهار أفى سهل أم فى جبل » .

وروى السدى عن عبد خير عن على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه رأى من الناس طيرة عند وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم فأقسم ألا يضع على ظهره رداء حتى يجمع القرآن . قال : فجلس فى بيته

حتى جمع القرآن ، فهو أول مصحف جمع فيه القرآن جمعه من قلبه .

الامام على ، وهذا شأنه ، قد وجد من يتهمه بأنه مات ولم يحفظ القرآن . الامام على الذى قيل فى وصفه : ان العلم مدينة وعلى بابها وجه اليه هذا الاتهام الفاحش مع أنه - على حد قول الصاحبى سئل وهو يخطب على منبره عن ميراث ابنتين وأبوين وامرأة فقال على الفور : صار ثمنها تسعا . وقد سميت فتواه هذه بالفتوى المنبرية .

وقال الصاحبي أيضا : حدث أبو الحسن على بن ابراهيم القطان أن أبا وائل وهو شيخ من أهل اليمن روى عن هانىء أنه قال :

كنت عند عثمان رضى الله عنه وهم يعرضون المصاحف عليه فأرسلنى بكتف شاة الى أبى بن كعب فيها «لم يتسمن» و « فأمهل الكافرين » و لاتبديل للخلق الله « قال : فدعا بالدواة فمحا احدى اللامين » وكتب : لاتبديل لخلق الله « ومحا فأمهل وكتب » فمهل « والحق هاء بكلمة يتسن فصارت لم يتسنه » .

وقد قتل عثمان ومصحفه بين يديه يتلو منه ومع ذلك لم يسلم هو ونحوه من الصحابة الأجلاء من الاتهام ، فهل يكون عجبا أن يتهم المبرد ؟

والأزهرى فى « تهذيب اللغة » يقول : ممن ألف فى عصرنا فوسم بافتعال العربية وتوليد الألفاظ التي ليس لها أصول ، وادخال ما ليس فى كلام العرب فى كلامهم أبو بكر محمد بن الحسن ابن دريد صاحب كتاب الجمهرة ، وكتاب اشتقاق الأسماء ، وكتاب الملاحن وحضرته فى داره فرأيته يروى عن أبى حاتم والرياشى وعبد الرحمن ابن أخي الأصمعى فسألت عنه ابراهيم بن عرفه الملقب بنفطويه فاستخف به ولم يوثقه فى روايته . ودخلت عليه يوما فى

داره فوجدته سكران لا يكاد يستقر لسانه على الكلام من غلبة السكر عليه ·

وجاء فى معجم الأدباء ، وفى انباه الرواة أن الخطيب البغدادى قال : دخلت على ابن دريد داره فى بغداد لآخذ منه شيئا من اللغة فوجدته سكران فما عدت اليه ·

هذا اتهام موجه أيضا الى عالم لغوى له آثار قيمة ،ولكن جلال الدين السيوطى فى كتابه « المزهر » ينفى عنه هذه التهمة ، ويقول : معاذ الله · هو برىء مما اتهم به ، ومن طالع الجمهرة رأى مدى تحريه فى روايته » ·

ومع ذلك فهناك أمر نرى لزاما علينا أن نشير اليه هو أن المبرد كثيرا ما يذكر الخبر أو الشاهد بغير اسناد لأنه كان يعتمد على الذاكرة ، والذاكرة قد تخون · وذكر الشاهد أو الخبر بغير اسناد ساعد على انتشار اتهامه بالوضع · وحقيقة الأمر فى هذا أنه كان لا يكذب ولا يضع ، ولكن ربما خانته الذاكرة فنسى قائل النص ، أو نسب قول واحد الى شخص غيره وقد عد عليه السيد المرصفى فى « رغبة الآمل » بعض مواضع من هذه · وجاء فى « خزانة الأدب » للبغدادى شاهد من قول الراجز :

رب ابن عم لسيلمى مشمعل(١)
أروع فى السفر ، وفى الحى غزل

وقال البغدادى : «نسب المبرد هذا البيت الى الشماخ بن ضرار لأن المبرد كان يعتمد على ذاكرته القوية ، والذاكرة أيا كانت من القوة قد تخون صاحبها · والحق أن هذا البيت لجبار بن جزء أخى الشماخ بن ضرار » فالبغدادى يصحح له ، ولا يتهمه بل يلتمس له عذرا ·

---

(١) المشمعل : الرجل الخفيف الظريف ، أو الرجل الطويل ·

ومن دلائل قوة حافظة المبرد وحضور بديهته ماجاء فى « أمالى المرتضى » من أن الجاحظ قال يوما للمبرد : أتعرف مثل قول ابراهيم ابن القاسم :

ولا خير فيمن لا يوطن نفســه على نائبــات الدهر حين تنوب

فقال المبرد : نعم ، قول كثير عزه ، ومنه أخذ اسماعيل بن القاسم ، وذلك اذ يقول :

فقلت لهــا : يا عز كل مصيبة اذا وطنت يوما لها النفس ذلت

ان دراسة حياة المبرد ، وأخباره كما تضمنتها مختلف ذخائر العرب من المؤلفات العلمية والأدبيـــة تكشف عن حقائق ومميزات للمبرد :

أولها : أنه كان ذا ذكاء لمــاح خارق .

ثانيها : أنه كان ذا حافظة قوية ، وذاكرة مسعفة .

ثالثها : انه كان واسع العلم والمعرفة .

رابعها : أنه لـكثرة ما حفــظ كان يورد كثــيرا من رواياته بغير سند .

خامسها : أنه كان حاضر البديهة ، سريع الجواب .

سادسها : أن حضور ذهنه وسرعة بديهته ، وسعـــة معارفه وكثرة رواياته بغير سند ، وزعامته للبصريين أتاحت للكوفيين وفى مقدمتهم أنصار مناهضه أبى العباس أحمــد بن يحيى المعروف بثعلب أن يتهموه بالتلفيق والوضع فى اللغة .

وسابعها : أنه كان مع تفرغه للنحو واللغة وتفوقه فيهما ، كان من خير معاصريه بصرا بالنقد المنهجى السليم ، وكان ذا بصر بالشعر يرويه ، وينقده . وكان له شعر جيد لم يصلنا منه الا نزر يسير .

فليس عجيبا أن يطلق عليه حينئذ أديب النحاة .

المبرّد بين الشعر والشعراء

« لم يكن أبو العباس محمد بن يزيد – على رياسته ، وتفرده بمذهب أصحابه واربائه عليهم بفطنته وصحة قريحته – متخلفا في قول الشعر . وكان لاينتحل ذلك ، ولا يعتزى اليه ، ولا يرسم نفسه به . وله أشعار كثيرة » .

هكذا وصفه الزبيدى فى كتابه « طبقات النحاة » وبهذا وصف أيضا فى كتاب « انباه الرواة » وكتاب « أخبار النحويين البصريين » وفحوى هذا أنه كان شاعرا الا أن همه الأكبر كان النحو واللغة ، فلم يكن يريد أن يسمى شاعرا ، ولا أن يكسب بالشعر مجدا اعتزازا برياسته وزعامته فى النحو واللغة .

وكان صديقا لأكثر شعراء عصره يلقاهم ويلقونه ، ويرتادون مجالسه ، ويعرضون عليه نتاج قرائحهم . ومن هؤلاء الشعراء : أبو تمام ، والبحترى ، وابن الرومى ، وابن المعتز وابن المعذل ، وأبو دهمان ، وأم الهيثم ، وعمارة بن عقيل وأحمد بن عبد السلام وغيرهم .

كانت له صلات بهؤلاء الشعراء ومخالطة لهم ، وكان يروى عنهم شعرهم ، وكانوا يعتزون برأيه فى ثمار قرائحهم .

روى عن البحترى شعره ، وكانت بينهما صداقة وثيقة العرى ، وألفة لاكلفة فيها . وكان المبرد يعجب برونق شعر البحترى ، واشراق ديباجته ، ويفضله على أبى تمام الذى عرف بتفضيله جانب المعنى على جانب اللفظ حتى عد هو والمتنبى من شعراء المعانى ، ولكنه لم يكن يغمط حق أبى تمام ولهذا أكثر من الاستشهاد بشعره فى كتاب « الكامل » :

وفى ديوان البحترى ما يفيد أن البحترى حين مدح اسماعيل بن بلبل بقصيدة طويلة كتب بها الى المبرد لأنه يعلم مبلغ عنايته بشعره ، وفى الديوان أيضا أن البحترى كان يهوى مجالسة المبرد ولهذا كتب اليه يدعوه الى مجلس أنس فقال :

يوم سبت وعندنا ما كفى الحـ ... ـر طعام ، والورد منا قريب
ولنا مجلس على النهر فيا ... ح فسيح ترتاح فيه القلوب
ودوام المدام يدنيك ممن ... كنت تهوى ، وان جفاك الحبيب
فأتنا يا محمد بن يزيد ... فى استتار كى لا يراك الرقيب
نطرد الهم باصطباح ثلاث ... مترعات تنسى بهن الكروب
ان فى الراح راحة من جوى الـ ... ـحب وقلبى الى الأديب طروب
لا يرعك المشيب منى فانى ... ما ثنانى عن التصابى المشيب

وروى الشريشى فى شرح المقامات أنه جرى ذكر معنى تعاوره البحترى وأبو تمام فقال المبرد للبحترى : أنت فى هذا أشعر من أبى تمام . فقال البحترى : لا والله ، ذلك الرئيس الأستاذ ، والله ما أكلت الخبز الا به . وقال عبد الله بن الحسن : سألت المبرد عن أبى تمام والبحترى أيهما أشعر فقال :

« لأبى تمام استخراجات لطيفة ، ومعان طريفة . وجيده أجود من شعر البحترى ، وشعر البحترى أحسن استواء من شعر أبى تمام ، لأن البحترى يقول القصيدة كلها فتكون سليمة من طعن

طاعن ، وأبو تمام يقول البيت النادر والبارد ، وما أشبهه الا بغائص يخرج الدرة والمخشلبة ، وهى زجاجة توضع مكان الدرة . على أن لأبى تمام والبحترى من المحاسن ما لو قيس بأكثر شعر الأوائل ما وجدوا فيه مثله . وللبحترى بيتان لو ضما الى شعر زهير لجازا فيه ، وهما :

فما سفه السفيه وان تعدى — بأنجع فيك من حلم الحليم
متى أحفظت ذا كرم تخطى — اليك ببعض أفعال اللئيم

قال : ثم أخذ المبرد فى هذا المجلس يذكر من شعر البحترى فى مدح ابنى صاعد ، ومدح الفتح بن خاقان وقد نزل الى الأسد فقتله ، ويأخذ من هذا الشعر شواهد على أنه مقدم على نظرائه .

وقد أوردنا من قبل كيف أن المبرد أبدى مثل هذا الرأى فى أبى تمام والبحترى فى مجلس ابن المعتز حتى عرض عليه أحد رواة أبى تمام أبياتا من عيون شعره وطلب رأيه فيها فقال : ما سمعت أحسن من هذه قط ، ما يهضم هذا الرجل حقه الا أحد رجلين : أما جاهل بعلم الشعر ومعرفة الكلام ، واما عالم لم يتحر شعره ولم يسمعه .

وفى « العمدة » لابن رشيق أن البحترى قال : كنت عند أبى العباس المبرد يوما فتذاكرنا شعر عمارة بن عقيل فقال ابو العباس: لقد أحسن عمارة فى قوله لخالد بن يزيد :

لم أستطع سيرا لمدحة خالد — فجعلت مدحيه اليه رسولا
فليرحلن الى نائل خالد — وليكفين رواحلى الترحيلا

قال البحترى : فقلت له ان مروان بن أبى حفصة له فى عبدالله بن طاهر ، وقد أتاه نائله من الجزيرة ما هو أحسن من هذا ، هو قوله :

لعمرى لنعم الغيث غيث أصابنا ببغداد من أرض الجزيرة وابله
فكنا كحى صبح الغيث أهله ولم يرتحل أظعانه ورواحله

فقال المبرد : نعم ، هذا أحسن • فقلت : أما أنا فلى فى بنى السمط وقد أتانى برهم من حمص مالا يتضح عن ذلك اذ قلت :

جزى الله خيرا ، والجزاء بكفه
بنى السمط أخدان السماحة والمجد
همو وصلونى • والمهامه بيننا
كما ارفض غيث من تهامة فى نجد

فقال المبرد : هذا أرق وأروع •

وفى « أخبار أبى تمام « رواية عن الصولى يقول فيها ان المبرد حدثه فقال : قدم عمارة بن عقيل بغداد فاجتمع الناس اليه ، وكتبوا شعره ، وعرضوا عليه الأخبار ، وأنه قرأ عليه شعرا لجرير (جده) •

وفى مواضع كثيرة من « الكامل » يقول أنشدنى عبد الصمد بن المعذل لنفسه ، وأنشدتنى أم الهيثم •

وللشعراء مدائح فيه أوردنا بعضها قبل فى رثائه وفى المفاضلة بينه وبين ثعلب ـ وقد سبق الاشارة الى مدح البحترى له •

وقد ذكر الاستاذ المحقق محمد عبد الخالق عضيمة فى مقدمة تحقيقه لكتاب « المقتضب » للمبرد أن ابن الرومى مدح المبرد بقصيدة طويلة جدا قلما ظفر نحوى بقصيدة مدح طويلة مثلها من شاعر كبير معاصر له . وقد أورد البارودى طرفا منها فى الجزء الأول من مختارات البارودى ، وأثبتها الأستاذ الدكتور عضيمة كاملة فى مقدمة « المقتضب » نقلا عن مخطوطة بدار الكتب المصرية.

وقد بدأت هذه القصيدة بغزل مطلعه :

طرقت أسماء والركب هجود والمطايا جنح الأذواد قود

ثم ينتقل الى الوصف ، ويخلص منه الى مدحه وتمجيد آبائه ووصفهم بأنهم أمجاد ذوو مروءة وشرف وعفو عند المقدرة وبسالة فى الحرب ، وأن المبرد نسج على منوالهم فلم يكن كقوم معروفهم هامد ، ممن اذا نووا على فعل خير لا يلبثون أن يتكلموا عنه ، واذا نووا فعل شر كانوا عتاة فى تنفيذه . وهكذا يسترسل فى مدحه حتى تبلغ القصيدة ثمانية وتسعين بيتا ، وقد مرت أبيات منها قبل ذلك .

هذا مجمل لصلته بشعراء عصره ، وصلته الوثيقة بهؤلاء الشعراء كان من آثارها تأليف كتاب « الروضة » الذى جمع فيه مختارات من شعر الشعراء المحدثين .

أما شعره هو فلم يصل الينا منه الا قليل مما سجله معاصروه، ومن عاشوا بعده قريبا من عصره .

وتلمح فى شعره أثر البديهة الحاضرة والذهن الوقاد . ومما أثر عنه فى صدر شبابه قوله :

أيها الطالب شيئا　　　من لذيذ الشهوات

روى الزجاج فى أماليه أن أبا محمد اسماعيل بن النجم الشرابى قال :

كنا فى مجلس أبى العباس المبرد فى يوم شات شديد البرد ، فمر بنا اسماعيل بن زرزور المغنى وعليه غلالة قصب ، وعلى رأسه منديل دبيقى ، وفى رجليه نعل صرارة ، وقد مر ولم يسلم . فقال لنا المبرد : من هذا ؟ قلنا : ابن زرزور المغنى . قال اكتبوا :

غناؤك يكسبك التنزيه　　　وصفعا وطردا من الأفنية
وقذفك أجمل من أن تبر　　　وشتمك أولى من التكنية
فيوم ولادك للتعزيات　　　ويوم حمامك للتهنية

وقوله « من التكنية » يعنى به الاحترام والتعظيم لأن المناداة

بالكنية مثل أبى فلان تعنى التعظيم ولهذا لم يكن أحد يكتنى فى حضرة الخلفاء .

وروى ياقوت أن الخطيب حدث أن المبرد قال :

لما توفيت والدة القاضي اسحاق الأزدى رأيت فى وجهه مالم يقدر على ستره ، وكان كل يعزيه وهو لا يسلو ، فسلمت عليه ثم أنشدته :

لعمرى لئن غال ريب الزمان فساء لقد غال نفسا حبيبه
ولكن علمى بما فى الثوا ب عند المصيبة ينسى المصيبة

قال فتفهم كلامى ، واستحسنه ، ودعا بدواة فكتبه ، ثم انبسط وزالت عنه تلك الكآبة والجزع .

وقال القفطى :

كان للمبرد شعر جيد لا يدعيه ولا يفخر به . وقد ورد عليه من عبد الله بن طاهر كتاب فيه درجة التثبيت بأرزاقه الى مصر ، فأجاب على الكتاب بأبيات قالها على البديهة وهى :

بنفسى أخ بر شددت به أزرى
فألفيته حرا على العسر واليسر

أغيب فلى منه ثناء ومدحة
وأحضر ، منه أحسن القول والبشر

وما طاهر الاجمال لصحبه
وناصر عافيه على كلب الدهر

تفردت يا خير الورى فكفيتنى
مطالبة شنعاء ضاق بها صدرى

وأحسن من وجه الحبيب ووصله
كتاب أتانى مدرجا فى يدى نصر

سررت بـــه لمـــــا أتى ، ورأيتنى
غنيت ، وان كـان الـكتاب الى مصـــر

فقلت : رعـــاك الله من ذى مــــودة
فقد فت احسانا ، وقصرت فى شكرى

وروى أن زائرا قدم عليه فوقف تحية له ، فاستكثر منـه الرجل أن يقوم له ، فلما فهم منه ذلك أنشد على البديهة :

لئن قمت ما فى ذاك منى غضــاضة
على ، ولــكن الــكريم مذلل

على أنها منى لغـــيرك هجنـــة
ولــكنها بينى وبينـــك تجمـــل

وروى النويرى فى كتاب « نهاية الأرب » قوله فى وصـــف نرجســـة :

نرجســـة لاحظنى طرفهــــا
تشـــبه دينــــارا على درهـــم

وروى له صاحب « العقد الفريد » أنه قال :

ما القـــرب الا لمن صـــحت مودته
ولم يخنك ، وليس القرب فى النسب

كم من قريب دوى الصدر مضطغن
ومن بعيـــد سليم غـــير مغترب

وروى له أيضا فى صديق عظيم حل به مرض :

يا عليـــلا أفديك من ألـــم العلة
هـــل لى الى اللقـــاء سـبيل

ان يحـــل دونـك الحجـاب فـمـا
يحجب عنى بك الضـــنى والعويل

وفى « تاريخ بغداد » أن المبرد سأل بشر بن سعد المرثدى حاجة فتأخرت ، فكتب اليه مستنجزا :

وقاك الله من اخلاف وعد — وهضم أخوة ، أو نقض عهد
فأنت المرتجى أدبا ورأيا — وبيتك فى الذؤابة (١) من معد
وتجمعنا أواصر لا زمات — سداد الرأى من حسب وود
اذا لم تأت حاجاتى سراعا — وقد ضمنتها بشر بن سعد
فأى الناس آمله لبر — وأرجوه لحل أو لعقد

وفيما تضمنته هذه الأبيات تأييد لرأى من وصفوه بالحرص ، وقالوا انه كان يصرح بالطلب .

وروى الحصرى فى « زهر الآداب » من شعر المبرد قوله :

أخ لى عاداه الزمان فأصبحت — مذممة فيما لديه المطالب
متى ما تذوقه التجارب صاحبا — من الناس تردده الى التجارب

وروى الأصبهانى فى « محاضرات الأدباء » من شعر المبرد قوله :

الفقر فى أوطاننا غربة — والمال فى الغربة أوطان

وروى الزجاج فى أماليه أن المبرد أنشده :

فان تك ليلى قد جفتنى وطاوعت
على صرم حبلى من وشى وتكذبا
لقد باعدت نفسا عليها شفيقة
وقلبا عصى فيها الحبيب المقربا
فلست وان ليلى تولت بودها
وأصبح باقى الوصل منها تقضبا
بمثن سوى عرف عليها ومشمت
وشاة بها حولى شهودا وغيبا
ولكننى لا بد أنى قائل
وذو الود قوال اذا ما تعقبا

---

(١) ذؤابة القوم : المتقدم فيهم .

وروى أنه كان قد طلب حاجة من عبيد الله بن طاهر فوعده بها ، ولما استبطأه كتب اليه يستنجزه :

يا موئلا لذوى الحاجات والخطر
ومن عمدت لحاجاتى من البشر
هل أنت راض بأن يضحى نزيلكم
المستجيب اكم فى حال مستتر
صفرا (١) من المال الا من رجائكم
ولا بسا بعد يسر حلة العسر
قل للأمير عبيد الله دام لـه
عز الامارة فى طول من العمر
بدأت وعدا فانجزه لمنتظر
فان حق تمام الورد فى الصدر
وقد بدا عود شكرى مورقا فأجد
سقياه أجنيك منه يانع الثمر
فانما يسم الوسمى مبتدئا
وللولى نبات الروض والزهر
والسيف يجلى ، فان لم تسق صفحته
نبا ، ولم يك كالمشحوذة البتر
وقد تقدم احسان الى لكم
لم أوت فيه من الاغراق فى الشكر
وفى بقاء عبيد الله لى خلف
وفيض راحته المغنى عن المطر

وروى له فى هجاء العلاء بن صاعد :

للعلاء بن صاعد فى وصف وثناء مجاوز المقدار
باذل مدحه ضنين بما يملك درهم ومن دينار

---

(١) صفرا : خاليا .

زرته مـكرها ، وما كنت من قبـل لمثل العـلاء بالـزوار
فحصلنا على ثنـاء ومـدح ، وركوب بالليـل فى الطيـار

وحدث الصـولى أنه كان عند المبرد يوما فجاءه رجل فسلم عليه ، وأبدى التودد اليه فأنشد أبو العباس المبرد :

ان الزمان وان شـطت مذاهبـه
منى ومنـك فان القلب مقترب
لن ينقص النأى ودى ما حييت لكم
ولا يميـل به جـد ولا لعب

وقال القفطى : ذكر العجوزى انه كان يوما عند ابى العباس المبرد فأتاه رجل على دابة وعلى كتفه طيلسان أخضر . فلما رآه المبرد قام فاعتنقه فأكبر الرجل قيامه اليه وقال : أتقوم لى يا أبا العباس ؟ فقال :

أينكر أن أقوم اذا بدا لى ، لأكرمه وأعظمه هشـام
ولا تعجب لاسراعى اليـه ، فان لمثله ذخر القيـام

وقد أسلفنا أن الخليفة المتوكل قال له فى مجلس شراب : يا بصرى ، أرأيت أحسن منى وجها ؟ فقال : لا والله ، ولا أسمح يدا ثم أنشد :

جهـرت بحلفـة لا أتقيهـا . . . . . .

(أنظر الأبيات صفحة ٦٥)

هذا بعض ما أمكن أن نعثر عليه من شعره ، ولا نشك فى أنه كثير قد يجده من يتفرغ له ، ويبحث عنه لاستكمال صـورة واضحة عن هذا الامام العربى الصميم .

آثار المبرد العلمية والأدبية

قضى المبرد حياة خصبة بالانتاج العلمى والأدبى ، فقد ألف عديدا من الكتب التى أسهمت بنصيب وافر فى تطوير علم النحو وتقويمه وتكميله ، ونهضت بالأدب ، ونمت اللغة .

غير أن الأحداث السياسية العاصفة التى تعرضت لها الأمة العربية وما فعله الأتراك بالعرب فى الفترة الثانية والثالثة من العصر الثالث ، وما أحدثته اغارة التتـــار على بغداد وحرق مكتبتها ، وما أعقبته الحروب الصليبية وما أصاب العرب فى الأندلس كل هذه الأحداث كان من نتائجها ضـياع كثير من الآثار الأدبيـــة والعلمية الرائعة ، ومنها كثير من كتب المبرد .

وآثار المبرد فى جملتها منها ما سلم ، ووصل الينا ، وتم طبعه وتداوله مثل :

١ ـ كتاب الكامل .

٢ ـ كتاب الفاضل .

٣ ـ كتاب المقتضب .

٤ ـ كتاب ما اتفق لفظه واختلف معناه من القرآن المجيد .

٥ ـ شرح لامية العرب .

٦ ـ كتاب **المذكر** والمؤنث وقد حققه أخيرا **الدكتور** رمضان عبد التواب والأستاذ صلاح الدين الهادى .

ومن آثاره كتب سلمت من الضياع ولكنها **حبيسة** مكتبات خاصة أو عامة لم يقدر لها من يحققها ويتولى نشرها ، ومنها :

١ ـ كتاب التعازى والمراثى وقيل انه توجد منه نسخة فى مكتبة الاسكوريال .

٢ ـ كتاب الروضة وقد جاء عنه حديث فى **العقد** الفريد لابن عبد ربه ، وفى الأغانى ، وقيل ان الأستاذ الميمنى الراجكوتى عثر على نسخة منه ونقل عنها .

ومن آثاره كتب لانعرف عنها الا كونها وردت عنها اشارات فى كتب المراجع ومنها :

١ ـ **الاختيار** : ذكره المبرد فى الكامل .

٢ ـ **الاشتقاق** : ورد ذكره فى وفيات الأعيان عند الحديث عن اشتقاق ثمالة .

٣ ـ **الشافى** : ورد ذكره فى شرح الكافية .

٤ ـ **الفتن والمحن** : ذكر الصولى فى « **أخبار** أبى تمام » أنه قرأه على المبرد .

٥ ـ **الاعتنان** : ذكره البغدادى فى «خزانة الأدب» وموضوعه أسباب تهاجى جرير والفرزدق .

٦ ـ **شرح ما أغفله سيبويه** : ذكره ابن ولاد فى كتاب الانتصار .

ومن آثار المبرد كتب لم نعرف عنها الا اسمها كما سجلها ابن النديم فى كتابه « الفهرست » وياقوت فى كتابه «معجم الأدباء» وهى كثيرة تبلغ نحو أربعين كتابا .

تعريف ببعض آثاره

أولا ــ كتاب الكامل :

« سمعنا من شيوخنا فى مجالس التعليم أن أصــول فن الادب وأركانه أربعة دواوين هى : (١) أدب الكاتب لابن قتيبة (٢) الكامل للمبرد (٣) البيان والتبيين للجاحظ (٤) النوادر لابى على القالى البغدادى . وماسوى هذه الاربعة فتبع لها ، وفروع عنها »

« ابن خلدون »

وكتاب « الكامل » للمبرد من الكتب الرائدة فى فن الأدب ، ولهذا لم يكن عجبا أن يعده ابن خلدون رواية عن شيوخه ركنا هاما من أركان أربعة يقوم عليها فن الأدب ، ولم يكن عجبا أن يثنى عليه الامام ابن شهبة الأسدى فى كتابه « طبقات النحاة واللغويين » وأن تذكر الأخبار أن القاضى الفاضل قال انه قرأه ســـبعين مرة واستمد منه فوائد تذكر ، وأن تذكره « بغية الوعاة للسيوطى » ويرد فيها أن محمد بن على السلاقى المتوفى سنة ٦٠٥ هـ كان من أحفظ الناس للكامل ، وأن أشراق السوداء مولاة ابن غلبون كانت تحفظه وتحفظ شرحه ، وأن خلف بن يوسف بن فرتون الأندلسى كان يحفظه حفظا جيدا .

وقال عنه حاجى خليفة فى « كشف الظنون » : « كتاب الكامل شرحه محمد بن يوسف المازنى السرقسطى المتوفى سنة ٥٣٨هـ ، ورواه عن المبرد ابو الحسن على بن سليمان الأخفش .. ثم قال : وهو كتاب يجمع فنون الأدب » .

وفى مقدمة كتاب المقتضب يروى الدكتور محمد عبد الخالق عضيمه ان أبا الفرج المعافى بن زكريا المتوفى سنة ٣٩٠هـ تحدث

فى مقدمة كتابه « الجليس الصالح الكافى ، والأنيس الناصح الشافى » عن الكامل للمبرد فقال :

« ... عمل ابو العباس محمد ين يزيد النحوى كتابه الذى سماه « الكامل » وضمنه أخبارا وقصصا لا اسناد لكثير منها . أودعه من اشتقاق اللغة وشرحها وبيان أسرارها وفقهها مالا يأتى به الا مثله لسعة علمه ، وقوة فهمه ، ولطيف فكرته ، وصفاء قريحته ، ومن جلى النحو والاعراب وغامضهما ما يقل وجود من يسد فيه مسده » .

ولما له من قدر عظيم اشتدت عناية السابقين بشرحه كما فعل ابن السيد البطليوسى المتوفى سنة ٤٤٤ هـ ، وهشام بن احمد الوقشى المتوفى سنة ٤٨٩ هـ ، ومحمد بن يوسف السرقسطى المتوفى سنة ٥٣٨ هـ وفى عصرنا الحديث شرحه وعلق عليه شيخ أدباء عصره سيد بن على المرصفى بتوجيه من الامام محمد عبده ، وذلك فى كتابه الذى سماه « رغبة الآمل فى شرح الكامل » . وأظهره مطبوعا فى ثمانية أجزاء تعتبر كنزا أدبيا ثمينا .

وقد طبع الكامل فى مصر والخارج أكثر من مرة مما يدل على مبلغ حرص الأدباء والعلماء على اقتنائه والافادة منه . طبع فى المانيا سنة ١٨٦٤ م مع مقدمة له وفهارس متنوعة ، وطبع سنة ١٢٨٦ هـ بالمطبعة العامرة بالقاهرة ، وسنة ١٣٠٨ هـ بالمطبعة الخيرية بالقاهرة ، وسنة ١٢٨٦ هـ بالآستانة ، وسنة ١٨٨١ م فى ليبسك ثم طبع فيها مرة أخرى سنة ١٨٩٢ م وطبع سنة ١٣٢٣ هـ فى مطبعة التقدم بالقاهرة ، وسنة ١٣٥٥ هـ فى مطبعة الحلبى بالقاهرة بتحقيق الدكتور زكى مبارك والاستاذ احمد محمد شاكر ، وفى سنة ١٩٦٣ طبعته المطبعة التجارية الكبرى بالقاهرة .

هذا ، وقد نشرت سلسلة « تراث الانسانية بحثا للاستاذ ابراهيم الأبيارى تحت عنوان « الـكامل للمبرد » نشر فى العدد الأول من المجلد الثالث سنة ١٩٦٥ م ، وكذلك صدر كتاب بعنوان « المختار من كتاب الكامل » وهو من اختيار حسن نصار ومراجعة مصطفى السقا ، وكتب الدكتور محمد عبد الخالق عضيمة بحثـا قيما عنه فى مقدمة كتاب المقتضب الذى تولى نشره المجلس الأعلى للشئون الاسلامية . كما كتب الدكتور أحمد امين بحثا عنه فى كتابه « ضحى الاسلام » الجزء الأول .

ان جميع معاصرى المبرد ، الأصدقاء منهم والأعداء ، وجميع من تلقوا عنه أو تلقوا عن تلاميذه يجمعون على أمر واحد هو أن المبرد كان من أكثر الناس حفظا لآثار العرب وأخبارهم . وآراؤهم هذه يلخصها تلميذه العـالم اللغوى النحوى نفطويه اذ يقـول : « ما رأيت أحفظ لأخبار العرب بغير أسـانيد من المبرد » ويؤيد كلام نفطويه أننا نرى المبرد فى كل كتبه يقول فى أكثر ما يروى : « سمعت بغير وجه » أو « سمعت على غير وجه » وهذا يعنى أنه يعفى نفسه من اسناد الخبر الى راويه أو رواته ، وقد يكون تعليل ذلك أنه لكثرة ما يحفظ يتحرز من الخطأ فى الاسناد . وقد عدوا عليه أخطاء فى اسناد بعض أقوال الى غير قائليها ، وهذا ـ فى رأينا ـ لا يغض من شأنه فانما هو بشر يخطىء ويصيب ، وكتبه ليست كتبا منزلة من دأبها أن تتنزه عن الخطأ . أما الخطأ فى النحو أو اللغة فندر أن تعد عليه شيئا منها . ولقد كان خصومه له بالمرصاد فان عثروا على هفوة منـه شنعوا به شر تشنيع . وقد حكى أبو العباس بن عمار أن المبرد صحف فى كتاب الروضة فى اسم حبيب بن خدرة (بالخاء) فقال : ابن جدرة (بالجيم) ، وفى ربعى ابن حراش (بالحاء) فقال : ابن خراش بالخاء ، وبهذا قال فيه أحمد بن أبى طاهر :

كثرت في المبرد الآداب واستقلت في عقله الألباب
غير ان الفتى ـ كما زعم النا س ـ دعى ، مصحف ، كذاب

أرأيت كيف أن زلة قلم أو زلة لسان أقامت عليه الدنيا ، وأطلقت فيه بالشر ألسن الشعراء ؟ ورحم الله من قال : « كفى المرء نبلا أن تعد معايبه » .

ليس هذا هو الذى وجه الى المبرد من اتهام وحسب ، ولكن هناك شيئا آخر رمى به قديما وحديثا .

قديما اتهمه على بن حمزة فى كتابه « التنبيهات على أغاليط الرواة بأنه كان متعصبا على قبيلة ثمالة فذمها واتهمها بالغدر ، ويستشهد على ذلك بالأبيات التى نسبت اليه والتى أولها :

سألنا عن ثمالة كل حى فقال القائلون ومن ثمالة

وتلك الأبيات نسبها المبرد الى عبد الصمد بن المعذل وقال كما روى فى كتاب « العقد الفريد » : لقد هجانى ببيتين أنضج بهما كبدى .

واتهمه ابن أبى الحديد فى شرحه لكتاب « نهج البلاغة » المنسوب الى الامام على بن ابى طالب بأنه يميل الى رأى الخوارج .

وحديثا اتهمه الأستاذ أحمد أمين فى كتابه « ضحى الاسلام » بأن كتابه « الكامل » يمثل تمثيلا صحيحا نوعا من العصبية القبلية فهو يعلى من شأن الأزد واليمن ، ويعلى من شأن المهلب بن أبى صفرة لأنه يمنى مع أن المهلب متهم بالكذب حتى فى حديث الرسول عليه السلام .

ولقد أحسن الدكتور محمد عبد الخالق عضيمة فى تفنيد هذه التهم وردها ، وتبرئة المبرد من تهمة التعصب ، وذلك فى مقدمة

كتاب « المقتضب » الذى قام بتحقيقه وأشرف على طبعه ويقول الدكتور عضيمة ان المبرد ضمن الكامل شعرا فى مدح آل المهلب ، كما ضمنه شعرا فى هجائهم كقول جرير :

آل المهلب ـ جد الله دابرهم ـ أضحوا رمادا فلا أصل ولا طرف

ويستدل على عدم تعصبه للأزد بأنه فى كتابه « نسب عدنان وقحطان » استنفد ثلثى الكتاب فى الحديث عن العدنانيين ولم يتكلم عن اليمن والأزد الا حديثا موجزا . كما يستدل بأن كتاب الكامل يشتمل على نصوص كثيرة يرويها المبرد فى ذم التعصب . وينفى عنه تهمة الميل الى الخوارج فيقول أنه يفهم من حديثه صراحة أنه كان ينفر من الخوارج ولا يميل الى رأيهم ولم يكن يبغى من تسجيل اخبارهم الا رواية طرف من أدبهم القوى . ثم يقول انه كان فى الفتنة بين على ومعاوية يؤثر الاعتدال والقصد .

أما وقد عرضنا لما وجه اليه من اتهام ، وفندنا التهم بايجاز فقد بقى أن نعرض لكتابه « الكامل » .

وكتاب « الكامل » يعتمد على الرواية وحسن الاختيار وليس فى الكتاب من ثمار قلمه ، ونتاج فكره الا شرحه وتحليله ، وتعليله، ونقده ، وحسن اختياره ، واختيار المرء ـ كما قيل ـ قطعة من عقله .

ومنهج كتاب الكامل لخصه المبرد نفسه فى مطلع مقدمته اذ قال :

« هذا كتاب ألفناه يجمع ضروبا من الآداب ما بين كلام منثور، وشعر مرصوف ، ومثل سائر ، وموعظة بالغة ، واختيار من خطبة شريفة ، ورسالة بليغة ، والنية أن نفسر كل ما وقع فى هذا الكتاب

من كلام غريب ، أو معنى مستغلق ، وأن نشرح ما يعرض فيه من الاعراب شرحا وافيا حتى يكون الكتاب بنفسه مكتفيا » .

وتلك الخطوط التي رسمها فى المقدمة قد حققها تحقيقا كاملا فجاء كتابه مشتملا على :

١ ـ مختارات أدبية من الشعر والنثر والحكم والأمثال .

٢ ـ ايضاحات لغوية .

٣ ـ توجيهات نحوية .

٤ ـ طرائف نقدية .

٥ ـ تعريفات بلاغية تناولت التشبيه وأنواعه ، والاستعارة، والكناية وأقسامها ، والقلب البلاغى ، والالتفات ، والتجريد ، واللف ، والنشر .

وبدأ الكتاب بعرض وصف الرسول عليه السلام لبعض الأنصار اذ قال لهم :

« انكم لتكثرون عند الفزع ، وتقلون عند الطمع » ثم يتبع ذلك بالايضاح اللغوى فيقول : ان الفزع يكون بمعنى الذعر ، وبمعنى الاستنجاد والاستصراخ . فهو بهذا على وجهين . ولكنه يعود فيقول : ويكون أيضا بمعنى الاغاثة .

ويعقب السيد المرصفى على هذا فى « رغبة الآمل » فيقول : كان حقه أن يقول : على ثلاثة أوجه لأنه عاد فأتى بالوجه الثالث .

وفى المبرد سمة المعلم البارع ، والمربى المحنك فهو حين يعرض لشىء من المعانى البعيدة على الأذهان يحاول أن يثبتها فى نفس قارئه أو مستمليه بشواهد طريفة على نحو ما فعل حين عرض لما قاله ابو بكر الصديق رضى الله عنه ساعة حضرته الوفاة معبرا

عن ألمه من المهاجرين الذين غضبوا حين عهد بالخلافة الى عمر فقال له عبد الرحمن بن عوف : « خفض عليك يا خليفة رسول الله فان هذا يهيضك الى ما بك » فقال المبرد وهو يشرح هذا القول :

يهيضك مأخوذ من هيض العظم اذا جبر ثم أصابه شيء يعنته فآذاه فكسره ثانية أو لم يكسره • ويقال عظم مهيض ، وجناح مهيض • ثم يشتق لغير ذلك ، ويعنى معاودة مرض أو هم ، أو حزن مرة بعد أخرى • ولكي يثبت هذا المعنى عند من يتلقى عنه يستطرد فيروى قصة يزيد بن المهلب الذى كان الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز قد سجنه ، ولكنه كسر سجنه وهرب وكتب الى عمر يقول :

« انى والله لو وثقت بحياتك لم أخرج من محبسك ، ولكنك مسموم وأخشى أن يلي الأمر يزيد فيقتلنى شر قتلة » قال : وورد الكتاب الى عمر وبه رمق فقال : « اللهم ان كان يريد بالمسلمين سوءا فالحقه به ، وهضه فقد هاضنى » •

فانظر الى هذا النحو من الاستطراد المحمود الذى كان المبرد يعمد اليه كثيرا ليفيد معنى أدبيا ، أو خبرا تاريخيا ، ويثبت المراد من كلمة خاصة •

وفى مكان آخر يعرض للغة فيقول :

يقال : برىء يبرأ (بكسر الراء فى الماضى وفتحها فى المضارع) وبرأ يبرأ ويبرؤ مثل فرغ يفرغ ويفرغ (بفتح الراء فى الماضى ، وفتحها أو ضمها فى المضارع) ولهذا فان آية « سنفرغ لكم أيها الثقلان تقرأ على وجهين (أى بفتح الراء وضمها) • ثم يعود فيعرض نص عهد أبى بكر عند موته ، وهو العهد الذى أشار اليه آنفا ، : « هذا ما عهد به أبو بكر خليفة محمد رسول الله صلى الله

عليه وسلم عند آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة ، فى الحال التى يؤمن فيها الكافر ، ويتقى فيها الفاجر . انى استعملت عليكم عمر بن الخطاب فان بر وعدل فذلك ظنى به ورأيى فيه ، وان جار وبدل فلا علم لى بالغيب ، والخير أردت ، ولكل امرىء ما اكتسب ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » .

وأتبع المبرد هذا النص بتوضيح اعراب كلمة « أى » التى وردت فى الآية الكريمة التى ختم بها العهد فقال :

أى هنا منصوبة بقوله ينقلبون (نائبة عن المفعول المطلق) وليست منصوبة على أنها مفعول سيعلم ، لأن أدوات الاستفهام اذا كانت أسـماء لا يعمل فيها ما قبلهـا ، كما يمتنع ما بعد همزة الاستفهام من أن يعمل فيه ما قبله . فتقول : علمت زيدا منطلقا ، فان ادخلت همزة الاستفهام قلت : علمت أزيد منطلق أم لا ، وكلمة أى بمنزلة زيد ، وقد قال الله تعالى : (لنعلم أى الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا » وقال : « فلينظر أيها أزكى طعاما » وأنت تقول : أيهم ضرب زيد ، بضم كلمة أى فى كل . وتقول : اعلم أيهم ضرب زيدا، على أن زيدا مفعول ضرب ، وأى مبتدأ . وتقول : أعلم أيهم ضرب زيد ، على أن أى مفعول ضرب وزيد هو الفاعل .

وهو بهذا يقعد قاعدة نحوية يعرضها واضحة لا لبس فيها ، ولا تحتمل تأويلا .

ثم يعرض لرسالة عمر الى ابى موسى الأشـعرى حين ولاه القضاء ، ومنهـا قوله : « المسلمون عدول بعضهم على بعض ، الا مجلودا فى حد ، أو مجربا عليه شهادة زور ، أو ظنينا فى ولاء أو نسب » .

ويقدم للرسالة بحكم أدبى عليها يعتبر نموذجا من نمـاذج النقد الأدبى فيقول انه رضى الله عنه « جمع فيها جمل الأحكام ،

واختصرها بأجود الكلام ، وجعل النـــاس يتخذونها بعده اماما ، ولا يجد محق عنها معدلا » ٠

وبعد هذا الحكم الأدبى أخذ فى الشرح فقال فى كلمة ظنين :

الظنين هو المتهم ، وأصله مظنون أى انه فعيل بمعنى مفعول٠ وهى من ظننت التى تتعدى الى مفعول واحد ٠ تقول : ظننت زيدا أى اتهمته ٠ وفى بعض المصاحف « وما هو على الغيب بظنين » يعنى قراءة مسعود ، وفى القراءات الأخرى « وما هو على الغيب بضنين »

ومن نماذج المحاورات الأدبية الوجيزة يقول :

« روى عن قنبر مولى على بن ابى طالب أن عثمان بن عفان اجتمع فى خلوة مع على بن أبى طالب وجعل يعـــاتبه ٠ فقـــال له عثمان : ما بالك لا تقول ؟ فقال : ان قلت لم أقل الا ما تكره ، وليس لك عندى الا ما تحب » ٠

ثم يعرض نصا مختارا من خطب الامام على رضى الله عنه حين بلغه أن خيلا لمعاوية وردت الأنبار وقتلت عاملا له اسمه حســـان ابن حسان :

« أما بعد ، فان الجهاد باب من أبواب الجنة فمن تركه رغبـة عنه ألبسه الله الذل ، وسيما الخسف ، وديث بالصـــغار ٠ وقد دعوتكم الى حرب هؤلاء القوم ليلا ونهارا ، وسرا واعلانا ، وقلت لكم : اغزوهم قبل أن يغزوكم ، فوالذى نفسى بيده ما غزى قوم فى عقر دارهم الا ذلوا ، فتخاذلتم وتواكلتم ، وثقل عليكم قولى ، واتخذتموه وراءكم ظهريا حتى شنت عليكم الغارات ٠٠٠ »

ثم مضى المبرد يشرح بعض الكلمات ، فكان مما قال :

« سيما الخسف : هكذا حدثونا ، وأظنه سيم الخسف من قول الله عز وجل « يسومونكم سوء العذاب » ٠ ومعنى قوله سيما

الخسف تأويله علامة ، هذا أصل ذا • قال الله عز وجل « سيماهم في وجوههم من أثر السجود » • وقال عز وجل « يعرف المجرمون بسيماهم » • وقال أبو عبيدة في قوله عز وجل « مسومين » بوزن اسم الفاعل أى معلمين ، وضعوا لأنفسهم علامة يعرفون بها واشتقاقه من السيما التى ذكرنا • ومن قال « مسومين » بصيغة اسم المفعول فانما أراد مرسلين من الابل السائمة أى المرسلة فى مراعيها • وقال المفسرون فى قوله تعالى « والخيل المسومة » القولين جميعا من العلامة والارسال • وأما قوله تعالى : « حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك » فلم يقولوا الا قولا واحدا ، قالوا : معلمة ••• »

وفى كلمة حسان قال :

« من أخذ حسانا من الحسن صرفه لأنه وزن فعال فالنون منه فى موضع الدال من حماد (يعنى أن النون أصيلة) • ومن أخذه من الحس لم يصرفه لأنه حينئذ فعلان فلا ينصرف فى المعرفة ، وينصرف فى النكرة لأنه ليست له فعلى فهو بمنزلة سعدان وسرحان » •

ثم قال : « وقوله ديث بالصغار تأويله ذلل ، يقال للبعير اذا ذللته الرياضة بعير مديث أى مذلل • وقوله فى عقر دارهم أى أصل دارهم ، والعقر الأصل ، ومن ثم قيل : لفلان عقار أى أصل مال ••• »

ثم قال : « وقوله تواكلتم انما هو مشتق من وكلت الأمر اليك ووكلته أنت الى أى لم يتوله واحد منا دون صاحبه ولكن أحال به كل منا على الآخر • وقوله اتخذتموه وراءكم ظهريا أى لم تلتفتوا اليه • ويقال : لا تجعل حاجتى منك بظهر أى لا تطرحها غير ناظر

اليها • وقوله : شننت عليكم الغارات أى صببت يقال : شننت الماء على رأسه أى صببته وشننت الشراب فى الاناء أيضا صببته » •

وهكذا نراه يعرض النص فيستقصى كلماته ، ويعرض المعانى عرضا واضحا ، ويبسط القاعدة النحوية ما وجد سبيلا اليها ، كما يضع قواعد للنقد كلما سنحت ملابسة فنراه فى أكثر من موضع يشيد بالاختصار المفهم ، والاطناب المفخم ، والايماء الذى يغنى عند ذوى الألباب عن الكشف •

ومن أقواله فى النقد : قد يغتفر السيىء للحسن ، والبعيد للقريب •

ومن رأيه أن الكلام يكون بليغا بالألفاظ البينة ، القريبة ، المفهمة ، الحسنة الوصف الجميلة الرصف • ويمثـل لهذا بقول الحطيئة :

وذاك فتى ان تأته فى صنيعة　　الى ما له لم تأته بشـفيع

وبقول عنتره :

يخبرك من شهد الوقيعة أننى　　أغشى الوغى ، وأعف عند المغنم

وبقول زهير :

على مكثريهم حق من يعتريهم　　وعند المقلين السـماحة والبذل

ثم مثل لأقبح الضرورات ، وأهجن الألفاظ ، وأقبح المعانى بقول جرير :

وما مثله فى النـاس الا مملكا　　أبو أمه حى أبوه يقـاربه

وقال : انه دل على أن الممدوح خال الملك ، ولكنه دل عليـه بهذا اللفظ البعيد ، وهجنه بما أوقعه فيه من التقديم والتأخير • وهكذا قال كل النقاد من بعده •

ومن آرائه فى النقد قوله :

كان أبو العتاهية لا يكاد يخلو شعره مما تقدم من الأخبار والآثار فينظم فى ذلك الكلام المشهور ، ويتناوله أقرب متناول ، ويسرقه أخفى سرقه · وقد قال فى الرثاء :

بكيتك يا أخى بدمع عينى فلم يغن البكاء عليك شيا
كفى حزنا بدفنك ، ثم انى نفضت تراب قبرك من يديا
وكانت فى حياتك لى عظات وأنت اليوم أوعظ منك حيا

فقوله « وأنت اليوم أوعظ منك حيا » انما أخذه من قول الموبذ لقباذ الملك حين مات فانه قال فى ذلك الوقت : كان الملك الأمس أنطق منه اليوم ، وهو اليوم أوعظ منه أمس ·

ثم قال المبرد : وقول أبى العتاهية أيضا :

قد لعمرى حكيت لى غصص المو ت وحركتنى لها وسكنتا

قد أخذه من نادب الاسكندر فانه لما مات بكى من بحضرته ، فقال نادبه : « قد حركنا بسكونه » · وقد علق السيد المرصفى فى « رغبة الآمل » على هذا بقوله : ان الشاعر أخذ المعنى من كلام الفلاسفة لما حضروا موت الاسكندر ، أما قباذ فليس له من أثر جليل ولا عمل جميل · وكل ما عمله أنه استباح الحرمات ، وهتك الأعراض اتباعا لمزدك الزنديق الذى ظهر فى أيامه ·

وفى قول أبى العتاهية :

يا عجبا للناس لو فكروا وحاسبوا أنفسهم أبصروا
وعبروا الدنيا الى غيرها فانما الدنيا لهم معبر

قال المبرد : البيت الأول مأخوذ من الحكمة الشائعة التى تقول : « الفكرة مرآة تريك حسنك من قبيحك » · والبيت الثانى

مأخوذ من قول الحسن البصرى : « اجعل الدنيـــا كالقنطرة تجوز عليها ولا تعمرها » . ثم قال : والمعبر بفتح الميم اسم للشط المهيأ للعبور وبكسر الميم اسم لما يعبر به الانسان النهر كالفلك والقنطرة. وبذلك وضح الفرق بين اسم المكان واسم الآلة .

ثم قال : وقول أبى العتاهية :

ما بال من أوله نطفـــة وآخره جيفـــة يفخر ؟

مأخـــوذ من قول الامام على « ما ابن آدم والفخر ؟ انما أوله نطفة ، وآخره جيفة . لا يرزق نفسه ، ولا يدفع حتفه » .

وعرض أبياتا للشاعر نصيب فى المدح وقال :

هذا باب فى المدح حسن ومبتدع لم يسبق اليه ، ولكنه ليس بأجود من قول الفرزدق فى الفخر ، وان كان التفاضل بين الشيئين لا يستقيم الا اذا تناسبا (يعنى أن يكون موضوعهما واحدا) .

وروى أن ابن أبى عيينة قال :

ما راح يوم على حى ولا ابتكرا الا رأى عبرة فيـــه ان اعتبرا
ولا أتت ساعةفىالدهر فانصرمت حتى تؤثر فى قول لهـــا أثرا
ان الليـــالى والأيام أنفســـها عن غير أنفســـها لم تكتم الخبرا

وبعد أن روى هذه الأبيات قال ان أبا تمام حبيب بن اوس الطائى أخذ هذا المعنى فقال :

عمرى لقد نصـــح الزمان ، وانه لمن العجائب ناصح لا يشـــفق

ولكنه جمع المعنى فى ألفاظ يسيرة ، وزاد شيئا طريفا وهو قوله : « ناصح لا يشفق » وهكذا يفعل الحاذق بالكلام .

وفى ضرورات الشعر وما يجوز للشاعر يقول : « للشاعر اذا اضطر أن يجعل الممدود مقصورا ، ولكن ليس له ان يجعل المقصور ممدودا وذلك أن الممدود قبل آخر الف زائدة فاذا حذفها رد الشيء الى أصله ، لو مد المقصور لكان زائدا فى الشيء عن أصله .

وهكذا يستقصى المبرد المعانى التى يتناولها الشعراء ، ويفرق بين الأصيل منها والمولد ، وقد وضع بذلك أساسا لما سماه النقاد « باب السرقات الشعرية » ان لم يكن هو أول من نبه الأذهان اليه فقد أثار الاهتمام به .

وكتاب الكامل حافل بالاستقصاءات اللغوية فمن ذلك مثلا :

يقال : فشل فلان عن كذا اذا هابه فنكل عنه وامتنع عن المضى فيه .

ويقال : اعتبط الرجل (بالبناء للمجهول) أى مات شابا من غير مرض . وأصل العبيط الطرى من كل شيء ومن اللحم الذى لم ينضج ، أو من الدم قبل أن يتجمد .

وأجرى كلاما عن التزوج من غير العربيات وأنشد بيتى الرقاشى السابق ذكرهما (صفحة ١٢)

ان أولاد السرارى ...

ثم قال : الهجين عند العرب هو الذى يكون أبوه شريفا وأمه وضيعة . والأصل فى ذلك أن تكون أمة (جارية مشتراة) . أما اذا كانت الأم كريمة ، والأب خسيسا قيل له : المذرع أو المقرف وروى أن عبد الملك بن مروان قيل له : ما المروءة ؟ فقال : موالاة الاكفاء ، ومداجاة الأعداء ، ثم قال : المداجاة هى المداراة . أى لا تظهر لأعدائك ما عندك من العداوة ، وأصله من الدجى وهو ما ألبسك الليل من ظلمته .

ثم روى قول الشماخ بن ضرار :

اذا ما راية رفعت لمجـــد   تلقـــاها عرابة باليمين

وقال : باليمين أى بالقوة • ومثـــل ذلك قول الله تعـــالى « والسموات مطويات بيمينه » •

وتحدث فى الكامل عن الخوارج ومذهبهم وشيعهم وحروبهم، وأفاض فى مواقعة المهلب بن ابى صفرة لهم ، وذكر عيون أبيات الشعر التى قيلت فى كل ذلك ، وشرح غامض الفاظها ، وعرض لما يستحق النظر من الاعراب فيها ، ومن ذلك قوله : قال رجل من الخوارج فى موقعة سولاف :

وكائن تركنا يوم سولاف منهم   أسارى وقتلى فى الجحيم مصيرها

ثم أخذ يوضح كلمة « كائن » فقال :

كائن معناه كم ، وأصله كاف التشبيه دخلت عليه أى وكتب تنوينها نونا وصارتا بمنزلة كم • ثم يستطرد فيقول : ونظير ذلك قولك « له كذا وكذا درهما • فكلمة كذا هى : ذا ودخلت عليهـــا الكاف ، والمعنى له كهذا العدد من الدراهم • فاذا قال : « له كذا كذا درهما » فهى كناية عن دراهم تنحصر فيما بين أحد عشر وتسعة عشر درهما • وان قال : « له كذا وكذا درهما » كان كناية عن عدد يجوز فيه العطف (من واحد وعشرين الى تسعة وتسعين عدا ألفاظ العقود) ثم عاد الى « كائن » فقال : كثر استعمالها فخففت ، ولكن التثقيل هو الأصل • قال الله تعالى « وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة ثم أخذتها ـ وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير » •

وفى موضوع الخوارج عنى بالرســائل التى تبودلت خـــلال حروبهم مع الدولة ، وعنى بذكر طرائف القصـــص والنوادر التى

جرت • واستغرق ذلك حيزا كبيرا من الكتاب جعل من يتلمسون العيوب فيه يرمونه بالتعصب للخوارج •

وخصص بابا لعرض نماذج من الخطب والمواعظ والتحميدات الوجيزة البليغة ، وكان مما اختاره :

ـ خطبة أبى طالب عم النبى حين تقدم ليخطب له السيدة خديجة • قال :

« الحمد لله الذى جعلنا من ذرية ابراهيم ، وزرع اسماعيل ، وجعل لنا بلدا حراما ، وبيتا محجوجا ، وجعلنا الحكام على الناس• ثم ان محمد بن عبد الله ابن أخى من لايوازن به فتى من قريش الا رجح عليه برا وفضلا وكرما وعقلا ومجدا وجلالا ، وان كان فى المال قل فانما المال ظل زائل ، وعارية مسترجعة • وله فى خديجة بنت خويلد رغبة ، ولها فيه مثل ذلك ، وما أحببتم من الصداق فعلى » •

ـ قال الحسن البصرى يعزى الأشعث بن قيس :

« ان صبرت جرى عليك القدر وأنت مأجور ، وان جزعت جرى عليك القدر وأنت مأزور » •

ـ لما عقد معاوية ولاية العهد لابنه يزيد أقعده فى قبة حمراء وأقبل الناس يسلمون على معاوية ثم يميلون الى يزيد ، حتى جاء رجل ففعل ذلك ثم رجع الى معاوية فقال :

يا أمير المؤمنين أعلم انك اذا لم تول هذا أمور المسلمين لأضعتها • هذا والأحنف جالس فقال له معاوية : ما بالك لا تقول يا أبا بحر ؟ قال : أخاف الله ان كذبت ، واخافكم ان صدقت • فقال له معاوية : جزاك الله عن الطاعة خيرا ، وأمر له بألوف • فلما خرج الأحنف لقيه الرجل بالباب فقال : يا أبا بحر انى لأعلم أن

شر من خلق الله هذا وابنه ، ولكنهم قد استوثقوا من هذه الأموال بالأبواب والأقفال فلسنا نطمع فى استخراجها الا بما سمعت ٠ فقال له الأحنف : يا هذا امسك فان ذا الوجهين خليق الا يكــون عند الله وجيها ٠

ـ احتضر عمرو بن العاص فدخل عليه ابن عباس وقال له :

يا أبا عبد الله كنت تقول أشتهى أن أرى عاقلا يموت حتى أسأله كيف يجد ، فكيف تجدك ؟

قال : أجد السماء كأنهــا مطبقة على الأرض وأنا بينهمــا ، وأرانى كآنما أتنفس من خرت (ثقب) ابرة ٠ ثم قال : اللهم خذ منى حتى ترضى ٠ ثم رفع يديه وقال : اللهم أمرت فعصينا ، ونهيت فركبنا ، فلا برىء فأعتذر ، ولا قوى فأنتصر ، ولكن لا اله الا الله قالها ثلاثا ثم فاظ ٠

ويتضمن كتاب الكامل أيضــــا كثيرا من الأمثال ، يذكرهــا ويشرحها ٠ ومن ذلك :

عش ولا تغتر : يقول ان هذا المثل أصله أن العربى قد يمــر بأرض مكلئة فيتركها أمــــلا فى أن يرد على أخرى وهو لا يدرى ما يرد عليه ٠

ثم قال : وقريب منه « أن ترد الماء بماء أكيس » وتأويله أن يمر الرجل بالماء فلا يحمل منه اتكالا على ماء آخر يصير اليه ، فيقال له : أن تحمل الماء معك أحزم لك فان أصــــبت ماء آخر لم يضرك ما معك ، وان لم تحمله فربما لا تجد ماء فتعطب ٠

ويستعرض المبرد فى كتاب « الكامل » ما تبودل بين معاوية بن أبى سفيان وعلى بن ابى طالب منذ بدأ الشقاق بينهما على الخلافة بعد مقتل عثمان ، وتناول كل كلمة غريبة بالشرح والايضـــاح ،

وكلما وردت اشارة الى حادثة أفصح عنها وبسط جوانبها ، ثم يستخرج مسائل النحو وأوجه الاعراب في غوامض الكلمات والتركيبات .

وفي باب من أبواب « الكامل » يقول :

نذكر في هذا الباب من كل شيء شيئا لتكون فيه استراحة للقارىء ، وانتقال ينفي الملل لحسن موقع الاستطراف ، ونخلط ما فيه من الجد بيسير من الهزل ليستريح القلب ، وتسكن اليه النفس .

ثم يمضي فيسرد طرائف أدبية رائعة يوضح مناسبها ، ويشرح غامض ألفاظها ، ويعرض لغريب النحو فيها .

ومن الطرائف التي رواها واتخذ من غريب الفاظها درسا في اللغة والنحو قصة ذات مغزى اجتماعي فحواها ان صرافا أفلس لأن الذين أودعوا أموالهم لديه ألحوا في طلبها ، والذين اقترضوا منه تعذر عليه أن يحصل منهم . ولكي يخرج من هذا المأزق لجأ الى جيرانه ليذهبوا معه الى رجل من سلالة أجواد قريش عرف عنه أنه واسع الثراء ، وذهب معه هؤلاء الجيران الى القرشي الثرى ، فلما عرضوا عليه حاجتهم قام يمشي في عظمة ، وأخذ ينشد أبياتا من الشعر معناها أن خير أوجه صرف المال أن يكون صنيعة في الله ، أو أن يقدم الى صديق يحبك وتحبه ، والا كان الضن به حزما وقوة ، وكان صرفه سفها وضعفا . ثم قال لهم : اننا نصرف فضول أموالنا في حقوق واجبة ، وليس منها أن نعين كل من أفلس من الصيارفة . قوموا عنا يرحمكم الله

ومن الطرائف التي رواها ما قصد به الاشارة الى تفضيل الأدب على المال فقال :

يروى عن بعضهم أنه قال : انى أحب البقاء ، وكالبقاء عندى حب الثناء ·

وقال معاوية لابن الأشعث بن قيس : ما كان جدك قيس بن معد يكرب أعطى الأعشى ؟

فقال : أعطاه مالا وظهرا ورقيقا ، وأشياء أخر لا أذكرها · فقال معاوية : لكن ما أعطاكم الأعشى لا ينسى ·

وقال عمر بن الخطاب لابنة هرم بن سنان : ما وهب أبوك لزهير ؟ فقالت : أعطاه مالا وأثاثا أفناه الدهر · فقال عمر : لكن ما أعطا كموه زهير لم يفنه الدهر ·

وروى أن أبا العتاهية كان قد رجا أن يؤذن له فى تقديم هدية الى أمير المؤمنين فى النيروز ، فلما أذن له قدم برنية (جرة) وأبو العتاهية كان يصنع الجرار يبيعها ، وفى داخل البرنية ثوب ناعم مطيب ، قد طرزت حواشيه بالبيتين التاليين :

نفسى بشىء من الدنيا معلقة ... الله والقائم المهدى يكفيها
انى لأيأس منها ثم يطمعنى ... فيها احتقارك للدنيا وما فيها

وفهم الخليفة أنه يرمز الى جاريته عتبة التى كان أبو العتاهية يتعشقها ، ولذلك هم بدفع عتبة اليه لولا أنها جزعت وقالت : يا أمير المؤمنين حرمتى وخدمتى ! أتدفعنى الى رجل قبيح المنظر ، بائع جرار ، متكسب بالعشق ؟ فأعفاها الخليفة وقال : املئوا له الجرة مالا · فقال أبو العتاهية للكتاب : أمر لى بدنانير · فقالوا : ماندفع ذلك ولكن اذا شئت أعطيناك دراهم الى أن يفصح الخليفة بما أراد · فظل أبو العتاهية على ذلك حولا · فقالت عتبة : لو كان عاشقا كما يزعم ماكان ليختلف حولا كاملا فى التمييز بين الدراهم والدنانير ويضرب عن ذكرها صفحا ·

ومن الفكاهات التى رواها للترويح ان رجلا يدعى أبا الحارث جميز دعته واحدة كان يحبها ليزورها ، فلما ذهب اليهـــا ظلت تحادثه ولا تذكر الطعام • فلما طال به ذلك قال لها : جعلنى الله فداءك • لم أسمع منك للغداء ذكرا • فقالت : أما تستحى ؟ أما فى وجهى ما يشغلك عن ذاك ؟ قال لها : جعلنى الله فداءك ، لو أن جميلا وبثينة قعدا ساعة لا يأكلان شيئا لبزق كل منهما فى وجه الآخر وافترقا •

وروى عن أبى عبيدة من غير وجه أن نافع بن الأزرق ســـأل ابن عباس فقال : أرأيت نبى الله سليمان مع ما خوله الله وأعطاه كيف عنى بالهدهد على قلته وضؤولته ؟ فقال ابن عباس : انه احتاج الى الماء ، والهدهد قناء (عليم بمواضع الماء) ، والأرض له كالزجاجة يرى باطنها من ظاهرها ، فسأل عنه لذلك • قال ابن الأزرق : قف يا وقاف كيف يبصر تحت الأرض والفخ يغطى له بمقدار اصبع من التراب فلا يبصره حتى يقع فيه ؟ فقال ابن عباس : ويحك يا بن الأزرق ، أما علمت أنه اذا جاء القدر عشى البصر !

ويتضمن كتاب « الكامل » كثيرا من روائع الحكم والنصائح التى تهذب النفس ، وتسمو بالروح ، وتهذيب النفس وصـــفاء الروح الزم ما يلزم للأديب ليكون أديبا صـــادقا ، ونحسب أن ما تضمنه كتاب « الكامل » من هذا كان من أسباب اعتباره ركنا من أركان الأدب • ومن أمثلة ما اشتمل عليه « الكامل » من ذلك :

يروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : ألا أخبركم بشراركم ؟ قالوا : بلى ، قال : من أكل وحده ومنع رفده ، وضرب عبده ، ألا أخبركم بشر من ذلكم ؟ قالوا : بلى ، قال : من لا يقيل عثرة ، ولا يقبل معذرة ولا يغفر ذنبا • ألا أخبركم بشر من ذلكم ؟ قالوا : بلى • قال : من يبغض الناس ويبغضونه •

ويروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم ، والمرء كثير بأخيه ·

وقال على بن أبى طالب : من لانت كلمته وجبت محبته ، وقال : قيمة كل امرىء ما يحسن ·

وقال عمر بن الخطاب : ثلاث يثبتن لك الحب فى صدر أخيك: أن تبدأه بالسلام ، وتوسع له فى المجلس ، وتدعوه بأحب الأسماء اليه ·

وقال بعض الملوك يمتحن بعض وزرائه : ما خير ما يرزقه العبد ؟ قال : عقل يعيش به ، قال : فان عدمه قال : فأدب يتحلى به · قال : فان عدمه ؟ قال : فمال يستره · قال : فان عدمه ؟ قال: فصاعقة تحرقه فتريح منه العباد والبلاد ·

هذا تعريف بالأثر الأدبى الخالد الذى خلفه لنا المبرد ، والذى يجب على كل دارس للعربية أن يحرص على قراءته ، والافادة منه فانه كما قال ابن خلدون بحق ركن هام من أركان الأدب · هذا واستعرض فيما يلى موازنة يسيرة بين المبرد وكتابه « الكامل » وابن قتيبة وكتابه « عيون الاخبار » ·

بين المبرد وابن قتيبة

ابن قتيبة هو العالم الأديب الناقد أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة ، الفارسى الأصل ، ولد فى بغداد أو الكوفة سنة ٢١٣ هـ من أبوين مسلمين متعربين • وتوفى سنة ٢٧٦ هـ •

وقد كان معاصرا للمبرد ، وقضى كل منهما شطرا من حياته فى مدينة بغداد حيث كانت هذه المدينة حاضرة الدولة العباسية الوارفة الظلال ، الغاصة بالمتعلمين والعلماء ، الحافلة بالمتأدبين والأدباء ، وملتقى الخاصة والعامة •

وابن قتيبة كان عالما حجة ثبتا قديرا ، له آثار عظيمة رائعة تناولت فنونا مختلفة من المعرفة أهمها كتاب « عيون الأخبار » •

ويذكر الأدباء أن هذا الكتاب قد خطا بكتب المختارات الأدبية خطوات واسعات نحو الكمال ، وذلك أنه رتب المختارات وبوبها ، وجمع ما تشابه منها تحت عنوان واحد ، مثل كتاب السلطان وكتاب الحرب وكتاب الطعام وكتاب النساء •• وبذلك يسهل على الباحث أن يجد ضالته فى غير عناء ، وهو حين يتناول الموضوع يستقصيه استقصاء شاملا ، فاذا تحدث عن السلطان مثلا يتكلم عن صحبته ، وآدابها ، واتقاء شره ، واختيار عماله

وكتابه وبطانته ، وغير ذلك ، موردا فى ثنايا ذلك المأثور من القول الحكيم ، والشعر الرائع ، والنادرة اللطيفة ، والفكاهة البارعة .. كل ذلك فى تنسيق بديع ، ولا ينتقل من نقطة الى أخرى من غير أن يرشح لها باستطراد مناسب » (١) وهذا ما لم يفعله المبرد فى كتابه « الكامل » الذى غلب عليه الاستطراد ، وخلا من التنظيم والتبويب والتنسيق .

وهذه هى الحقيقة التى لامراء فيها ،

والذى يثير التساؤل هو ذلك التفاوت البين بين هذين العملين العظيمين مع وجود صاحبيهما فى عصر واحد .

وقد رأى بعض الأدباء أن السبب فى ذلك يرجع الى الاصل الأعجمى والثقافة الفارسية ، فابن قتيبة بأصله الفارسى وثقافته الأعجمية يمثل الثقافة الاسلامية ، أما المبرد بأصله العربى الخالص فانه يمثل الثقافة العربية الخالصة التى لم تهذبها الثقافات الأجنبية وهذه فى الواقع احدى وجهات نظر المستشرقين الذين لا يقدرون العرب حق قدرهم ، وينسبون كل فضل ظهر فيهم للأعجميين .

فالأدباء الذين يذكرون فضل ابن قتيبة يجعلون من مفاخره ان معارفه مطعمة بأقوال فارسية وحكم هندية وثقافات يونانية ، وهذه الثقافة هى التى أوحت اليه ترتيب مختاراته وتنسيقها ، فى حين ان المبرد فى كتابه « الكامل » وأستاذه الجاحظ فى كتابه « البيان والتبيين » لم يحفلا بالتبويب والتنظيم والتنسيق .

ولكن ، هل من الضرورى اذا ما تواجد اثنان فى عصر واحد

---

(١) ابن قتيبة ـ سلسلة اعلام العرب ـ للدكتور عبد الحميد سند الجندى ص ١٢٣ .

أن يتفقا فى المنهج والرأى ؟ لا ، فليس من شرط المعاصرة أن يتفق المتعاصران فى كل شيء ، وأن يكون كل منهما صورة من الآخر ، فقد يتعاصر الشاعران ويتجه كل منهما اتجاها يغاير اتجاه الآخر، ويتعاصر العالمان ويعنى كل منهما بفرع من فروع المعرفة ، فليس غريبا أن يتعاصر ابن قتيبة والمبرد ويختلف اتجاههما فى التأليف .

وليس من أسباب الاختلاف بين هذين الأديبين والبارعين اختلاف الثقافة ، فمنذ عصر الرشيد ظهرت نهضة واسعة فى ترجمة الآداب والعلوم الأجنبية بلغت قمتها فى عصر المأمون ، وأفاد منها العرب والمتعربون على السواء ، ولا نحسب المبرد قد فاته ان ينهل منها مذ كان طالبا ، مجدا ، واعيا ، قوى الذاكرة ، مرموقا من أساتذته وكل من حوله ، أو مذ صار العالم المعلم البارع الذى يتزعم أحد مذهبين سادا العالم العربى وهما مذهب البصريين ومذهب الكوفيين .

والجاحظ نفسه قد أفاد من ثقافة اليونانيين وهو أستاذ المبرد بدليل ما جاء فى كتاب الدكتور الجندى (١) عند موازنته بين الجاحظ وابن قتيبة فقد ذكر أن ابن قتيبة كان يضع مؤلفاته لغرض التعليم والافادة ، والجاحظ يتخير موضوعات مؤلفاته مما يجذب الناس ويدخل فى نفوسهم الامتاع والتسلية ، ولهذا كانت كتبه خليطا من كل فن ، ثم قال : « ولا شك أن ثقافة الجاحظ اليونانية كانت أضخم مما عرف ابن قتيبة » فالجاحظ اذن قد اتسعت ثقافته اليونانية ، ومع اتساع هذه الثقافة شاعت الفوضى فى كتبه ، وقد تأثر المبرد بها ، ولو كان الأمر أمر ثقافة أجنبية لبرئت كتب الجاحظ وكتب المبرد مما وصفت به .

---

(١) المرجع السابق .

ان الحق فى هذه القضية أن كتاب « عيون الأخبار » يختلف نظاما وترتيبا عن كتاب « الكامل » ولكن ليس السبب هو الأصل الأعجمى والأصل العربى ، أو الثقافة الأجنبية والثقافة العربية الخالصة ، ولكن السبب الأصيل هو طبيعة كل من الكتابين ، فابن قتيبة يقول فى مقدمة كتابه « عيون الأخبار » هذه عيون الأخبار نظمتها لمغفل التأدب تبصرة ، ولأهل العلم تذكرة ، ولسائس الناس ومسوسهم مؤدبا ، وللملوك مستراحا من كد الجد والتعب ، وصنفتها أبوابا ، وقرنت الباب بشكله ، والخبر بمثله ، والكلمة بأختها ليسهل على المتعلم علمها ، وعلى الناشد طلبها ، جمعت لك منها ما جمعت لتأخذ نفسك بأحسنها ، وتصل بها كلامك اذا حاورت وبلاغتك اذا كتبت ، وتستنجح بها حاجتك اذا سألت ، وتتلطف فى القول ان نفعت ، وتخرج من اللوم بأحسن عذر اذا اعتذرت ٠٠»

فهو منذ البداية يقرر أن كتابه سيكون ما يسمونه « المعلم بدون معلم » أو سيكون معجما لموضوعات كانت لازمة فى عصره غايتها أن يسهل على المريد طلبها ، فهو يضع بابا يعين المحاور على المحاورة ، أو يعين كاتب الرسائل على البلاغة ، أو يعين المعتذر على حسن الاعتذار ، أو السائل على التلطف فى المسألة ٠٠ وهكذا ٠

وطبيعة كتاب كهذا لا بد أن يكون كل باب فيه يتناول موضوعا بذاته ، وهذا تنسيق منطقى مصدره طبيعة الكتاب وليست الثقافة الأجنبية أو الأصل الأعجمى ٠

أما المبرد فيقول فى مقدمة كتاب « الكامل » : ــ « هذا كتاب ألفناه يجمع ضروبا من الآداب ما بين كلام منثور ، وشعر مرصوف ومثل سائر ، وموعظة بالغة ، واختيار من خطبة شريفة ، ورسالة بليغة ٠

« والنية فيه أن نفسر كل ما وقع فى هذا الكتاب من كلام

غريب أو معنى مستغلق وأن نشرح ما يعرض من الأعراب شرحا وافيا ٠٠ »

واذن فكتاب « الكامل » كما تقول مقدمته مختارات من الأدب الجيد المشتمل على كلام غريب ، ومعنى غامض ، وغايته أن يغذى طالب الأدب بهذه النصوص الجيدة ، وأن يبصر المتعلم باللغـــة ، فيشرح له الكلمات الغامضة شرحا مستفيضا ، ويبصر طالب الأدب بالمعانى الغامضة لتتضح له ويقيس عليهـــا غيرها ، ويبصر طالب النحو بشرح اعراب الكلمات الغريبة شرحا وافيا ، وعلى هذا فهو ليس كتاب لغة وحسب فيأتى به مرتبا ترتيب المعـــاجم ، وليس كتاب نحو خالصا فيأتى به مبوبا كتبويب كتابه « المقتضب » وليس مجرد مختارات من الشعر والنثر فيسوقها مرتبة ترتيبا طبقيـــا أو زمنيا ، وانما الكتاب فى حقيقته دروس كان يمليها فى حلقـة درسه ، فيختار فى كل درس نصا من النثر أو الشعر يتولاه بالشرح والتحليل ، وتدعوه الكلمة أو العبارة أو المعنى الى الاســـتطراد ، فينتقل من الخطبة الى الشعر ، ومن الشعر الى المثل ، ومن المثل الى الحكمة وهكذا ، واحيانا كان ــ كشأن كل معلم بارع ــ يحس بكلال سرى الى أذهان المتحلقين حوله فينشط أذهانهم برواية فكاهة ، أو نادرة ، أو قصة مستملحة يستروحون بهـــــا ، وفى الوقت ذاته يفيدون مما تضمنته من كلمات غريبة أو معان بعيدة ٠

فكتاب « الكامل » كان دروسا تملى فى حلقة الدرس ، ولهذا فان النسخة التى وصلت الينا كانت رواية مستمليها وهو تلميذه النابغ « أبو الحسن على بن سليمان الأخفش » ٠

ولسنا نبغى من كل هذا الا أن ننفى عن المبرد ما وصف به من الفوضى فى التأليف ، فطبيعة كتاب « الكامل » هى التى اقتضت الحال أن يصل الينا بها ، والتى جعلت ناقديه يصفونه بالفوضى ٠

أما خلو هذا الكتاب من أن يطعم بالأقوال الفارسية أو الحكم الهندية أو الثقافات اليونانية فليس نتيجة قصور . ولكن لأن الكتاب يحتاج الى نصوص عربية خالصة تكون مجالا للشرح وللاعراب ، ولم يكن يعرض للأقوال المترجمة الا حين ينقد شعرا فيبين أن معناه مستمد من قول أعجمى على نحو ما فعل وهو ينقد قول أبى العتاهية : ـ

وكانت فى حياتك لى عظات وأنت اليوم أوعظ منك حيا

فقد أشار الى أن هذا مأخوذ من قول بعض الأعاجم يندب مليكه فيقول : ـ « كان الملك بالأمس أنطق منه اليوم ، وهو اليوم أوعظ منه بالأمس » .

وأما كون المبرد أكثر من ذكر الخوارج والاستشهاد بأقوالهم فليس يعنى الميل اليهم أو التعصب لهم وقد سبق أن نفينا عنه فى غير هذا الموضع تهمة التعصب ، وانما حقيقة الأمر فى هذا أن الخوارج تميزوا بأدب رائع ، وخطب بليغة ، وتعبيرات متخيرة ،وكل ذلك يتلاءم مع منهج الكتاب ، فلم يكن بد من أن يجعل أدبهم يحتل حيزا كبيرا من كتابه افادة من أدبهم لا تحيزا أو تمجيدا لمذهبهم .

ولولا أن كتاب « الكامل » فى بابه يفضل كتاب « عيون الأخبار » ما عده شيوخ العلم والأدب ممن سبقوا ابن خلدون أو عاصروه أو جاءوا بعده ركنا من أركان الأدب ، ولم يعدوا « عيون الأخبار » من هذه الأركان .

ثانيا ـ كتاب الفاضل

لم يكن كتاب « الفاضل » للمبرد معروفا اذ لم تكن تعرف منه الا نسخ مخطوطة محفوظة فى بعض مكتبات أوربا ، ونسخة مخطوطة بمكتبة جامعة القاهرة ،ثم شاء الله لهذا الكتاب أن يظهر ، وأن يتداول منذ طبعته دار الكتب المصرية فى ديسمبر سنة ١٩٥٥٠

وقالت دار الكتب المصرية فى تصدير أولى طبعات هذا الكتاب: « ان هذا النص لم ينشر من قبل ، وانه ــ على نفاسته ــ لم يكن معروفا ولا متداولا ، وأن الأستاذ عبد العزيز الميمنى رئيس القسم العربى بجامعة كراتشى بباكستان قد عثر عليه فى احدى خزائن مكتبات استانبول فصوره ، ثم كتبه بخطه ، ثم حققه وقدمه لدار الكتب معدا للطبع وجميع من أرخوا للمبرد لم يذكروا من بين آثاره اسم « الفاضل » وانما ذكروا اسم « الفاضل والمفضول » ولكن موضوع الكتاب وأسلوبه ينمان فى وضوح على أنه للمبرد » ٠

وقد يعثر أحد الباحثين مستقبلا على « المفضول » فيتم الكتاب ٠

وموضوع كتاب « الفاضل » كما يقول المبرد نفسه (صفحة ٦٨ من طبعة دار الكتب) : « قصدنا فيما نحكيه فى كتابنا هذا حسن الاختيار ، وكثرة الاختصار ، وذكر ما يستغنى به عن غيره ، ويقنع بمثله عن نظيره ، وانما نذكر فى كل باب أحسن ما روى لنا فيه ، وأطرف ما نمى الينا منه » ومؤدى هذا أن أسلوبه فى كتاب « الفاضل » هو أسلوبه فى كتاب « الكامل » كلاهما يعتمد على الطرائف وحسن الاختيار ٠

أبواب كتاب الفاضل :

الأبواب التى اختارها لهذا الكتاب هى :

فضل الشعر ـ أخبار وأحاديث ـ نوادر من غريب ولغة ـ من الشعر ـ الجود والكرم ـ أخبار وأشعار ـ من الأخبار المستحسنة ـ مراث بليغة ـ عظات موجزة وأبيات مستحسنة ـ أخبار المعمرين ـ أشعار العرب المحدثين ـ ذم الشيب وفقد الشباب ـ الاحالة بالذنب على غير المذنب ـ الحلم والأناة ـ الشكر الضائع ـ فصل فى الحسد ـ فى كتمان السر ـ فى تفضيل الكبير ـ فى الفصاحة ـ فى الجمال .

ونكاد نقطع أنه الف الفاضل بعد الكامل لأن الفاضل أحسن تقسيما ، وان كانت الخطة واحدة ، والأسلوب غير مختلف .

عرض موضوعات الكتاب :

استفتح الكتاب بحمد الله ، وبين أن العلماء أحسن طاعة لله ممن عداهم ، وأنهم أشد تقربا منه ، وان الله فضلهم على سائر نظرائهم من خلقه . ويروى أن الأحنف بن قيس رأى الناس يقبلون على الحسن البصرى يسألونه فى أمور دينهم ودنياهم فقال : كاد العلماء أن يكونوا أربابا .

ثم يحلل طبيعة الانسان فيقول : أعجب ما فى الانسان قلبه، وله مواد من الحكمة وأضداد من خلافها . فان سنح له الرجاء أذله الطمع ، وان هاج به الطمع أهلكه الحرص ، وان ملكه اليأس قتله الأسف ، وان عرض له الغضب استبد به الغيظ ، وان أسعد بالرضا نسى التحفظ ، وان ناله الخوف شغله الحذر . وان اتسع له الأمر استلبته الغرة ، وان أفاد مالا أطغاه الغنى ، وان عارضته

فاقة فضحه الجزع ، وان جهده الجوع قعد به الضعف ، وان أفرط فى الشبع كفته البطنة ، فكل تقصير به مضر ، وكل افراط له مفسد ٠

ثم يذكر أن أفضل ما قصد له من العلوم كتاب الله وما اشتمل عليه ، ويأتى بعده علم اللغة واعراب الكلام ، ويروى فى هذا قول الشاعر :

النحو يطلق من لسان الألكن   والمرء تعظمه اذا لم يلحن
فاذا طلبت من العلوم أجلها   فأجلها منها مقيم الألسن

ثم قال مؤرخا لظهور علم النحو :

كان الصدر الأول من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يعربون طبعا حتى خالطهم العجم ففسدت السنتهم ، وتغيرت لغاتهم ٠٠ ثم يروى أن السبب الذى بنيت له أبواب النحو ، وعليه أصلت أصوله ان ابنة ابى الأسود الدؤلى قالت : يا أبت ما أشد الحر (برفع كلمة أشد وجر ما بعدها) قال : الحصباء الرمضاء ٠ قالت : انما تعجبت من شدته قال : أو قد لحن الناس ؟ ثم أخبر عليا بذلك فأعطاه أصولا بنى منها ، وعمل عليها ٠

وينتقل الى « فضل الشعر » فيذكر أن النبى عليه السلام أثاب شاعرا مدح الله تعالى ، وأنه عليه السلام كان يستحسن قول لبيد ٠

ألا كل شىء ما خلا الله باطل   وكل نعيم لا محالة زائل

وأن ابن عباس رضى الله عنه كان يقول : اذا أشكل عليكم شىء من القرآن فارجعوا فيه الى الشعر فانه ديوان العرب ، وأنه رضى الله عنه كان اذا سئل عن معنى آية من القرآن فسرها بشاهد من شعر العرب ٠

ثم يشرح قول الرسول عليه السلام « لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحا خير له من أن يمتلىء شعرا » فيقول ان النبى أراد بهذا شعر الهجاء ، ويقول هكذا فسرته عائشة رضى الله عنها .

ثم ينتقل الى « باب فيه أخبار وأحاديث » فيذكر عناصر الخلق العظيم فيروى عن محمد بن الحسن بن الحسين بن على أن الله عز وجل أدب نبيه الكريم فقال « خذ العفو ، وأمر بالعرف ، وأعرض عن الجاهلين » فلما قبل النبى عن ربه ، وعمل بما أمره به أثنى عليه فقال : « وانك لعلى خلق عظيم » .

ويروى فى هذا الباب خطبة الامام على بين يدى النبى حين طلب الزواج من فاطمة ، وخطبة أبى طالب حين تقدم بطلب زواج خديجة من النبى الكريم .

وينتقل بعد هذا الى عرض « نوادر من غريب ولغة » فيذكر فيما يذكر أن المازنى روى أن الأصمعى قال : سمعت أعرابيا يقول : « جاءت فقيم تفايش بقبائلها » أى تفاخر ، كما قال جرير : « ... ولا تفخروا ان الفياش بكم مزر » .

ويروى من الأمثال قولهم « أحيا من ضب » ويفسر ذلك بأن الضب يقال انه يعيش ثلثمائة سنة ، وانه اذا ذبح لا يموت سريعا .

ثم يفسر الأسودين بأنهما التمر والماء ، ويفسر الأحمرين بأنهما اللحم والنبيذ .

ويقول : كانت أم الهيثم من أفصح من رأيت ، وقد سمعتها تقول : الشانئة لا ترضى الا بجرزة « ويشرح قولها بأن الشانئة هى المبغضة ولا ترضى عمن أبغضته الا باستئصاله ، الجرز هو

الاستئصال ولهذا قيل : سيف جراز أى يقطع كل ما يمر به ، ورجل جروز أى يجلس على الطعام فيفنيه ٠

وبعد هذا ينتقل الى « باب من الشعر » فيورد مختارات لا يشرح منها الا ما يبدو له أنه فى حاجة الى شرح كقول توبة بن الحمير :

وكنت اذا ما جئت ليلى تبرقعت وقد رابنى منها الغداة سفورها

ويقول فى شرح هذا البيت ان المرأة كانت اذا تزوجت أسفرت عن وجهها ليعلم من يراها أنه لا سبيل اليها ، لذلك قال توبة : « وقد رابنى منها الغداة سفورها » ٠

ومختاراته فى هذا الباب محصورة فى الغزل والنسيب كقول العباس بن الأحنف :

أتأذنون لصب فى زيارتكم فعندكم شهوات السمع والبصر
لايضمر السوء انطال الجلوس به عف اللسان، ولكن فاسق النظر

وفى مطلع « باب فى الجود والكرم » أدار الحديث حول كرم عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب فيذكر فيما يروى عنه أنه خرج يريد معاوية بن أبى سفيان ، وفى الطريق أخذته السماء ورأى عن يمينه خباء فمال اليه واذا فيه رجل شيخ رث الهيئة لكنه خف لاستقباله ورحب به ، ثم دخل الى زوجته وقال لها : هيئى عنزتك حتى أقضى بها ذمام هذا الرجل ٠ فقالت : قد علمت أن معيشة هاتين الصبيتين منها وأخشى أن تموتا بعدها وهى تعنى ابنتيهما ٠ فقال : موتهما خير من اللؤم ٠ ثم قبض على رجل العنزة وجرها الى المذبح ونحرها ، ثم طبخ وأطعم ضيوفه يومين وليلتين ٠ ولما أراد عبيد الله الانصراف قال لغلامه : ارم لهذا الشيخ بما أخرجت من

النفقة . قال الغلام : ان هذا لكثير ، أعطه مثل شاته خمس مرات وكفى فهو لا يعرفك . فقال عبيد الله لقد ذبح الشاة التى لا يملك غيرها ، وان كان لا يعرفنى فأنا أعرف نفسى . نفذ ما طلبت منك . قال : انها أكثر من خمسمائة دينار قال : وان كثرت . فرمى الغلام بها الى الرجل .

وفى أثناء عودة عبيد الله مر بالرجل فوجد مظاهر النعمة والكرم ، ولما رآه الرجل لم يعرفه أولا ، ثم تذكره فجعل يقبل رأسه ويدعو له ، ويذكر له أنه قال فيه أبياتا منها :

توسمته لما رأيت مهـــابة عليه ، وقلت المرء من آل هاشم
فقمت الى عنز بقيـــة أعنز فأذبحهـــا فعل امرىء غير نادم
فعوضنى منهـــا غناى ولم تكن تساوى قليلا من قليل الدراهم

فضحك عبيد الله وقال : أعطيتنا أكثر مما أخذت . يا غلام، أعطه مثلها .

ومما اختار فى الحض على الكرم قوله : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ابن آدم يقول مالى مالى . ليس لك من مالك الا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو أعطيت فأمضيت » .

واختار كذلك قول الأحنف بن قيس وقد نظر الى درهم فى يد رجل يقلبه فقال : أما انه ليس لك حتى يخرج من يدك .

ثم يتبع الحديث عن الكرم والكرماء بمختارات من الشعر تدور فى هذا الفلك كقول عتبة بن بجير :

سأقدح من قدرى نصـــيبا لجارتى
وان كان ما فيها كفـــافا على أهلى
اذا أنت لم تشرك صديقك فى الذى
يكون قليلا لم تشاركه فى الفضـــل

وكقول العتبى :

ليس العطاء من الفضــول سـماحة
حتى تجود وما لــديك قليــل

وبعد هذا عرض لنوادر من الأجوبة الدالة على الذكاء وحضور البديهة ، فروى أن خالد بن صفوان لقى الفرزدق الشاعر (وكان دميما) وقد لبس ثيابا سرية فقال له : يا أبا فراس مرحبا بهــذا الوجه الذى لو رآه صــواحب يوســف لم يكبروه ، ولم يقطعن أيديهن • فقال الفرزدق : وأهلا ومرحبا بوجهــك الذى لو رأته صاحبة موسى لم تقل لأبيهــا : « يا أبت اســتأجره ان خير من استأجرت القوى الأمين » •

ويروى من قصــار الرسائل والردود البليغة أن مـروان الجعدى (آخر خلفاء بنى أمية) كتب الى عبد الله بن على (العباس):

انى أظن هذا الأمر صائرا اليكم ، فان كان ذلك فأعلم أن حرمنا حرمكم والسلام فكتب اليه عبد الله :

« ان الحق لنا فى دمك ، والحق علينا فى حرمك »

واتبع ذلك بالقصة التالية :

بينما الخيزران قاعدة ذات يوم قيل لها : ان ببابك امرأة حسناء ، وعليها ثياب بزة تطلب الاذن عليــك ، وقد سئلت عن اسمها فأبت أن تخبر به • فقالت لزينب بنت سليمان بن على : ما ترين ؟ قالت : تدخل فانه لابد من فائدة أوثواب • فأذنت لها فدخلت فقالت : أنا مارية امرأة مروان بن محمد الأموى • قالت زينب : أأنت مارية ؟ لاحياك الله ، والحمد لله الذى أدال منك • أما تذكرين ياعدوة الله حين أتاك عجائز قومى وأهل بيتى يطلبون منك مســألة صــاحبك فى دم ابراهيم الامام فوثبت عليهن ،

وأسمعتهن ما أسمعت وأمرت باخراجهن ؟ قيل فضحكت مارية فلا ينسى حسن ثغرها وعلو صوتها بالقهقهة ، ثم قالت : يا ابنة عم ، أى شىء أعجبك فى صنع الله بى على العقوق حتى أردت أن تتأسى بى ؟ هبينى فعلت بقومك ما فعلت ، ثم ساقنى الله اليك خاضعة ذليلة عريانة أفيكون هذا مقدار شكرك لله على ما أولاك فى ؟ • ثم ولت ، وقالت : السلام عليكن • فقالت الخيزران : ليس هذا لك عافاك الله • على استأذنت ، واياى قصدت ، فارجعى • فقالت : نعم ، وان مما يردنى الجوع والضر • فدعت لها بالخلع ، ثم قالت : افرشوا لها فى المقصورة الفلانية وقالت لها : والله مايفرق بيننا الا الموت ، فما فرق بينهما الا هو •

ثم انتقل الى باب المراثى والعظات الموجزة فاختار أبياتا لامرأة من بنى أسد ترثى ابنها ، وآخر أبيات المرثية قولها :

أرادوا ليخفوا قبره عن عدوه
فطيب تراب القبر دل على القبر

ووصف هذا البيت بأنه أرثى بيت قالته العرب •

واختار أيضا قول شاعر لم يسمه ووصفه بأنه أحد المحسنين :

وأخ رمانى الدهر فيه بفقده ... فالوجد من قلبى عليه دخيل
هيهات لا يأتى الزمان بمثله ... ان الزمان بمثله لبخيل

ثم أخذ فى حديث عن أخبار المعمرين وأخبار الشعراء المحدثين وقولهم فى ذم الشيب ، فقال : يروى أنه مكتوب فى الحكمة : من بلغ السبعين اشتكى من غير علة ، وروى قول النمر بن تولب : —

كانت قناتى لا تلين لغامز ... فألانها الاصباح والامساء
ودعوت ربى بالسلامة جاهدا ... ليصحنى ، فاذا السلامة داء

وعند الحديث عن الشيب قال : كانت العرب تذكر الشيب فى أشعارها اما مدحا واما ذما ، وشعرهم فى ذمة أكثر منه فى مدحه .

ويروى أنه قيل : ما بال شعركم فى الشيب أحسن أشعاركم فى سائر قولكم ؟ قالوا : لأننا نقوله وقلوبنا قرحة ، وقدم نموذجا لذلك من شعر محمد بن عبد الملك الزيات وهو :

عريت من الشباب وكنت غضا
كما يعرى من الورق القضيب
ونحت على الشباب بدمع عينى
فلم يغن البكاء ولا النحيب
ألا ليت الشباب يعود يوما
فأخبره بما فعل المشيب

ثم انتقل الى « باب الحلم والأناة » فذكر أخبارا عن حلم معاوية بن أبى سفيان وغيره . ثم عرض مختارات من بليغ الشعر فى هذا الباب كقول الأخطل فى وصف بنى أمية :

صم عن الجهل ، عن قول الخناخرس
وان ألمت بهم مكروهة صبروا
شمس العداوة حتى يستقاد لهم
وأعظم الناس أحلاما اذا قدروا

وختم الباب بقصة عن الرشيد روى فيها أن رجلا قال له : انى أريد أن أعظك وأغلظ لك فى القول . فقال له الرشيد : يا هذا ، ليس ذلك لك . لقد بعث الله من هو خير منك الى من هو شر منى فأمره أن يقول له قولا لينا . يشير الى قول الله تعالى لموسى وهارون : « اذهبا الى فرعون انه طغى فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى » .

وانتقل الى « باب الشكر للصنائع » فروى أن الامام عليا قال: « لا يزهدنك فى المعروف من لا يشكرك عليه فقد شكرك عليه من لم يستمتع منك بشىء » ثم يروى أنه كان يقال : « من كفر النعمة كتمانها عن المنعم عليه ، ومن تكديرها اظهارها من المنعم . فعلى المنعم ألا يمتن ، وعلى المنعم عليه ألا يكفر » وأنشد :

زاد معروفك عندى عظما　　أنه عندك مستور حقير
تتناساه كأن لم تأته　　وهو عند الله مشكور كبير

وروى أن بعض الحكماء قال : « من شكر استحق الاحسان ، ومن أحسن استحق الشكر » ولقد أجاد أبو نواس فى قوله :

أنت أمرؤ طوقتنى مننا　　أوهت قوى شكرى فقد ضعفا
لا تسدين الى عارفة　　حتى أقوم بشكر ما سلفا

ثم انتقل الى الحديث عن « الحسد » فروى أن معاوية قال : كل انسان أقدر أن أرضيه الا حاسد نعمة فانه لا يرضيه الا زوالها » . وروى عن ابن المقفع أنه قال : « الحسد خلق دنىء ، ومن دناءته أنه يبدأ بالأقرب فالأقرب » ثم تحدث عن « كتمان السر » فقال : انشدنا بعض أصحابنا :

اذا أنت لم تحفظ لنفسك سرها
فسرك عند الناس أفشى وأضيع

وأنشدنا آخر :

ليس سرى يجاوز الدهر قلبى
كل سر يجاوز القلب فاش

ثم يختم الكتاب بذكر طرف عن بعض من أذلهم الهوى ، واتبع ذلك بنصائح دعا فيها الى مجاهدة النفس والهوى ، وروى أن عمر

ابن عبد العزيز كان يقول : « جاهدوا أهواءكم كما تجاهدون أعداءكم» وروى أن هشـــام بن عبـد الملك لم يقل من الشـــعر غير بيت واحد هو :

اذا أنت لم تعص الهوى قادك الهوى
الى بعض ما فيـــه عليك مقـــال

ان كتاب « الفاضـــل » فى جملته تحفة أدبيـــة رائعة ، وأثر محمـــود من آثار المبرد الخالدة وهو من طراز كتاب الـكامل الا أن المبرد عنى فى الكامل بالشرح والتحليل اللغوى والنحوى ، وأعفى كتاب الفاضل من ذلك ٠

ثالثا ـ شرح لامية العرب

كان بين المبرد وثعلب من التنافس ما سـبق أن أوضـــحناه وذكرنا أسبابه وعلله ٠ وقد يكون من آثار هذا التنـــافس أو من مظاهره أن كلا منهما عرض لشرح مجموعة من الشعر ٠ قام ثعلب بشرح شعر زهير بن أبى سلمى ، وقام المبرد بشرح قصيدة الشنفرى المعروفة باسم «لامية العرب» ٠ ولا ندرى أيهـــما قام بالشرح قبل الآخر ، ولكننا سنعرض نموذجا لشرح كل منهما لنتعرف على منهجه وطريقته :

(أ) شرح ثعلب لشعر زهير :

أصدرت الدار القومية للطبـــاعة والنشر فى سلسلة التراث شرح ثعلب لديوان زهـير ، وعليه اعتمدنا فى عرض النموذج التالى من طريقته فى الشرح ٠

قال زهير :

١ ـ وما الحرب الا ما علمتم وذقتم
وما هو عنهـا بالحديث المرجم

قال ثعلب فى شرحه :

« أى ما علمتم من هذه الحرب وذقتم منها · وما هو عنها : يريد وما علمكم عنها بالحديث الذى يرمى فيه بالظنون · والمرجم : المظنون · يقول : ما هو برجم بظهر الغيب ، قد جربتموهاوذقتموها ·

٢ ـ متى تبعثوها تبعثــوها ذميــمة
وتضر اذا ضريتمــوها فتضرم

متى تبعثوها تبعثوها : أى متى تثيروها لا تحمدوا أمرها · وذميمة: مذمومة ، وأكثر ما يكون فعيل المصروف عن مفعول بغير هاء مثل : امرأة قتيل ومقتولة ، وكف خضيب ومخضوبة · وقوله ذميمة أى لا تحمدوا أمرها · وتضر أى تعود يقال : ضرى يضرى ضراوة اذا درب · اذا ضريتموها أى عودتموها يعنى الحرب · ويقال : كلب ضرو ، وهى ضروة كأنه المعتاد للصيد ·

٣ ـ فتنتج لكم غلمان أشأم ، كلهم
كأحمر عاد ، ثم ترضع فتفطم

تنتج لكم : يعنى الحرب · غلمان أشأم فى معنى غلمان شؤم فجعل أشأم مصدرا ، ولم يحتج الى « من » ولو كان أفعل (يعنى التفضيل) لم يكن له بد من كلمة «من» أى كلهم فى الشؤم مثــل أحمر عاد · وانما أراد أحمر ثمود فقال أحمر عاد ·

والمبرد يعارضه فى هذا فيقول : ان الشاعر لميخطىء لأن ثمود تسمى عادا الاخيرة ، والله تعالى يقول : «وانه أهلك عادا الاولى ، وثمود فما أبقى » ·

(ب) شرح المبرد للامية العرب :

قصيدة الشنفرى التى تقع فى ثمانية وستين بيتا عرفت باسم «لامية العرب» وقام بشرحها كثيرون أولهم المبرد ، وقد ورد اسم شرح

هذه القصيدة ضمن أسماء الكتب التي ذكرها من أرخوا للمبرد • وقد طبع هـــذا الشرح فى ذيل شرح الزمخشرى لهـــذه القصيدة ضمن مجموعة أصدرتها مطبعة الجوائب بالقسطنطينية ســـنة ١٣٠٠ هـ وقالت فى عنوانها : «كتاب أعجب العجب فى شرح لامية العرب ، لأستاذ الزمان وفريد العصر والأوان فخر خوارزم العلامة محمد بن عمر الزمحشرى ، ومعه شرح ثان للامام العلامة اللغوى أبى العباس محمد بن يزيد المعروف بالمبرد رحمه الله » •

ولم يذكر الناشر أين عثر على هذا النص ، ولم يشر الى أى تحقيـــق بشأنه • والمطلع عليه سرعان ما يتبين له أن شرح المبرد لم ينشر كاملا الا فى بعض الابيات ، وانما ذكر منه مايكمل شرح الزمحشرى اذ يرى أن رقما قـــد وضع فى كل موضع يحس فيه بقصور فى شرح الزمحشرى ، ثم يذكر من كلام المبرد ما يكمل ، أو يوضح ، أو يخالف ما ذهب اليه الزمحشرى • ولم تتح لنا فرصة الاطلاع على النسخة الخطية الموجودة فى مكتبة الازهر ، أو التى فى الجامع الأحمدى •

وهاكم نموذجا من شرح المبرد •

افتتح الشرح بقوله : قال الشنفرى بن الاوس بن الحجر بن الغوث بن ثبت بن كهلان بن سبأ • والشنفرى : البعير الضخم • وقيل : الشنفرى أى العظيم الشفتين •

١ ـ أقيموا بنى أمى صدور مطيـكم
فانى الى قــوم سواكم لأميـــل

يقال : أقام صدر مطيه اذا سار • واذا توجه فقد أقام صدر مطيه • ويروى : الى قوم سواكم (بدون همز) ، والمعنى جدوا فى أمركم ، وانتبهوا من رقدتكم • وأقيموا هنا بمعنى اصرفوا عنى ، ومنه قول الشاعر :

أقيمـــوا بنى النعمان عنـا صدوركم

والا تقيموا صـــاغرين الرءوسا

٢ ـ ولى دونكم أهلون ســـيد عملس

وأرقط ذهــلول وعرفاء جيأل

العملس : الذى فيه بياض وسواد • والسيد (بكسر السين) الذئب والعملس فيما ذكره لى الأحول : السريع المر فى سهولة ، وأنشد لابن مناد :

عملس أسـفار اذا اعترضت له

ســموم كحر النــار لم يتلثم

والعملس : الخفيف أيضا ، وأنشد : « والشاة لا تمشى على العملس » أى على الذئب ، ومعنى تمشى : تزيد وتكثر ، ومنه قوله تعالى « أن امشـــوا واصبروا على آلهتـــكم » أى قوموا على المواشى واستكثروا منها • والأرقط : الحية التى فيهـا نقط بياض وسواد ومنه دجاجة رقطاء • والذهلول : الأملس • والعرفاء : الضبع ذات الشعر الــكثير ، والجيأل : الأنثى من الضباع ، والذكر الضبعان والعملس من أوصاف الذئب فوصف به هنا رجلا استعارة • والسيد فى لغة هذيل الأسد ، وانما عنى هنا الذئب ، ألا تراه قال عملس • والعرفاء : الضبع الطويلة العرف ، وليس هنا بنعت ولكنه فى الأصل نعت فقلب فصار بمنزلة الاسماء غير النعوت حتى انه يقال : جاءتكم العرفاء فيفهم من هذا القول أن الضبع جاءت • ويجرى هذا المجرى الأجدل يعنى الصقر لايراد غيره ، وهو فى الأصل نعت لأنه من الجدل وهو شدة الخلق • يقال : غلام مجدول اذا كان شديد العصب • وزمام مجدول اذا كان محـــكم الحرز ، وليس كل ما كان مجدولا يسمى أجدل فصار اسما غالبا وجيأل من أسماء الضبع •

٣ ـ ولست بعــــل شره دون خيره
ألف اذا مارعته اهتـــاج أعزل

العل : هو الصغير الجسم ، وأكثر مايوصف به الكبير. ويقال للقراد العل للطافة جسمه . والألف : الذى لا يقوم لحرب أو لضيف وانما يلتف وينام . قالت امرأة لزوجها :

ان أكلك لاقتفــاف ، وان شربك لاشــتفاف ، وان ضـــجعتك لالتفاف ، وانك لتشبع ليلة تضاف ، وتنام ليلة تخاف . فقال لها: والله انك لــكرواء الساقين ، قعواء الفخذين ، سرك ذائع ، وشرك شائع ، وضيفك جائع .

والاقتفاف أن يأخذ غذاءه سرقة لئلا يشاركه أحد فيه ، وقيل: أن يستوعب آخر غذائه لا يبقى منه شــــيئا لأحد شرها . يقال : اقتنف ما فى الاناء من الطعام اذا استوفاه . والاشتفاف : أن يستوفى مافى الاناء من الشراب ، وهو مثل الاقتفاف. والأعزل الذى لا سلاح معه ولا رمح . وقال أبو عبيدة : ان كان معه عصا فهو ليس بأعزل.

٤ ـ اذا الأمعز الصـــوان لاقى منــاسمي
تطـــاير منــــه قادح ومفلل

قال فى الشرح : الأمعز : المكان فيه حصى ، والبقعة معزاء . والصوان : الحجارة الملس ، الواحدة صوانة . وليس هو الصـــوان فى الحقيقة وانما التقدير اذا الأمعز ذو الصوان فحذف «ذو» لعلم السامع به كما قال جل ذكره «وأسأل القرية» ، وهو كثير . وانما يريد مكانا فيه حصى وهو الصوان . والمنــــاسم فى الأصل أخفاف الابل كالسنابك من الخيل فاستعارها لنفسه ، والقادح مايخرج معه النار من الحصى وذلك من شدة وطئه . والمفلل : المكسر . يقول : اذا أصابت رجلى حجرا قدحت فيه نارا وكسرته .

ويستنتج مما أوردناه من شرح ثعلب، وشرح المبرد أن منهجهما يكاد يكون واحدا ، وان كلا منهما ذو عناية باللغة • غير أن المبرد كما يلوح لنا من شرحه أكثر استقصاء للمعانى وأكثر استشهادا اذا دعت الحال الى استشهاد •

والمبرد غالبا ما يأتى بالمعنى الاجمالى للبيت كله ، أو للجزء الغامض منه ، وقلما يفعل ذلك ثعلب •

والمبرد فى شرح هذه القصيدة لم يتطرق الى النحو والاعراب كما فعل فى شرح نصوص الكامل ، أو كما فعل الزمخشرى من بعده فى شرح هذه القصيدة •

رابعا ـ كتاب ما اتفق لفظه واختلف معناه

كتاب « ما اتفق لفظه واختلف معناه » رسالة من نوادر المصنفات القديمة • ورد ذكره بهذا الاسم فى « معجم الادباء » لياقوت ، وفى «بغية الوعاة» للسيوطى ، وفى كثير من المراجع الادبية التى نقلت عنه ، أما ابن النديم فى كتابه «الفهرست» فقد سماه «ما اتفقت ألفاظه واختلفت معانيه» وهى تسميه لا تبعد عن الاولى •

وقد عثر الاستاذ الميمنى الراجكونى رئيس قسم اللغة العربية بجامعة عليكرة على نسخة مخطوطة من هذه الرسالة فى احدى خزائن الكتب فى الهند فأشرف على تحقيقها وتصحيحها ووكل الى « المطبعة السلفية » بالقاهرة أمر طبعها فأخرجتها لعشاق أدب المبرد سنة ١٣٥١ هـ •

ويفصح المبرد عن الغاية من تأليفها فى المقدمة فيقول : « هذه حروف ألفناها من كتاب الله عز وجل مختلفة المعانى ، متقاربة فى

القول ، مختلفة الخبر » ثم يقسم اللفظ الى : مشترك ، ومترادف ، ومتباين . ويبدأ بالحديث عن أقسام الاتفاق والاختـــلاف ، ويورد أمثلة لاختلاف اللفظين لاختـلاف المعنيين ، وأمثلة لاختلاف اللفظين والمعنى واحد ، وأمثلة لاتفاق اللفظين والمعنى مختلف . فيذكر مثلا أن كلمة المقوى تكون للضعيف ، وتكون للقوى قال تعالى : « ومتاعا للمقوين » أى الضعفاء ، وتقول العرب «أكثر من فلان فانه مقو» أى ذو ابل قوية .

ثم يتكلم عن «الرجاء» فيوضح أن من معانيه الخوف ، ويستدل على ذلك بقول أبى ذؤيب :

اذا لسعته النحل لم يرج لسعها (أى لا يخافه)

وقول الانصارى :

لعمرك ما أرجو اذا مت مؤمنا
على أى جنـــب كان فى الله مصرعى

أى ما أخاف . وقال المفسرون فى قوله تعالى «مالكم لا ترجون لله وقارا » أى لا تخافون لله عظمة .

ثم يتبع ذلك بقوله : « ... وكل من آثر أن يقول ما يحتمل معنيين فعليه أن يضع على ما يقصد له دليلا لأن الكلام وضع للفائدة والبيان » .

وينطلق من هذه المقدمة الى موضوعه فيذكر أن مما اتفق لفظه واختلف معناه كلمة «الظن» . يقول : قال تعالى «... الا أمانى وان هم الا يظنون» هذا لمن شـــك . وقوله تعالى « الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم » هذا يقين لأنهم لو لم يكونوا مستيقنين لكانوا ضـــلالا شكاكا فى توحيد الله تعـــالى . ومثله فى اليقين قول المؤمن فيما يحكيه القرآن الكريم « انى ظننت أنى ملاق حسابيه » أى أيقنت ، ومثله قوله تعالى «... فظنوا أنهم مواقعوها» أى أيقنوا .

ثم يتحدث عن أفعال اختلف لفظها والمعنى واحد كقوله تعالى « لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » فهما لمعنى واحد كقولك نظرته وانتظرته ، وقدرت عليه واقتدرت عليه ، وجرح واجترح من الكسب كقوله تعالى « وما علمتم من الجوارح » أى الكواسب ، ويقال : «فلان جارح أهله » أى كاسبهم ٠

ويتحـــدث عن الفعلين المتساويين والمخرجان مختلفان فيمثل بقوله تعالى «فمن اعتدى عليـــكم فاعتدوا عليه» أى فاقتصوا منه ، ويقول : « يخرج اللفظ كلفظ ما قبله مع تباين فى الغاية ٠ تقول العرب «الجزاء بالجزاء» والأول ليس بجزاء ، وتقول «فعلت بفلان مثل ما فعـــل بى « أى اقتصصت منه ، والاول بدأ ظالما ، والثانى أخذ بحقه فالفعلان متساويان والمخرجان متباينان ٠ ومثله قول الله « وجزاء سيئة سيئة مثلها » والثـانية ليست بسـيئة تكتب على صاحبها ، ولكنها مثلها فى المكروه ٠

ويتحدث عن ايراد الفعل بمعنى ما يصير اليه ، ويمثل فى ذلك بقوله تعالى :

« فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا» ويقول لم يلتقطوه مقدرين فيه أنه يعاديهم ويحزنهم ، ولكن تقديره فالتقطه آل فرعون فكان مصيره الى عداوتهم وحزنهم ٠

ويتحدث عما جاء فى القرآن على صورتين من الاستفهام فوقع مع أحدهما التبيين ولم يقع على الآخر ، على أن يخرج الاستفهام فيهما جميعا مخرج التقرير والتعظيم ٠ومن ذلك «وما يدريك ـ وما أدراك» فان «مايدريك» استفهام وقع فى كل الاماكن فى القرآن الكريم بدون الجواب ، أما «ما أدراك» فيتبعه جواب الا قليلا ٠ ومن ذلك : « وما أدراك ماهيه ؟ نار حاميه ـ وما أدراك ما يوم الدين ثم ما أدراك ما يوم الدين ؟ يوم لا تملك نفس لنفس شـيئا ـ وما أدراك ما القارعة ؟

يوم يكون الناس كالفراش المبثوث ــ وما أدراك ما الحطمة ؟ نار الله الموقدة » .

أما قوله تعالى « الحـاقة ما الحاقة وما أرادك ما الحاقة ؟ » فانه اسـتفهام لم يقع بعده تفسير ، ومجاز هـذا عند أهل النظر حذف الخبر لعلم المخاطب به ، ولارادة تعظيم الامر . كقولك « لو رأيت فلانا وفى يده السيف » أى لرأيت بارعا ، فاستغنى عن ذلك لأنه مفهوم . وفى كتاب الله «ولو أن قرآنا سيرت به الجبال...» فخبره عند المفسرين محذوف تقديره لكان هو هذا القرآن .

وكل استفهام جاء فى القرآن بأسلوب « وما يدريك » فغير مشروح خبره . فمن ذلك « وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا ــ وما يدريك لعله يزكى »

وأما قوله تعالى « وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا » فليس من هذا لأن ماهنا نافية وليست استفهامية كماهى فى المثالين السابقين.

ثم تكلم عن الحذف فى القرآن وفى كلام العرب فقال : فى القرآن مختصرات فان مجاز العرب يحذف كثيرا من الكلام اذا كان فيمايبقى دليل على ما يلغى ومن ذلك قوله تعالى « واسأل القرية..ــ واسأل العير ...» فالقرية والعـير لا يسألان ولا يجيبان فالمقصود غيرهما أى أهل القرية وأهل العير .

على هذا النحو تمضى تلك الرسالة الرائعة التى تشهد للمبرد بالذهن المتفتق والعقل الواعى ، وتدل على ماله من علم عميق باللغة، وبكتاب الله تعالى علما أدخله فى عداد المفسرين .

خامسا ـ كتاب المقتضب

وضع سيبويه مؤلفا يضم بين دفتيه قواعد «علم النحو» وعرف مؤلف سيبويه باسم «الكتاب» ثم قفى المبرد على آثاره فوضع كتاب « المقتضب » ٠

والكتاب لسيبويه ، والمقتضب للمبرد هما أول كتابين استوعبا أصول النحو وقواعده ٠ ومع أن كتاب «المقتضب» عالج مسائل النحو والصرف بأسلوب أوضح وأكثر بسطا من كتاب سيبويه فانه لم يقدر له أن يتدارس ويتداول الا فى نطاق محدود ٠ ولم يقل الاقدمون فى تعليل ذلك الا أن شؤم ابن الراوندى المشهور بالزندقة وفساد الاعتقاد قد عاد عليه ، فقد روى أن المبرد حين صنفه أخذه عنه ابن الراوندى هذا فأبى الناس أن يأخذوه عنه فصار لا يكاد ينتفع به ٠

وكتاب «المقتضب» أول مؤلف أملاه المبرد بعد أن بلغ أشده واستوى وأوتى علما وحكمة ٠ بدأ يمليه وقد استقر فى بغداد بعد قتل المتوكل سنة ٢٤٧ هـ أى وهو فى نحو الاربعين من عمره ، وبعد أن كان قد استقر فى مجلس الاستاذ ، وأسلمت اليه زعامة علماء النحو من البصريين ٠ وبعد أن كان التنافس بينه وبين أبى العباس ثعلب قد بلغ قمته ، وأصبح ثعلب يغرى المقربين اليه من تلاميذه بفض حلقة المبرد ، والمبرد بغزارة علمه ، وصفاء قريحته ، ولباقته وحسن حديثه يستميلهم اليه ، وينتزعهم من ثعلب ، ويصطفيهم لنفسه كما كانت الحال مع الزجاج وفق ما وصفنا من قبل ٠

وقد روى الزجاج أنه قدم الى بيت ثعلب فى مرضه وعنده موسى الحامض الذى كان يحسد الزجاج ويكره المبرد ، وسأل

ثعلب عما يمليه المبرد من كتاب «المقتضب» ، وأخذ يعيب أسلوب المبرد ، والزجاج يدافعه ويقرر أن أسلوب المبرد لا عيب فيه ، وان نصاعته وحسن بيانه أمر لا يتنازع فيه اثنان ، ثم قال لثعلب: ان سوء رأيك فيه هو الذى يعيبه عندك ٠

ومؤدى ذلك ان تأليف «المقتضب» بدأ بعد سن الاربعين ، وأن المبرد ألفه قبل كتاب «الكامل» لهذا تراه فى الكامل يستشهد بماجاء فى المقتضب ٠

بعث كتاب « المقتضب » :

قلنا آنفا ان كتاب «المقتضب» حاق به ـ كما قيل ـ شؤم ابن الراوندى المتهم بالزندقة فلم يقدر له من الذيوع والانتشار ما قدر لكتاب سيويه ٠ وانسحب هذا الشؤم على الشروح التى جهد فيها العلماء من بعد المبرد ، فابن درستويه المتوفى فى منتصف القرن الرابع شرح «المقتضب» ولم يكمله ، وأبو الحسن الرمانى المتوفى فى أواخر القرن الرابع شرحه وأكمله ، كما شرحه أيضا أبو الحسن الباذش فى القرن السادس ٠ ولكن لا نعرف من أمر هذه الشروح الا ما ورد من الاشارة اليها فى بعض الكتب التى ارخت للمبرد مثل معجم الادباء لياقوت وبغية الوعاة للسيوطى ٠

وهناك شرح لبعض مسائل هذا الكتاب القيم صنعه سعيد بن سعيد الفارقى المتوفى فى أواخر القرن الرابع ، وسماه « تفسير المسائل المشكلة فى أول المقتضب » وهذا الشرح وان كان قد بقى فانه كان ، ولم يزل ، سجينا لا تعرف منه الا نسخة خطية باحدى مكتبات الآستانة ونسخة منقولة عنها بالتصوير الشمسى محفوظة فى معهد المحفوظات بجامعة الدول العربية ٠

لقد ظل المقتضب بعد عصر هؤلاء الشراح لا يعرف عنه علماء

النحو وطلابه الا ما تنقله عنه ، أو تشير اليه بعض الكتب مثل أمالى ابن الشجرى ، وخزانة الادب للبغدادى ، وابن عقيل فى شرح الألفية • وأخيرا هيأ الله له من يبعثه من مرقده ويقدمه لقراء العربية مستقصى محققا مشروحا مضبوطا • وذلك هو الدكتور محمد عبد الخالق عضيمة ، فخلال تنقيبه عن آثار المبرد اذ كان موضوع الرسالة التى تقدم بها لنيل درجة «دكتوراه» عثر على نسخة منه فى دار الكتب المصرية مأخوذة بالتصوير الشمسى عن نسخة خطية محفوظة باحدى مكتبات الاستانة فعكف على هذه النسخة دارسا وباحثا حتى وفقه الله الى سد كل ما لحظه فيها من خلل ، وتكملة كل ما بدا له فيها من نقص ، وقدم النسخة مصححة محققة مستوفاة الى لجنة احياء التراث الاسلامى بالمجلس الأعلى للشئون الاسلامية فتقبلت منه هذا الكتاب القيم بقبول حسن ، وطبعته طبعة أنيقة جميلة فى ثلاثة أجزاء ، ومقدمة طويلة جامعة شاملة مطبوعة على حدة ، فكان هذا العمل العظيم خدمة جليلة للعلم والادب تستحق كل تقدير وثناء •

موضوعات الكتاب :

الكتاب مطبوع فى ثلاثة أجزاء ضخمة ، ويتناول كل موضوعات النحو والصرف بأسلوب واضح ويستوفى الامثلة لكل قاعدة ، ويورد شواهد من شعراء الجاهلية وصدر الاسلام وبنى أمية ، ويغلب على المبرد فيه طابع العالم اللغوى فكلما مرت كلمة تستحق الايضاح لغويا فصل القول فيها ، ويكثر من الاستشهاد بكلام الله تعالى فى كتابه العزيز ، ويقف طويلا عند اعراب بعض آيات القرآن الكريم، ويعنى بتعليل الاحكام النحوية • ولموضوعات الكتاب عناوين موجزة بخلاف العناوين المطولة التى يختارها سيبويه للكتاب ، ومن أمثلة عناوين المقتضب فى الجزء الاول :

تفسير وجوه العربية واعراب الاسماء والافعال ـ باب الفاعل ـ باب حروف العطف بمعانيها ـ حدود التصريف ومعرفة أقسامه ـ ماجاء من الكلام على حرفين ـ الابنية ومعرفة حروف الزوائد ـ معرفة بنات الاربعة التى لا زيادة فيها ـ باب الابنية ومعرفة حروف الزوائد ٠

ومن أمثلة عناوين موضوعات الجزء الثانى :

باب اعراب الافعال المضارعة وكيف صار الاعراب فيها دون سائر الافعال ـ باب تجريد اعراب الافعال ـ باب الحروف التى تنصب الافعال ـ باب الحروف التى تجزم الافعال ما يرتفع بين المجزومين وما يمتنع من ذلك ـ باب الأمر والنهى ٠

نماذج من أسلوب « المقتضب » :

تميز كتاب «المقتضب» كما أسلفنا بالبيان الواضح، والاسلوب السهل ، وايراد الشواهد والأمثلة ، وتفصيل الاحكام ، ففى الجزء الثانى مثلا يتحدث عن الحروف التى تنصب الافعال ومنها « أو » فيقول :

١ ـ هذا باب « أو »

وهى تكون للعطف فتجرى ما بعدها على ما قبلها ، كما كان ذلك فى الاسم اذا قلت : ضربت زيدا أو عمرا ٠

ويكون مضمرا بعدها (أن) اذا كان المعنى : الا أن يكون ، أو حتى يكون ٠ وذلك مثل قولك أنت تضرب زيدا أو تكرم عمرا على العطف ٠ وقال الله عز وجل « ستدعون الى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون » أى يكون هذا ، أو يكون هذا ٠

فأما الموضع الذى تنصب فيه باضمار أن فقولك : لألزمنك أو تقضينى ــ أى الا أن تقضينى ، أو حتى تقضينى ٠

وفى مصــــحف أبى « تقاتلونهم أو يسلموا » على معنى الا أن يسلموا ، أو حتى يسلموا ٠ وقال امرؤ القيس :

فقلت له :

لا تبك عينــك انمــا
نحاول ملكا ، أو نموت فتعــذرا

أى الا أن نموت ٠

وقال زياد الأعجم :

وكنت اذا غمزت قناة قوم
كسرت كعوبهــا أو تستقيما

ويقال : أتجلس أو تقوم يا فتى ؟ فالمعنى أيكون منك واحد من الأمرين ٠

وتقول : أتكلمنا أو تنبسط الينا ؟ لا معنى للنصب هاهنا ٠ قال الله عز وجل :

« هل يسمعونكم اذ تدعون ، أو ينفعونكم أو يضرون »

فجملة هذا : أن كل موضع تصلح فيه «حتى» أو « الا أن » فالنصب فيه جائز جيد اذا أردت هذا المعنى ، والعطف على ما قبله مستعمل فى كل موضع ٠

وفى مكان آخر يتكلم عن الشرط ويسميه «المجازاة» فيقول :

٢ ــ هذا باب مسائل المجازاة وما يجوز فيها وما يمتنع منها٠

تقول : ان تأتنى آتك : وان تأتنى فلك درهم ٠ هــذا وجه

الجزاء وموضعه ، كما قال عز وجل «ان ينتهوا يغفر لهم ماقد سلف، وان يعودوا فقد مضت سنة الأولين » ٠

فالأصل الفعل ، والفاء داخلة عليه لأنهـا تؤدى معناه لأنها لا تقع الا ومعنى الجزاء فيها موجود ٠ يقول الرجل : قد أعطيتك درهما ، فتقول : فقد أعطيتك دينارا ، أى من أجل ذلك ٠ ويقول : لم أغث أمس ٠ فتقول : فقد أتاك الغوث اليوم ٠ وتقول : ان أتيتنى فلك درهم ، لأن معناه : ان تأتنى ٠ ولو قلت أن أتيتنى آتك لصلح، كمـا قال الله عز وجل «من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم» لان معناه من يكن ٠ وكذلك لو قال : من يأتنى أتيته لجاز ، والاول أحسن لتباعد هذا عن حروف الجزاء ، وهو جائز كما قال الشاعر :

من يكدنى بسيىء كنت منه
كالشجا بين حلقه والوريد

وأعدل الكلام : من أتانى أتيته ، كما أن وجه الكلام : من يأتنى آته ٠ وتقول من أتانى وتبسط الى أكرمه لأن «من أتانى» فى موضع «من يأتنى» لا تقع بعد الجزاء الا ومعناها الاستقبال ٠ والأحسن : من أتانى وأكرمنى أتيته ٠ كمـا أن الأحسن : من يأتنى ويكرمنى آته ٠ فهذه أصول ثم نذكر بعدها العطف منسقا ونكثر فى ذلك من المسائل لنوضح أمره ان شاء الله ٠

فاذا قلت : « من يأتنى آته » فان «من» هى لهذا الفعل (يعنى فاعله) لأنها اسم فلم يدخل معها اسم آخر ٠

ولو قلت : « ان يأتنى آته » على غير مذكور قبل كان محالا ، لأن الفعل لا فاعل فيه ٠ لأن «ان» انمـا هى حرف جزاء ، وليست باسم ، وكذلك جميع الحروف ٠

وتقول في الاستفهام : من جاءك ؟ وأيهم ضربك ؟ وماحبسك؟ لأنها أسماء • فان قلت : أحبسك ؟ أو هل حبسك ؟ لم يكن بد من ذكر الفاعل ، لأن هذه حروف فليس في الافعال فاعلون •

وكذلك الظروف التي لا تكون فاعلة اذا ذكرتها لم يكن بد من ذكر الفاعل معها • ولو قلت : أين يكن أكن ، لم يكن كلاما حتى تقول : أين يكن زيد أكن • وكذلك في الاستفهام اذا قلت : أين يكون زيد ؟ ومتى يخرج زيد ؟ تعني المذكور • فعلى هذا يجري ما ذكرت لك ••••

وفي باب التصغير يتحدث عن تصغير ماختم بألف ونون زائدتين ويسميه التحقير ، فيقول :

٣ ـ هذا باب ما لحقته الالف والنون زائدتين •

اعلم أنك اذا حقرت غضبان ، وسكران ونحوهما قلت : غضيبان ، وسكيران • وكذلك اذا حقرت عثمان وعريان قلت : عثيمان ، وعريان لأن حق الألف والنون أن يسلما على هيئتهما بعد تحقير الصدر الا أن يكون الجمع ملحقا بالاصول فنفعل ذلك بتصغير الواحد ، فيجري الواحد في التصغير مجرى الجمع •

فأما الملحق فمثل قولك سرحان فتقول في تصغيره سريحين لأنك تقول في الجمع سراحين • وتقول في سلطان سليطين لان الجمع سلاطين ، وتقول في ضبعان (ذكر الضباع) ضبيعين كقولك ضباعين، وكذلك قربان •

ولو كنت تقول في عثمان عثامين في الجمع لقلت في التصغير عثيمين ، ألا ترى أن «فعلان» الذى له «فعلى» نحو عطشان وسكران وغضبان وظمآن لا يكون في جمع شيء منه « فعالين » لأنه لا يكون ملحقا ؟ .

فكذلك جمع هذا الباب : ما كان ملحق الجمع وجب فى تصغير واحده الالحاق ، وماكان غير ملحق الجمع لم يكن تصغيره الا كتصغير فعلان الذى له فعلى .

هكذا يمضى « المقتضب » مستقصيا أبواب النحو والصرف على أكمل وجه من الوضوح والبيان .

وقد يلمح الباحث المدقق أثر كتاب سيبويه في مقتضب المبرد ولا غرو فكتاب سيبويه هو المعين الذى استقى منه المبرد مادته فى النحو ، وهو الذى كان يقوم بتدريسه لتلاميذه ومريديه ، فليس عجبا أن ترى تشابها فى كثير من الأمثلة ، ولكن المبرد خالف سيبويه فى بعض المذاهب النحوية . وان كان ابن ولاد قد تصدى له مدافعا عن سيبويه مؤيدا له . وقد تكفل الدكتور عضيمة بايضاح كل ذلك فى هوامش المقتضب مما كفل له أن يكون كتابا جامعا ممتعا .

سادسا : كتاب المذكر والمؤنث :

وبعد أن وضعنا هذا الكتاب فى صورته الأخيرة أهدتنا مطبعة دار الكتب (سنة ١٩٧٠) كتاب « المذكر والمؤنث » بعد أن قام بتحقيقه الأديبان الدكتور رمضان عبد التواب ، والأستاذ صلاح الدين الهادى . وقد كتبا له مقدمة ضافية تناولا فيها المبرد وحياته وشيوخه وآثاره .

وقد بدأ المبرد كتابه بذكر علامات التأنيث ، ثم انتقل الى التفريق بين الأسماء المؤنثة والنعوت المؤنثة ، وذكر فى ذلك قواعد تفيد كل باحث وكاتب ومؤلف ، ثم يفرق المبرد بين ألف التأنيث وألف الالحاق ، ويشرح المؤنث بغير علامة ، ثم يخصص بابا للمؤنث الحقيقى والمؤنث المجازى من ناحية الاخبار عنه ، ثم يعرض

للألفاظ التى يجوز فيها التذكير والتأنيث ، ثم ينتقل الى المنصرف والممنوع من الصرف من أنواع المؤنث المختلفة ، ثم ينتقل الى أسماء سور القرآن وأسماء البلاد والقبائل ، ويعالج مسـألة تأنيثها وتذكيرها وصرفها أو منعها من الصرف ، ويستشهد فى كل ذلك بالقرآن الكريم وبشعر قدامى الشعراء . وبكثير من أقوال العلماء .

وقد بذل المحققان الأديبان مجهودا مشكورا فى تحقيق هذا الكتاب وتقديمه للقراء فجزاهما الله كل خير .

خاتمـــة :

وبعد ، فقد صاحبنا أبا العباس المبرد فى هذه الصفحات التى حاولنا أن نعرف به فيها ، ورأينا كيف استطاع هذا العالم المجد أن يشق طريقه فى الحياة ، وأن يكتسب لنفسه مجدا وضعه على القمة فى طريق الخلود ·

لقد صنع المبرد نفسه ، ولم يعتمد على مجد موروث أو فضل سابق ولكنه اختار طريقه الأمثل فى الحياة مستعينا بذكائه اللماح وعزيمته الوقادة وسار لا يلوى على شىء ، حتى أصبح منارا يهتدى به ويقبس الناس من ضوئه ·

لقد ترك المبرد آثارا خالدة ، ومجدا علميا ســـامقا ، وثروة أدبية ضخمة وان كان لنا أن نستفيد من حياته شيئا فلنا أن نستفيد هذه العزيمة التى لا تعرف الكلل ، والمثابرة التى لا يعوقها الملل ، ونتعلم منه كيف يكون الصبر على عناء التحصيل ، والجد فى طريق الغاية التى لا يعوقها العبث أو التلهى ، ولاتفسدها البوارق الكاذبة، ولا تقنعها الاعتاب القريبة ، ولا يمنعها عن المضى فى طريقها العقبات والصعاب ·

لنا أن نتعلم منها كيف تكون رفعة العالم فى تواضعه ، وتمكنه من نفسه تمكنا يجعله لا يمارى فى حق ، ولايحمله الكبر على الجدال بالباطل أو التمادى فيه أو عدم التسليم لخصمه بوجهة نظره وصواب رأيه متى كان الحق فى جانبه · وتلك ميزة العالم الحق الذى أنار العلم بصيرته ، ورفعت المعرفة مكانته فلن يضيره اذن أن يكون الحق فى جانبه أو فى جانب غيره ·

كانت للمبرد ملكة صافية فى النقد والتمييز بين مراتب الكلام، أشار الكتاب الى بعض شواهد منها ، كما أشار الى بعض الأحكام الادبية له ولكنه لم يتعرض بالتفصيل لمذهبه فى النقد ، فذلك موضوع يحتاج الى دراسة مستقصية شاملة مستأنية ، لا تسعفها هذه العجالة الضيقة ولعل التوفيق يصحبنا فى الوفاء بذلك فى بحث آخر مستقل ان شاء الله ٠

وما زالت شخصية المبرد فى حاجة ماسة الى غير ذلك من بحوث، فهى حقيقة بذلك ، وجوانبها المتعددة غنية بمواضع الدراسة والبحث ، أما كتبه فهى تنظر بشغف الى الجهود المشكورة من العلماء والأدباء ليبحثوا عنها ويكشفوا عن مكنونها ويزيحوا عنها غبار الزمن المتراكم الذى غطى على الكثير منها ، وما تبقى فيجب أن يخرج الى النور ، لينتفع به عشاق المعرفة ورواد الثقافة ٠ مع ماخرج من هذه الكتب على يد بعض العلماء الجادين الافاضل الذين أسدوا للعربية يدا لا تنسى ٠

أن أسفارا جليلة للمبرد تشير اليها المراجع وتدل على أنه كان ذا قدم راسخة فى مختلف الميادين العلمية والأدبية نشعر بأننا محتاجون اليها احتياجا شديدا ٠

ومن يدرى ؟ فربما لو عثرنا عليها وحققناها نضع المبرد فى قائمة القراء والمتكلمين والفقهاء والمفسرين الى جانب رسوخ قدمه فى قائمة الأدباء واللغويين والنحويين ٠

وكيف لا ؟ وقد أثبتت له المراجع كتبا كثيرة فى العلوم المختلفة من بينها : احتجاج القراء ، معانى القرآن ، كتاب الحروف فى معانى القرآن ، صفات الله جل وعلا ، كتاب البلاغة ، كتاب العروض ، نسب عدنان وقحطان ، الحث على الأدب والصدق ، كتاب التعازى ، كتاب الأنواء والأزمنة ، أدب الجليس ، قواعد الشعر ، كتاب الناطق

كتاب الوشى ، وغيرها من الكتب التى يفوق عددها الأربعين كتابا • وقد ذكرها كتاب هدية العارفين فى أسماء المؤلفين وآثار المصنفين لاسماعيل باشا البغدادى على أنها اثنان وأربعون كتأبا •

هذه الثروة الضخمة لايصح أن تغفل عنها أنظار الأدباء والعلماء كما ينبغى أن تلتفت اليها وزارة الثقافة فتوليها عنايتها المعهودة ، كما ترد للمبرد بعض فضله على العلم والمعرفة ، وتؤدى بذلك حقا واجبا الى عشاق فنه وأدبه •

واننا نستميح القارىء عذرا فيما عسانا أن تكون قد وقعنا فيه من الخطأ أو التقصير •

والله المسئول أن يلهمنا دائما السداد والرشاد وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم •

احمد حسنين القرنى

عبد الحفيظ فرغلى القرنى

المراجع

١ – أخبار أبى تمام – للصولى

٢ – الأدب العربى فى ظلال الأمويين والعباسيين – لعبد الحميد المسلوت وآخرين

٣ – الأدب العربى وتاريخه – لمحمود مصطفى

الأدب العربى وتاريخه – لمحمد هاشم عطية

٥ – أدب الكتاب – للصولى

٦ – الأشباه والنظائر – للسيوطى

٧ – الأغانى – للأصفهانى

٨ – الانصاف فى مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين لكمال الدين الأنبارى

٩ – الأمالى – لأبى على القالى

١٠ – امالى ابن الشجرى – ابن الشجرى

١١ – أمالى المرتضى – للشريف المرتضى

١٢ – أمالى الزجاج – للزجاج

١٣ – انباه الرواة على انباه النحاة – للقفطى

١٤ – الأوراق – للصولى

١٥ – البداية والنهاية – لابن كثير

١٦ – بشار بن برد : حياته وشعره – لاحمد حسنين القرنى

١٧ ـ البيان والتبيين ـ للجاحظ .
١٨ ـ تاريخ الآداب العربية ـ لجورجى زيدان
١٩ ـ تاريخ بغداد ـ لابن الخطيب
٢٠ ـ تهذيب اللغة ـ للأزهرى
٢١ ـ التنبيهات على أغاليط الرواة ـ لعلى بن حمزة
٢٢ ـ التبيين فى مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين ـ لأبى البقاء العكبرى
٢٣ ـ ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب ـ للثعالبى
٢٤ ـ ثمرات الأوراق ـ لابن حجة الحموى
٢٥ ـ حياة الحيوان ـ للدميرى
٢٦ ـ الحيوان ـ للجاحظ
٢٧ ـ خزانة الأدب ـ للبغدادى
٢٨ ـ ديوان البحترى ـ للبحترى
٢٩ ـ درة الغواص ـ للحريرى
٣٠ ـ ذيل زهر الأداب ـ للحصرى
٣١ ـ رغبة الآمل فى شرح الكامل ـ للمرصفى
٣٢ ـ زهر الآداب ـ للحصرى
٣٣ ـ سير أعلام النبلاء ـ للذهبى (مخطوطة)
٣٤ ـ شرح مقامات الحريرى ـ للشريشى
٣٥ ـ شذرات الذهب ـ لابن العماد
٣٦ ـ شرح المعلقات ـ للتبريزى
٣٧ ـ شرح درة الغواص ـ للشهاب الخفاجى
٣٨ ـ شرح نهج البلاغة ـ لابن أبى الحديد
٣٩ ـ شرح الكافية ـ للرضى

٤٠ ـ شرح ابن عقيل على الألفية ـ لبهاء الدين عبد الله بن عقل العقيلى

٤١ ـ صبح الأعشى ـ للقلقشندى

٤٢ ـ ضحى الاسلام ـ للدكتور أحمد أمين

٤٣ ـ الضرائر وما يسوغ للشاعر دون الناثر ـ للألوسى

٤٤ ـ طبقات النحاة ـ لابن شهبة الأسدى (مخطوطة)

٤٥ ـ طبقات النحويين واللغويين ـ للزبيدى (مخطوطة)

٤٦ ـ العقد الفريد ـ لابن عبد ربه

٤٧ ـ العمدة ـ لابن رشيق

٤٨ ـ غرر الخصائص ـ لرشيد الدين الوطواط

٤٩ ـ الفاضل ـ للمبرد

٥٠ ـ فقه اللغة وسنن العرب ـ للصاحبى

٥١ ـ الفهرست ـ لابن النديم

٥٢ ـ الكامل ـ للمبرد

٥٣ ـ الكشكول ـ للعاملى

٥٤ ـ كشف الظنون ـ لحاجى خليفة

٥٥ ـ اللباب فى تهذيب الانساب ـ لابن الأثير

٥٦ ـ ما اتفق لفظه واختلف معناه ـ للمبرد

٥٧ ـ المزهر ـ للسيوطى

٥٨ ـ معجم الأدباء ـ لياقوت

٥٩ ـ المختصر فى تاريخ البشر ـ لأبى الفدا

٦٠ ـ مختارات البازودى ـ للبارودى

٦١ ـ المذكر والمؤنث للمبرد
٦٢ ـ معجم الشعراء ـ للمرزبانى
٦٣ ـ معجم المؤلفين ـ لعمر رضا كحالة
٦٤ ـ المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر ـ للموصلى
٦٥ ـ الموازنة بين أبى تمام والبحترى ـ للآمدى
٦٦ ـ الموشح ـ للمرزبانى
٦٧ ـ المحتسب ـ لابن جنى
٦٨ ـ محاضرات الأدباء ـ للأصبهانى
٦٩ ـ مغنى اللبيب ـ لابن هشام
٧٠ ـ المقتضب ـ للمبرد
٧١ ـ نزهة الألبا فى طبقات الأدبا ـ للأنبارى
٧٢ ـ النجوم الزاهرة ـ لتغرى بردى
٧٣ ـ هدية العارفين فى أسماء المؤلفين وأثار المصنفين لإسماعيل باشا البغدادى
٧٤ ـ وفيات الأعيان ـ لابن خلكان
٧٥ ـ طبقات المفسرين ـ للداودى (مخطوطة)
٧٦ ـ ابن قتيبة ـ للدكتور عبد الحميد سند الجندى
٧٧ ـ عيون الاخبار ـ لابن قتيبة

الموضوع	الصفحة
مكانة المبــرد	٥٦
صلاته بعظماء عصره	٦٠
بين المبرد والزجاج	٦٧
بين المبرد وثعلب ـ علاقة العلماء ببعضهم خلال القرن الثالث	٧٣
تعريف بثعلب	٧٥
آراء المبرد فى العلماء والأدباء	٨٩
بعض آراء المبرد فى النقد واللغة والنحو	٩٥
من أمالى المبرد ورواياته وفكاهاته	١١٣
اتهام ظالم	١٣١
المبرد بين الشعر والشعراء	١٤١
آثار المبرد العلمية والأدبية	١٥١
كتاب الكامل	١٥٣
بين المبرد وابن قتيبة	١٧٥
كتاب الفاضل	١٨١
شرح لامية العرب	١٩١
كتاب ما اتفق لفظه واختلف معناه	١٩٦
كتاب المقتضب	٢٠٠
كتاب المذكر والمؤنث	٢٠٧
خاتمــة	٢٠٩
مراجع الكتــاب	٢١٣

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقـــدمة	٣
عصر المبرد ـ الحالة السياسية والاجتماعية	٩
الحالة العلمية والأدبيـة	١٣
فن الأدب وتطوره	٢١
نشأة علم النحو وتطوره	٢٧
النحو بين البصرة والكوفة	٣٠
طبقات النحويين من الكوفيين	٣٤
أسباب الاختلاف بين البصريين والكوفيين	٣٥
المذهب الكوفى	٣٦
اسم المبرد وكنيته ولقبه	٣٩
مولده ووفاتـــه	٣٩
المرحلة الأولى من حياته..	٤٠
أقوال فى نسبه	٤١
لقبـــه	٤٤
شـيوخه	٥١
من أخذوا عنه وتتلمذوا له	٥٦